مجلة المجمع العلمي العربي

أنشئت سنة ١٣٣٩ هـ الموافقة سنة ١٩٢١ م
تنشر في دمشق مرة في الشهر

تموز و آب سنة ١٩٤١ م
رجب و شعبان سنة ١٣٦٠ هـ

دمشق
المجمع العلمي العربي

قيمة الاشتراك السنوي } في سورية ولبنان ٣٠٠ قرش سوري
الدفع مقدماً } وفي جميع الأقطار ٤٠٠ « «

مطبعة الترقي بدمشق

في الهزيمتين

من مذكرات الاستاذ محمد كرد علي

« وهي تعد الآن للنشر »

من أجمل الذكريات ذكرياتُ الصبا وما فيه من مرح ومغامرات ، وما يتخللها من توفيق وخيبة ، قد لا يصيب المرء مثلها ، ولا يجسر على اقتحام أخطارها ، اذا علتْ به السن ، « والذكرياتُ صدى السنين الحاكي » كما قال احمد شوقي . والذكرياتُ يُحرَص على تدوينها في الغالب لما تحمل في تضاعيفها من عبر وسلوى .

وهذا تفصيل ما وقع لي عند هزيمتي مرتين ، من وجه من أراد بي السوء من عمال العثمانيين قبل اكثر من ثلاثين سنة ، وهو تدوين لا يخلو فيما أرى من طرافة وتفكيهٍ .

ولكثرةِ ما انهزمتُ ، ووفقتُ في هزائمي كلها ، فأبنتُ عن مهارة في الهزيمة دعاني بعض الظرفاء « هزيمةً » وأرادني أحد العلماء من المصريين (العلامة احمد زكي باشا رحمه الله) ان أؤسس في القاهرة مدرسة أُعلم بها كيف ينهزم الخائف الذي يترقب ، كما يتعلم الطلبة علوم الدين في الجامع الازهر وعلوم الدنيا في الجامعة المصرية . ولعلي كنت أُجيب الطلب لو طال ذاك الحكم في بلادنا اكثر مما طال .

أقام والي سورية دعوى على جريدتي المقتبس ، واحتال لاقفال الجريدة والمجلة والمطبعة قبل صدورِ الحكم علينا ، وبعث الى مرجعه الأعلى في الاستانة يستأذن في الموافقة على مقترحاته ، فوافقه بلسان البرق على القاء القبض عليّ واقفال الجريدة والمطبعة . وجاءني بعد منتصف الليل شابان من محلة القيمرية ، كان لأحدهما اتصال بادارة البرق عرف بالأمر فطلب اليّ ان البس ثيابي حالاً وأسير معهما ،

فان الشرطة تأتي بعد حين الى داري لتفتشها وتقبض عليّ ، وكان الأمر كما قدّرا ، وسرت معهما وانا لا أعرفهما وغاية ما عرّف أخي أنهما مشتركان بالجريدة ومن أرباب المروءة من الشبان ، فبت ليلتي في دار أحدهما وهي دار الشيخ غزال ، وبعد أيام اكرم أهل الدار مثواي فيها انتقلت الى حيّ السوَيقة ، وأويت الى دار صديقي الشيخ عبد الرحيم البابلي يطربني بصوته وانشاده البديع ، ثم عدت الى داري واعددت معدات الرحيل ، وقلت : ما دمت مضطراً الى الاختفاء هنا في البيوت ريثما يُنظر في دَعواي ، وقد يطول النظر فيهـا عمداً ، فالأولى ان اصرف هـذا الوقت في اوربا ، وكنت منذ سنين أريد الرحيلَ اليها للدرس والبحث فتعوق العوائقُ .

وفي ليل الثلاثين من شهر رمضـان سنة ١٣٢٧ هـ ركبتُ من دمشق يرافقني صديقي السيد شريف تقي الدين ، وكان بطلاً نزّالاً يعرف الطرق والمسالك والمخابئ . ومن قرية القابون مررْنا قبيل الفجر ،ومنها الى قرى برْزة فمعربا فبسيمة فدَير مقرّن فكفير الزيت فدير قانون فكفر العواميد ، وفي هذه القرية بتنا ليلتنا الأولى . ومن الغد قصدنا الى سوق وادي بردى فعيتا الفخار فكامد اللوز فجب جنين فلالا فبعلول ، وفي هذه القرية بتنا الليلة الثانية . وفي اليوم الثالث قصدنا مشغرة بلد المذابغ ، وأنجدنا قاصدين جزّين . وعاد صاحبي الى البلد وسرت وحدي الى تاِتر فعاطور فالمختارة فدير القمر وبتُّ فيها ، ووصلت الى البارُوك مارّاً ببيت الدين ، وكفر نبرخ وبت ليلتين في الباروك ومنها سرت الى عين زَحلتا فبت فيها ، ومنها الى حمانا فقرْنايل فصليما وبت فيها ثلاث ليال ، ومنها الى بجنس فبنكفيا فبيت شباب ، وقضيت في هذه القرية الكبيرة فيما أذكر ثلاث ليال ثم قصدت الى قرية الشاوية فقضيت فيها نحو عشرة أيام ، واخترت المقامَ في هذه القرية لأكون على مقربة من الفريكة بلد الاستاذ امين الريحاني فأقضي معه بعض ساعات النهار ، ومن الشاوية نزلت الى بيروت وبت في دار صديقي احمد إياس

ريثما تيسر لي بعد الغروب النزول الى باخرة نمساوية قبيل اقلاعها بقليل ·

كان رآني في فندق دير القمر السيد صادق الكسم من تجار دمشق فأنكر عليّ جرأتي في رحلتي ، وقال لي ان الوالي يفتش عليك في كل مكان ، وكان الوالي عدوي نقل من دمشق الى بيروت ، فالأولى ان ترحل الى مصر براً · فقلت له هذا لا يتيسر الآن فقال : اذاً تأوي الى القرى ، وتتخذ من بيوت العجائز مسكناً ، ولا تنزل في الفنادق ، ولا تجتمع الى الرجال ، وعلى هذا أردتُ النزول في عين زحلتا في دار عجوز ، ولما وقعت عينها علي بكت ، فسألتها ما يبكيك يا أماه ؟ فقالت : كان لي ولد في اميركا مات منذ مدة وليس لي غيره ، وكان يشبهك بالصورة ، فلما رأيتك تذكرته · ثم سألتني عن ديني فقلت لها : برتستانت ، ففرحت ، وقالت : وأنا برتستانت وهذه التوراة ، واشارت الى المنضدة ، والقسُّ يسهر عندنا · فلما سمعت باسم القس خفت ان يجيء تلك الليلة وتنكشفَ له حقيقتي ·

وكنت قرأت تاريخ الاصلاح الديني ، وعلقت في ذاكرتي شبه البرتستانتية على الكثلكة ، حتى لأستطيع أن أتكلم ساعة في البرتستانتية ولا أعرف ، إلا أن يكون المخاطب قساً مثلاً ، فانه اذا كان ذكياً يتجلى له أمري بعد قليل · فلما قالت المرأة ان القسّ يجيئها من الليل ، ادعيتُ ان غرفتها لم تعجبني ، وأكرمتها ببضعة قروش ، وخرجت الى اسفل القرية فنزلت في الفندق · وكنت صنعت اسماً أردت ان اتسمى به ذاك اليوم ، وهو اسم احد اصحابي المسيحيين بدمشق (خليل العبسي) فلما رآني صاحب الفندق وعرف اني دمشقي قال لي : ان خليل العبسي شريكي في هذا الفندق ، وكان الآن عندي وسافر ، فحمدت الله على اني لم استعر اسمه ، وسألني عن اسمي فاخترت له اسماً آخر من اسماء النصارى ، وأظنه أعفاني من السؤال عن مذهبي ·

وفي لبنان لا بدّ لك ان تبوح بثلاثة وأنفك راغم : مذهبك وذهبك وذهابك ،

أمور كانت العرب تحرص على كتمانها . واللبناني لتدينه يحاول ان يعرفك بما تدين ، ليزيد أنسه بك وتبسطه معك اذا كنت على مذهبه ، ويريد ان يعرفك اذا كنت (مقرشاً) ام لا ، فان معاملة الموسر تختلف عن معاملة المعسر ، ويودُّ ان يطلع على مقامك عنده ليكون على بصيرة فيما يقول لك وما لا يقول . وأنا في تلك الحال لا استطيع ان اقول الا اني برنستانتي ، والحكومة تطاردني ، والوالي غاضب عليَّ ، والأنظار ترمقني . وقد جازت برتستانتيتي على من نزلت عليه ، وهو خوري الشاوية وعلى الخورية امرأته . واتفق ان ابتعت من الطريق عدة كتب من كتب البرتستانت ، فتمت الحيلة على الخوري والخورية عشرة أيام . وكان الخوري يراني اقرأ كتب البرتستانت ، وانا اقصد بالقراءة الا أطيل الحديث معه ، وهو يسألني لماذا يقرأُ البرتستانت كثيراً ، فأجيبه لأن رؤساءنا يوصوننا بذلك . واتماماً لما تحيلتُ له كنت اطلب من الخورية ان تأتيني بزجاجة عرق ، وليس من نيتي أن اشرب منها ، فاذا انصرفت عني أخذت قدحين وصببتها في الحديقة ، لأوهمها اني تناولت من عرقها .

ودعوى البرتستانتية ما نفعتني في « بيت شباب » ذلك ان امين الريحاني قال لي إنه زار حبيس ماربطرس قرب بيت شباب ، وهو يلبس المسوح على عادة قدماء الرهبان ، وأنه كتب فيه مقالة بالانكليزية فقلت له : وأنا اريد أن أزوره واكتب فيه مقالة بالعربية . فقال لي : وانت في اي حال الآن ؟ فقلت له : لا بدَّ من زيارته ، ومن الغد استصحبت ولداً من ابناء القرية يدلني على قلاّية الحبيس ، فما إن حييته حتى كان أول سؤال وجهه إليَّ بالطبع سؤالي عن مذهبي . فقلت له : برتستانت ، فصاح : انت هالك ، انت هالك ، وهل انت الذي صبأت عن دينك الأصلي ؟ قلت له : جدي . قال : وهل لك راتب من البرتستانت ؟ قلت لا ، قال : أتعرف القراءة ؟ قلت : قليلاً . قال : اقرأ الكتاب المقدس تعرف ان لوثيروس ما قال بالبرتستانتية الا ليتزوج ، الى غير ذلك مما أفاض فيه . واظن

معلوماته عن النصرانية لا تزيد على معلومات العامة ، وربما كانت معلوماتي يومئذ أرقى من معلوماته .

وكان الحبيس اكرمني بحفنة من التين المجفف فأخذت أتناول منه ، والغلام الذي يرافقني يحدجني بنظره ، والغالب انهم لا يتناولون منحة القس امامه ويجعلونها للبركة فقط ، كما يتبارك حجاج المسلمين بماء زمزم . وبدأ المطر بنهمر ، فلا والله ما خلصت من عظاته ، وتكفيره لي ، وتخويفي عاقبة أمري ، الا بانقطاعها ، وهرولت أنا ودليلي ، وقد اعطيت الحبيس شبه وعد ان اعود الى قراءة الكتاب ، وارجع الى حجر الكنيسة . وسرّ دليلي بما سمع من وعظ الحبيس لي . وقال لي ان اعمل بنصيحته حتى أنجو من العذاب يوم الدينونة . ثم قال : (يا معلمي ، شفت هذا الحبيس ? كان قبل ان ينقطع في صومعته يقف ساعة امام المرآة يصفف شعره ويرطله ، وكان من شباب البلد ، وخطب ابنة عمه فأبت ان تتزوج به ، ولما امتنعت منه امتناعاً قطع معه أمله ، دخل في الرهبنة) فقلت له : هذا قد يقع فيعشق المرء ويخيب امله في عشقه فلا يجد غير الرهبانية والانقطاع الى الله عزاء له وسلوى عما شغل قلبه مدة .

صادفت في الباخرة النمساوية التي هربت عليها من بيروت ، صديقي سعاد بك مدير صحة ولاية سورية ، وشقيق حسين جاهد بك رئيس تحرير جريدة « طنين » التركية في الاستانة ، ومن زعماء حزب الاتحاد والترقي ومن اكبر كتاب الترك ، ومعه صديقه صلاح الدين جمجوز بك صاحب جريدة « قره كوز » الهزلية التي تصدر في الاستانة ، ففرح سعاد لتمكني من الهرب ، وسرته نجاتي من الوالي ، وكان من انسبائه الا انه مشهور بكراهته له ، وأحبّ ان يغيظه فقال لي سأكتب اليه : كيف تدعي انك كنت ناظراً للضبطية (مدير الامن العام) لمثل السلطان عبد الحميد ، وهذا عدوك يمرّ من تحت لحيتك في بيروت ولا تدري به فأين معرفتك ويقظتك ? فرجوته أن يرجئ هذا المزاح والتشفي من نسيبه على حسابي

الى مابعد اقلاع السفينة من ميناء يافا ، حتى لا يكون للوالي ولا للدولة العثمانية بجندها وحرابها سلطان عليّ .

وفي هذه الرحلة قضيت في باريز أشهراً حتى برئت ساحتي ، ورجعت الى بلدي عن طريق الاستانة . وكان الداعي الى الرحلة شراً فأنتج خيراً كثيراً .

* * *

أما الهزيمة الثانية فكانت أهم من الأولى لتشعبها وطول الطرق التي سلكتها براً ، ولأني كنت فيها كل ساعة معرّضاً للخطر ، وقد أرسلت حكومة الولاية بصورتي الى جميع المخافر والثكنات والمرافئ في سورية لأُعرف عند رجال الدرك والشرطة فيقبض عليّ حالاً . ونوعت الأساليب حتى أعني أثري ويغمّ على الوالي أمري ، وأقنعه بأني خرجت من البلاد فما اقتنع ، حتى ان احد اصدقائي أتاني بورقة من اوراق الرسائل وبغلاف مطبوع عليهما شعار البواخر الفرنسية (الميساجرى ماريتيم) وكتبت كتاباً بالريشة الدقيقة يشعر بأني كتبته على ظهر الباخرة ، ووضع في البريد من بيروت باسم أخي حتى ينفس خناقه قليلاً ويكفّ الطلب عني ، فلما ألقي الى الوالي تأمله فقال : الخط خطي ، والورقة المطبوعة ورقة الباخرة ، لكني مابرحت دمشق . وبهذا فقط أثبت انه ناظر ضبطية قديم .

لما فوجئت بهذه الدعوى الجديدة كنت راجعاً من رحلة الى المدينة المنوّرة استغرقت ثلاثة وعشرين يوماً . وكان غرض الوالي من هذه الدعاوي الملفقة اشتغالي بنفسي ، والراحة ، ولو أياماً قليلة ، من نقد صحيفتي . وكان الوالي في هذه المرّة أشد نقمة عليّ من المرات السالفة ، وذلك لاعتصامه بالاتحاديين ، وكانوا أتوا به الى سورية ليعاضدهم في انتخاب اعضاء مجلس النواب ، فعمل بما ارادوا ، مع انه ما كان من حزبهم ولن يكون ، فرأى بذلك الفرصة سانحة للقضاء عليّ آخر الدهر . ولما فررت أشاع في جماعة الشرطة والدرك ان كلّ من يأتي بي اليه حياً او ميتاً يُرقيه من جندي عادي الى رتبة « يوزباشي » مباشرة ، عدا ما يعطاه من مكافأة نقدية .

كنت قادماً بعد العصر الى ادارة الجريدة ، فرأيت سرية من الجند تحيط بها ، فغمزني أحد شبان حي سوق ساروجا ان ارجع ، وكنت على بضع خطوات من الباب فرجعت وتبعني فقال لي : إن اخاك قبضوا عليه الساعة ، وهم في تفتيش الادارة . ولما رجعت الى داري وقع في قلبي ان القوة المسلحة لا تلبث ان تأتي للقبض عليّ . وكان الأمر كما حسبت ، فخرجت من داري سائراً على قدمي بين الحدائق لا ألوي على شيء ، ومعي السيد حكمة العسلي ، وانا افكر كيف اقطع نهر يزيد الحائل بيني وبين الجبل ، وكان الوقت ربيعاً ، والانهار طافحة بالمياه ، فطلبت الى فلاح هناك ان يجتاز بي النهر فمشى الى مجاز يعرفه ، وما كان اكثر تعجبه ان رأى شجرة صفصاف كبيرة قلعت من جذعها وأُسندت على شاطئي النهر ، كأنها جسر وُضع لأعبر عليه ، ومررت قليلاً حتى بلغت قبة السيار ، ومنها سقطت الى دمر اقصد بيت صديقي الامير عمر الحسني ، وكان حانقاً عليّ لأني كتبت ، او كتبت الجريدة ، تعريضاً بأخيه الامير عبد الله باشا لما قام بدعوة الجمعية المحمدية هو والسيد عبد القادر العجلاني في دمشق ، وكانت قامت هذه الجمعية بايعاز السلطان عبد الحميد ، لقلب النظام الدستوري ، وإعادة الحكم المطلق الاستبدادي ، وسيق القائمان بها الى الاستانة للمحاكمة وبعد جهد جهيد كتبت لهما النجاة من القتل .

قصدتُ دار الأمير عمر لأنه افرنسي التبعة ، ومن المتعذر تفتيش داره ، ومع هذا احتاط وخبأني ثلاثة أيام في دار بعيدة عن داره . وفي اليوم الرابع ركبنا مع الامير طاهر ابن اخي الامير عمر من وراء جبال دُمر فبلغنا المزّة وفي تلك الليلة بحثت الحكومة عني في قرية المزة ، وكبست في صالحية دمشق دار صديقي عبد القادر بك المؤيد ، ولم نقف في المزّة بل اجتزنا ارضها فقط ومنها سرنا الى قرية بلاس وهي مزرعة الامراء آل الامير عبد القادر ، فنزلت في دار الامير محمد ابن السيد محي الدين ، وامه ابنة الامير عبد القادر الكبير ، فقضيت عنده أياماً على غاية من الهناء والطمأنينة ، حتى ابتاع لي الامير طاهر ثياباً بعضها من سوق الخلَق

كالمعطف والعباءة ، وهذه اول مرة لبست بها في حياتي ثياب غيري ، ولا سيما مثل هذه الثياب الوسخة ، وقد تكون موبوءة ، وذلك لينطلي امري على من يراني ، وكنت اطلقت لحيتي من يوم استترت ، وشعثت هندامي حتى أشبهت صورتي بعض سكان الحاضر في حماة . وكان جاءني احد اصدقائي عبد القادر آغا سكر من اعيان حي الميدان وابطال الرجال يريد ان يصحبني الى مصر فظننته هازلاً فاذا هو يجدُّ ، ورجع بعد ايام يركب حصانه ، وقد ابتعت حصاناً يحملني معه ، وفي الساعة التي كانت النار تلتهم سوق الحميدية بدمشق ، والحكومة والناس مشتغلون باطفائها قال الوالي : الآن يفرُّ صاحب المقتبس مغتنماً فرصة اشتغالنا بهذه الفادحة ، فأمسكت عليَّ محطات السكك الحديدية كلها ، وفاته ان لدمشق عشرات من المنافذ وان من اتهم تهمتي لا يهرب من طريق السكة الحديدية ما دامت الأرض واسعة . ومررنا عصر ذاك اليوم من بلاس حافظاً لصديقي الأمير محمد اجمل ذكرى ، وقد كتم وجودي في بيته حتى عن اهله وانسبائه ، ومنهم من كان يكرهني ، وربما كان يتقرب من العثمانيين بدلالتهم على مخبئي .

* * *

سلكنا سبيلاً معوَّجاً من اول مرحلة رحلناها من حوْش بلاس ، فاجتزنا ارض المزة وبلاس والاشرفية وصحنايا والدرخبية والطيبة وشقحب من قرى وادي العجم فذَير العدس فالحارة من اقليم الجيدور حتى النقرة من اقليم الجوْلان ، وانتهينا عصر اليوم التالي الى نهر الرّقاد ، ولم نُهوِّم في الطريق الا دقائق قليلة ، لأن صاحبي كان يوجس خيفة من ان يعرف بالامر أحد من اصحاب الحكومة فيلحق بنا الجند ، وكنا رأينا في الليل ، والقمر ليلة البدر ، بضعة انفار من الدرك فوقفنا عليهم وشربنا ماء ، وكلمهم صاحبي بلهجة مغربية فعرفوا اننا مغاربة (وسأل أحدهم في عودته عن سبب مرابطتهم هناك ، فقالوا : (ان صاحب المقتبس سيمر من هذه الأرجاء وقد امرتنا الولاية بالقبض عليه)

وتعرّف صاحبي عبد القادر آغا في الجولان الى رجل نجدي اسمه عبد العزيز الحيسنيّ يقود الى مصر مع ستة من الرعاة سبعة وسبعين جملاً ، هي ملك احد اصدقائي الحاج ياسين دياب من تجار دمشق . فذكر عبد القادر آغا للحيسنيّ ما وقع لي وما يتوقع من شرّ يصيبني اذا سقطت في يد أحد رجال الحكومة ، وانه رافقني حتى يبلغني مأمني ، فقال انه سمع بقصتي في دمشق . ومما قال له صديقي انك اذا اخذته تحسن لأهل دمشق ، وهو يحمل دراهم يعطيك بقدر ما تحب . فأجابه : تقول لي انك تحسن لأهل دمشق اذا هرّبته ونجا بروحه ، وتعرض عليّ ان آخذ منه اجرةً ، ومتى كان العربيُّ يأخذ أجراً على المعروف .

وعاد صاحبي عبد القادر آغا سكر الى دمشق وسرت على بركة الله مع جمال النجديين ، فقطعنا سهل الجولان وبتنا تلك الليلة دون عقبة فيق . واقترب مني ساعة نزولي فارس من خفراء شركة الدخان ، يحادثني ويتحبب اليّ ، فأزعجني بكلامه ، ولاحظ أني متعب كثيراً فقال لي : مالك وللجمال تتجر بها — ورُعاة الجمال يوهمون كل انسان اني انا صاحبها — لو فتحت لك دكاناً في سوق باب البريد ببلدك لعشت في نعيم ، وخلصت من هذا الشقاء ، ومن قطع الصحاري والبراري ، فتثاءبت وتناومت . فقال لرفاقي : « انه تعبان المسكين » وتركني وانصرف

ومن الغد هبطنا العقبة فأشرفنا على اراضي غوْر بيسان وبحيرة طبرية ونهر الأردنّ (الشريعة) فاجتزنا الجسر القديم المتداعي سباحةً على الدواب ، ثم توقلنا الجبل الى موقع الدّلايكة ، وهو بين جبلين منفرجين متآزيين ، وبتنا ليلتنا في سوق الخان بلد الصبيح على ساعتين من الناصرة . وفي اليوم الرابع دخلنا في غابة عظيمة من شجر البطم نحو ساعتين ، فبلغنا قرية دبورية ، وفي منقطع ارض هذه الدسكرة يبتدئ مرج ابن عامر (سهل يَزْرَعيل) فقطعناه عرضاً في اربع ساعات حتى بلغنا قرية اللجون ، ومنها الى وادي عارة ، وطوله ثلاث ساعات ، وهو ضيق متوازي الأضلاع . وبتنا الليلة الخامسة في عيون الأساور على ساعتين من قيسارية ، واجتزنا

في اليوم السادس بقرى نابلس مثل قاقون وقلنسوة والطيرة ومسكة فبلغنا نهر العوجاء على ساعة ونصف من يافا .

وحدثني من اثق به بعد مدة ؛ أن جماعة من اعيان نابلس وشبانها المثقفين ؛ ومعظم شبانها مثقف ؛ استصرخوا قرى نابلس التي يلاحظ اني اجتاز بها ؛ وطلبوا الى بعض سكانها اذا رأوني ان يحملوني الى مكان بعيد ؛ ويكرموا مثواي ؛ ويبعدوني عن انظار كل من له علاقة بالحكومة ؛ فكان اهل القرية من القرى المستصرخة ينتدبون أناساً من شجعانهم واصحاب المروءات منهم يقفون على الطرق في الليل والنهار ، لينقذوني من مخالب الظالمين . وباتوا بها يترصدون المعابر والمسالك أياماً وليالي حتى قرأوا في الصحف المصرية أني بلغت مصر . وهذه مروءة عربية استرق بها النابلسيون قلبي ما دمت حياً .

وفي اليوم السابع اجتزنا قرى الساحل مثل جبنة ، سدود ، مجدل ، بربرة ، بير هديد ؛ غزة . ورأينا بعض المستعمرات اليهودية الزاهرة بالعمل والانتاج . وقضينا الليل في دير البلح . وفي اليوم الثامن دخلنا في رمال على نحو ثلاث ساعات من غزة ، وبعد مسيرة ست ساعات بلغنا محطة رفح أول حدود مصر والشام . وفي اليوم التاسع دخلنا في رمال خمسة أيام حتى قالت الاسماعيلية : ها أناذه . وكنا نسير في هذه الجفار على مقربة من البحر لا نبعد عنه كثيراً ، والرمال لا يتبدل شكلها.

ذكرت هذه المراحل لأني قطعتها على راحلتي وما كنت لأقطعها لو خيرت . وقد استفدت من هذه الرحلة فائدة جغرافية وطوبوغرافية لا تقدر . وما كان يومئذ خط حديدي يصل بين آسيا وإفريقية او بين دمشق والقاهرة ، ولا طرق معبدة تسلكها السيارات . وقصدت بتقييدي هذا تسجيل ظاهرة غريبة ، أو بدع قديم بطل ، وذكرى أيام قضيتها في عالم الأباعر فاستحليتها وهي مرة .

* * *

قلت في محاضرة ألقيتها في الاسبوع الذي بلغت فيه القاهرة ، في فندق

ادن بالاس ، اجابة لمقترح جماعة من السوريين ، بعد ان عددت ما وقع لي منذ خرجت من بلدي الى ان دخلت الاسماعيلية ، وألممت بتاريخ ذاك الطريق الذي كان من اعمر الطرق منذ كان الاسلام : وكأن رحلتي في الشهر الماضي الى الحجاز وجنوبي الشام ونزولي على اهل البادية من اهل المدر والوبر كانت مقدمة لما امتحنت به هذا الشهر من مؤاكلة الاعراب في صحفة واحدة وفقدان الملعقة والشوكة والسكين والفوطة والكأس ، والاكل من طعامهم ثمن العراق والبرغل جريش الحنطة والتمر والخبز المعمول بالملة او على الساج يسجر ببعر الأباعر، والرمال تسفو فتدخل كل مايعمل هناك من خبز وأدم ، ومأكول ومشروب ومطبوخ ومسلوق ومقلي ومعجون .

ولقد حملوا لي الماء في قربة فما هي الا ساعات حتى تغير منه الطعم واللون والرائحة ، وبقيت خمسة أيام أسقى من هذا الماء وأعده نعمة بالقياس الى مياه الجفار البشعة المهوعة ، وهي بعض ماء البحر روقتها الرمال قليلاً . وأذكر ان « خويي » الحيسني ناداني مرة ، وجمالنا مسرعة في طريقها ، وحاديها يحدو لها بصوت يذكر بنجد واهل نجد ، فالتحقت به مسرعاً ، وما انحرفنا دقائق عن قارعة الطريق حتى كنا وسط فريق من العرب فاستسقى فأتوه « بذكرة » شرب منها واعطاني فاذا بها لبن رائب ثم أرادني ان اشرب وأشرب ، وأردت ان اعطيهم شيئاً فأشار الي ألا أفعل . وكنت اتمنى شربة واحدة من هذا اللبن كل يوم وادفع فيها جنيهاً وأنا غير مغبون . وكنا مرة نزولاً على بئر أنشئ على عهد الخديوي عباس الثاني ، وعليه زبر اسمه فأتاني وليد بقطف من الطماطم (البندورة) الصغيرة فأحببت ان أعطيه ريالاً فصرخ خويي « بشلك » ثم قال لي : اذا توسعت في اكرام البدو هذا التوسع تضر بنا لأنا لا نزال نجتاز بهم طول السنة فاذا تعودوا على الكثير نضطر ان نعطي كل مرة كما اعطيت فلا يستقيم لنا بعد ذلك حال معهم .

وكنت في الليلة التي نجتاز في صباحها برفح آخر الحدود العثمانية المصرية قلقاً جداً ، وقضيت ليلي وانا في هواجس أدبر وأقدر . وصبرت قبيل الفجر أمام قطار

الجمال وأنا أقول في نفسي : الآن فصل الخطاب فاما ان ادخل ارض مصر ناجياً من العثمانيين ممتعاً بالنعيم بعد هذا الشقاء ، أو اعود أدراجي وانا في قبضة الترك الى مُطبق من مطابقهم ، ألقى ما ألقى من معاملتهم الجائرة . وبعد خمس ساعات سألت الحيسني متى نبلغ رفح فقال : قطعناها منذ كذا ساعة ودفعنا عنك للجندي ثمن علبة دخان لما اعترضنا قائلاً ان اخراج الخيل من الأرض العثمانية ممنوع فأقنعناه بأن هذا حصان صاحب الجمال الذي تراه . فأخذ « البشلك » وهي قطعة تساوي قرشين ، ولم يمسسنا بسوء ولم يحقق من امرنا غير ما رأى .

وسعدت في هذه الرحلة ان رأيت بين الشام ومصر صورة مصغرة من عيش اهل جزيرة العرب ، وذلك بالاختلاط مع تجار الجمال ورعاتها ، وكلهم نجديون لا يعرفون الفضول ، وما رأيت أحداً سأل خويي عبد العزيز عني بالإشارة ولا بالعبارة ، وكانوا في كل مساء وصباح يختلفون الينا ونختلف اليهم ونشرب القهوة معاً وحديثهم في البعير وسوقه ورعيته وثمنه ورواجه وكساده . ولم اسمع في اربعة عشر يوماً بلياليها كلمة هُجر وبذاء ولا تجديفاً ولا لعناً ولا نميمة ولا غيبة ولا كذباً ولا منكراً . وكان أولئك الأعراب بأجمعهم مواظبين على صلواتهم ، يتيممون بالرمل اذا اعوزهم الماء ولا يسرفون فيه اذا وجد . وأنست بلهجتهم وفيها كثير من الفصح ولها رنة تطربك .

نزلت في الخيام في الشهر الذي وقع قبل هذه الرحلة ثلاث ليال في أرض ابل على شيخ من عرب الشرور اسمه محمد ابراهيم ، وأخرى في بير البيطار على محمد ابي الفرج شيخ بني عطا ، وهذان المنزلان على مقربة من وادي موسى ، وبت ليلة في الزيزاء (الزيزة) عند صديقي فواز بن سطام شيخ مشايخ بني صخر فرأيت العيش البدوي على اختلاف درجاته ، وكان العيش في الليلتين اللتين قضيتها في بلاد الشراة « ديمقراطيًا » وفي ارض البلقاء « ارستقراطيًا » نمنا فيها على فرش الحرير محشوة بريش النعام ، وشربنا في الصبح لبن النياق .

سألني احد الأعراب اي العيش افضل لنا نحن البدو : الحضارة ام البداوة ؟ فقلت له : ابقوا على بداوتكم واقتربوا من المدنية ما سمحت لكم حالتكم واياكم ان تغفلوا عن تعليم اولادكم . واني أخاف اذا عاشرتم الحضر فأكثرتم من عشرتهم ان يختلط عليكم امركم وتخرجوا عن فطرتكم واخلاقكم الى ماتئن منه حضارتنا من النفاق والكذب والتزوير والخديعة . ولولا الغارات المتواترة عندكم لآثرت ان اعيش في هذه الديارات بين البوادي ولو اشهراً في السنة .

زرت في تلك الرحلة عمّان والصلت والكرك ومادبا ومؤتة ، وجئت معان فقصدت الى متصرف الكرك صاحبي القديم حليم بك ابو شعر وطلبت منه ان يُصحبني بدركي لزيارة وادي موسى فنادى دَرَكياً واسرّ اليه شيئاً في أُذنه واظنه قال له ان ينتبه لحديثي مع البدو وان يجيئه بخبري كله . وشكرتُ له لأنه لم يقل له جئني برأسه ، ولو فعل لجلب السرور الى قلوب الاتحاديين ، القابضين على زمام المملكة يومئذ ، ولرقيت درجته في ذاك الاسبوع الى والٍ . وانتهى بنا السير قبيل الغروب الى عين ماء عذبة على خمس ساعات من معان فقلت للدركي : نتعشى هنا ، فاستنكر ذلك وقال : وهل يمكن هذا وبعد ساعة نصير الى قبيل العرب فيذبحون لنا ؟ فأقنعته بأن نأكل من زادنا لأني لا أُريد ان اشق على الفقراء فنزل واكلنا .

وفي العشاء كنا نزولاً على العربان فما ان ترجلنا حتى سمعت صوت «المهباج» لعمل القهوة وأصواتاً أخرى تنبئ بأن الخروف يذبح . فقلت للدركي : قل لهم انا تعشينا ، فقال : هـذا كلام لا يسمع ، دع هؤلاء الذين تراهم من الصبيان والشبان والرجال يأكلون الليلة على جرايرك (بسببك) فانهم ينتظرون قدوم الضيف على شيخهم حتى يذبح له فيأكلون الفضلات . وانتظرنا ساعتين فخرج الخروف في قصعة صغيرة وجعلت تحته رقاق من الخبز لتت بالمرق فأصبنا منه قليلاً ارضاء لهم ، وكنا نراهم ، والقريب من القصعة ينبعض للبعيد عنهـا ، فتسافر قطع اللحم من

فوق رؤوسنا وتتعاور العظامَ ايدي البدو فأسمعهم وهم يعرقونها بأسنانهم كما يعرق الكلاب العظم . وخمنت من تناولوا من الخروف تلك العشية بنحو خمسين نسمة ، ولو لم نجئهم لباتوا على الطوى . ولو قدرت اننا سننزل على مثل هؤلاء الأعراب يكرموننا هذا الاكرام على فقرهم لحملت اليهم من معان على الأقل بعض الثياب اكسو بها بعض ابنائهم وبناتهم لأنهم كانوا اشبه بعراة .

وأعظم ما ملأ نفسي سروراً في رحلتي الى المدينة المنوّرة ان رأيت العمران بدأ يسري بفضل السكة الحجازية ، الى بعض المحطات ، وأخذت المدنية تدخل في تلك القفار ويجري الانتفاع بالمياه المخزونة في بعض الأودية في ارواء الأرض ، فأنشئت الحقول والحدائق بعد بلدة معان ، وبدأ الأعراب هناك يتذوقون طعم السكنى ، ويتعهدون الزرع والشجر ، ولو ظلّ استثمار الخط الى اليوم لرأيت قرىً قامت على جانبي هذا الطريق الطويل وصار للبادية ما تتبلغ به وتعيش واقامت بعد الديار الشامية حتى مدينة الرسول « هجرات » على النحو الذي قامت في بلاد نجد بفضل الملك عبد العزيز آل سعود فأغنى اهلها عن الغارة ، وعلمهم الحرث والكرث ، وحضرهم وحبب اليهم عيش المدَر بعد عيش اهل الوبر .

ولاحظت في مسجد الرسول عليه الصلاة والسلام ان جميع العناصر الاسلامية تدخل بخشوع وادب لا يكونان في أبناء العرب ، فهؤلاء يضطجعون ويأخذون حريتهم ، ويلقون بنعالهم كيف اتفق ، مما لا يصدر مثله من الهنود والأفغان والجاويين والايرانيين والقوقازيين والسودانيين والاتراك ، كأن ابناء العرب يرون أن صاحب هذا القبر الشريف هو بعض ابناء عمهم او احد إخوتهم ترتفع بينهما الكلفة على ما هو الحال بين ابناء أسرة واحدة .

وتسألني وقد أتعبتك بما قصصت عليك ، وأنت هل تعبت بقطع هذه المساوف التي قطعتها راكباً حتى بلغت مصر ، فأقول لك ان ربك يبتلي عباده ويعينهم . كنت اذا ركبت دابتي الى قربتي ثلاثة ارباع الساعة أضطجع اذا نزلت عنها

ساعة او ساعتين للاستجمام ، ولم تنقص اقل مرحلة قطعناهـا هذه المرة عن اثنتي عشرة ساعة ، وكثيراً ما كنا نسير ثماني عشرة ساعة في اليوم ، ومررنا في اليوم الاول اربعاً وعشرين ساعة متتابعة ، فكانت مرحلتنا الأولى كسائر المراحل غير شاقة ، وما أحسست بتعب يذكر ، وقد تكفيني بنوم ثلاث ساعات ننشط عقبها للركوب كأننا نمنا ثماني ساعات على فراش وثير ، ذلك لأن نومنا كان بالعراء على الأرض بعيدين عن المستنقعات والقاذورات . وكنت أنشط اليوم بعد اليوم وآلف هذا العيش لا اتبرم به كثيراً لأنه جديد بالنسبة لابن المدن والرفاهية .

ولما بلغت بعد ظهر اليوم الاخير من هزيمتي الثانية مدينة القاهرة قصدت الى « اسبلنديد بار » تواً ولم أكن احمل معي شيئاً الا ما عليّ من ثياب وسخة . فكان كلما جاء واحد من أصحابي الصحافيين يعمى عليه امري ، حتى اتكلم واضحك ، أو يذكر له من سبقه اسمي الصريح ، وتجمع عليّ منهم بعد ساعتين عشرات شغلنا نصف البراني من القهوة ، والانظار تحدجنا ، والطليان ينظرون الينا شزراً ، وكان مقهاهم وراء مقهانا ، ولعلهم ظنوني بعض أولئك الأعراب الفارين من ليبيا ، وكانت الحرب يومئذ على ساق وقدم بينهم وبين جيوش العثمانيين . واخذني حقي بك العظم فصورني بذاك الهندام العجيب ، وساقني رفيق بك العظم امامه الى داره ، فقلت له : انزل في الفندق ، فقال : ما من فندق في القاهرة يقبلك وانت على هذه الوساخة . ومن الغد خلعت حلتي ، وحلقت لحيتي ، وعدت الى قيافتي . وعندهـا بدأ التعب يدب في جسمي ، ولم ترجع اليّ قواي الا بعد نحو اسبوعين ، وحمدت الله على السلامة ، وأنشدت مع من أنشد « أنت يا مصر ملجأ الأحرار »

حلقة مفقودة

من سلسلة التاريخ الاسلامي

يحتاج تاريخنا الاسلامي الى معالجة دقيقة وتهذيب وتنسيق ، فكثير من ابحاثه ناقصة مبتورة ، وكثير من حلقاته مبعثرة متفرقة ، وكثير من مصادره لا تزال حتى اليوم في دور الخفاء ، وكثير من كتبه المطبوعة تحتاج الى تصحيح وتحقيق وفهارس علمية .

ان عدداً كبيراً من دول وامارات اسلامية لا يعرف عنها شيء الا بعد بحث وعناء ، فلو اراد الباحث ان يعرف شيئاً عن دولة بني رسول التي كانت في اليمن ، او عن السلجوقيين ، او السبكتكيين ، او الخوارزميين ، او الامارات التي قامت في بلاد الروم (الاناضول) لما عرف عنها الا شيئاً قليلاً بعد عنت كبير ، وعناء عظيم مع وجود مصادر عديدة في هذه الموضوعات . وهناك ما هو أشد خفاء ، واكثر عناء مثل البحث عن الامارات والسلطنات الاسلامية في الحبشة والسودان ، وبلاد الهند ، وايران وغيرها .

عنيت منذ خمس سنين بدراسة واسعة عن الدولة الايوبية واماراتها وعصرها وكان مما عثرت عليه أثناء دراسة العصر الايوبي ، والممالك الايوبية مملكة مستقلة قامت في مدينة (حصن كيفا) وعاشت نحواً من ثمانية عشر ومئتي عام .

ومن العجيب ان تعمر سلطنة مثل هذا العمر الطويل ولا تدخل في سجل التأريخ ولا يشير اليها احد من المؤلفين الا عفواً

فمعلمة الاسلام لم تشر اليها في بحث الايوبيين ، وبحث (حصن كيفا) ونقلت عن كتاب (شرف نامه) عبارة تدل على هذه السلطنة دلالة مبهمة .

فقد جاء في بحث (اوزون حسن) انه انتزع (حصن كيفا) من أيدي الاكراد

الأيوبيين ، وهذا كل ما أشارت اليه . ولم نر لهذه المملكة ذكراً في الاجزاء المطبوعة من كتاب السلوك لمعرفة دول الملوك للقريزي ، ولا في تاريخ الحافظ ابن كثير ، ولا في تاريخ القرماني مع ولوعه باستقصاء المالك والسلطنات والامارات .

وأشار لهذه المملكة القلقشندي بما لا يشفي الغليل ، ومعظم ما نقله عن كتابي التعريف والتثقيف ، وكانت تقول كتاب التثقيف مضطربة مشوشة مثل تقول القلقشندي [1] فهما لم يستندا في بحثها الى تحقيق علمي ، وانما اخذا معلوماتها من افواه بعض التجار والقصاد [2] وقد استطعنا ان نجمع حلقات هذه السلسلة الايوبية من كتب التراجم بعد ان أعيانا البحث عنها في كتب التاريخ السياسي ، ولكننا لم نستطع التعرف الى خمسة من ملوكها وان كنا قد علمنا أسماءهم .

حصن كيفا [3]

مدينة من مدن الجزيرة الفراتية ، قائمة على الشاطئ الأيمن من نهر دجلة ، وهي في منتصف الطريق تقريباً بين ديار بكر وجزيرة ابن عمر ، وتبعد عن كل منها مسيرة ثلاثة أيام .

وهذه المدينة عريقة في القدم ، فالمغاور والكهوف التي لا تزال فيها ترجع الى ماقبل العصر الكلداني وأصبحت (حصن كيفا) حسب التنظيم الاداري التركي جزءاً من قضاء العوينة في لواء ماردين (ولاية ديار بكر) وهي قائمة بين قضاءي العوينة ومدياد . وسكانها أتراك واكراد وارمن وسوريون مسيحيون

تاريخها الاسلامي

انضمت هذه المدينة مع بقية الجزيرة الى المملكة العربية الاسلامية بين سنتي

(١) راجع صبح الأعشى ج ٤ ص ٣١٧ (٢) جمع قاصد وهو من ترسله الحكومة لايصال رسائلها الرسمية (٣) ملخص من معلمة الاسلام ، وصبح الأعشى ، والنجوم الزاهرة ، ومعجم البلدان وغير ذلك من كتب التاريخ وتقويم البلدان .

(١٨ — ١٩ هـ) أيام خلافة عمر بن الخطاب ٠ ولما ضعفت الخلافة العباسية دخلت حصن كيفا تحت سلطة بني حمدان ، ثم بني مروان ، ثم بني أرتق الذين جعلوها عاصمة لهم منذ سنة (٤٩٥ هـ) فبلغت في عهدهم اقصى فخامتها وروعتها ٠ وفي سنة (٥٧٩) حاصر صلاح الدين بن أيوب مدينة آمد وجاء لخدمته نور الدين محمد بن قرا أرسلان صاحب حصن كيفا فأحسن صلاح الدين لقاءه ووعده بآمد ٠ فلما فتحها صلاح الدين في السنة المذكورة وفى بوعده لصاحب حصن كيفا واعطاه آمد ، ومن ذلك الوقت خضعت حصن كيفا للمملكة الايوبية خضوعاً معنوياً مع استقلالها الذاتي ٠ وبين سنتي (٦٢٩ — ٦٣٠) اخذ الملك الكامل صاحب مصر مدينة آمد مع حصن كيفا من الملك المسعود بن الملك الصالح ابي الفتح محمود بن نور الدين محمد بن فخر الدين قرا ارسلان بن ركن الدولة داود بن قطب الدين سقمان بن ارتق ٠ واصبحت يومئذ من الممتلكات الايوبية وفي حدود سنة (٦٣١—٦٣٢) اعطى الملك الكامل حصن كيفا لابنه الملك الصالح نجم الدين ايوب فبقي فيها حتى مات ابوه فترك الحصن وتوجه الى الشام وحصلت له وقائع كثيرة حتى صار ملكاً على مصر سنة (٦٣٧) ٠ وكان ابقى في الحصن ابنه الملك المعظم توران شاه جد ملوك الحصن وهم الذين وضع هذا البحث فيهم

الملك المعظم توران شاه

هو جد ملوك حصن كيفا واصلهم الذي يرجعون في النسب اليه ٠ جعله ابوه الملك الصالح نجم الدين ايوب لما ذهب الى مصر نائباً عنه على حصن كيفا وغيرها من اعمال ديار بكر وهو يعتبر آخر ملوك مصر من الأيوبيين ٠ ولما توفي والده الصالح نجم الدين سنة (٦٤٧) والافرنج محدقة بالديار المصرية أخفت شجرة الدر موت الصالح أيوب ، وصارت تدير الامر خوفاً من اضطراب البلاد ، وارسلت الى حصن كيفا تدعو توران شاه للحضور الى الديار المصرية فحضر اليها في اول

المحرم[1] سنة (٦٤٨) فأعلن حينئذ موت الملك الصالح وملكية ابنه المعظم توران شاه . واتفق ان العساكر الاسلامية انتصرت في ذلك الوقت انتصاراً باهراً على الافرنج الواغلين في الديار المصرية فاستبشر الناس بيمن سلطانهم الجديد استبشاراً عظيماً ، ولكن الملك الجديد كان شاباً غراً منهمكاً في اللذات بعيداً عن السياسة والتدبير ، نشأ في بيئة تختلف كل الاختلاف عن الديار المصرية . ويقول الامير حسام الدين ابن ابي علي كنا نقول للملك الصالح : لماذا لا تحضر ابنك الى مصر ؟ فكان يقول دعوني من هذا فألححنا عليه يوماً ، فقال : اجيبه الى ها هنا أقتله ؟ والظاهر من هذا أن أباه كان لا يراه أهلاً لأن يملك على مصر ، ومن أعماله انه ارسل الى شجرة الدر زوج أبيه — وكانت قد ذهبت الى القدس ابتعاداً عنه — يهددها ويطالبها بالاموال ، فكاتبت الأمراء واغرتهم به وكانت نفوسهم تغيرت عليه لتهديده لهم بالقتل ايضاً فاتفقوا على قتله ونفذوا ذلك ، فكان مدة ملكه على مصر أقل من شهر . فقد قدم اليها في مستهل المحرم وقتل يوم السابع والعشرين من هذا الشهر سنة (٦٤٨) هذه رواية النجوم الزاهرة

ويقول ابن شاكر الكتبي في فوات الوفيات : ان المعظم توران شاه كان قوي المشاركة في العلوم حسن البحث وانه لما دخل دمشق قام الشعراء بين يديه فابتدأ العدل تاج الدين بن الدجاجية فقال :

كيف كان القدوم من حصن كيفا ... حين ارغمت للاعادي انوفا

فأجابه المعظم بقوله :

الطريق الطريق يا الف نحس ... تارة آمنا وطوراً مخيفا

ولما قتل رثاه نور الدين بن سعيد بقصيدة منها :

ليت المعظم لم يسر من حصنه ... يوماً ولا وافى الى املاكه

---

(١) هذه رواية صاحب النجوم الزاهرة ، وأبو الفدا يقول انه وصل المنصورة في ٩ ذي القعدة وكانت مدة ملكه شهرين وأياماً .

ان العناصر اذ رأته مكملاً حسدته فاجتمعت على اهلاكه

الملك الموحد تقي الدين عبد الله بن الملك المعظم توران شاه

يعد هذا الملك اول ملوك الحصن من الايوبيين المستقلين بها ولكننا لا نعرف عنه شيئاً غير ما ذكره عنه ابو الفداء في تاريخه . فقال عنه في حوادث سنة (٦٣٨) انه بعد ذهاب ابيه تورانشاه الى مصر بقي مالكاً لحصن كيفا الى أيام التتر وطالت مدته بها

الملك الكامل مجير الدين ابو بكر شادي

وهو ثاني ملوك الحصن ، ولا نعرف عنه غير كنيته ولقبه جاء ذكرهما عفواً في الدرر الكامنة في ترجمة ابنه ايوب ونصه : كان المعظم لما تقرر في سلطنة الديار المصرية نقلا من حصن كيفا ترك ولده الموحد تقي الدين عبد الله فاستمر في مملكة الحصن المذكور . وتولى بعده ولده الكامل ابو بكر . وهذا كل ما عرف عنه . وفي الضوء اللامع للسخاوي ما يفيد بان اسمه شادى ولقبه مجير الدين . وفي شذرات الذهب ايضاً ما يفيد بان اسمه شادى . وقد خلف ولدين توليا بعده ، احدهما ايوب ، والآخر محمد

الملك الصالح نجم الدين ايوب بن ابي بكر شادى

وهو ثالث ملوك الحصن ، ويقول عنه في الدرر الكامنة انه استقر في المملكة بعد ابيه الملك الكامل ابي بكر فحج في سنة ٢٦ فقدم القاهرة وتلقاه الملك الناصر واكرمه ، فلما رجع من الحج عارضه اخوه فحاربه فقتل ايوبَ هذا وولدَه واستولى اخوه على المملكة وذلك في اوائل سنة (٧٢٧) وذكر مثل ذلك ابو الفدا في حوادث سنة (٧٢٦) ولم يثبت حجه فيقول: وفي شعبان حضر نجم الدين صاحب حصن كيفا متوجهاً الى الحجاز ، ثم ابطل المسير الى الحجاز وسار الى عند السلطان الى مصر فأنعم عليه السلطان وأعاده فعبر على حماة وتوجه الى حصن كيفا وفيها حال

وصوله قتله اخوه ، وكان اخوه مقيماً هناك ، وملك اخوه الحصن والمذكوران من ولد تورانشاه ابن الملك الصالح ايوب ابن الكامل ابن العادل ابن ايوب ، واشار لهذه الحادثة ايضاً العمري في التعريف (ص ٣٣) ولقبه بالملك الصالح فقال : وكان آخر وقت منهم الملك الصالح ، قصد الابواب السلطانية ، فلما اتى دمشق عقبته الاخبار بأن اخاه قد ساور سريره ، وقصد بسلطته سلطانه ، فكر راجعاً ولم يعقب ، فما لبثت الأخبار ان جاءت بأنه حين صعد قلعته ، وكر نحو سريره رجعته ، وثب عليه اخوه المتوثب فقتله وسفك دمه ، ثم أظهر عليه ندمه ، وكتب الى السلطان[1] فأجيب بأجوبة دالة على عدم القبول لأعذاره ، والسرائر مكدرة ، والخواطر بعضها من بعض منفرة اه

هذا كل ما اطلعنا عليه من اخباره ولكننا لم نطلع على اسم اخيه الذي ثار عليه وقتله وتولى بعده ، كما اننا علمنا ان نسله انقطع ما دام اخوه قد قتله مع اولاده

وحينما نرجع الى تراجم ملوك الحصن لا نجد احداً يتصل نسبه بنجم الدين هذا ، وانما نرى الملك العادل فخر الدين سليمان قد ذكر نسبه هكذا : سليمان بن الملك الكامل غازي بن محمد بن ابي بكر شادى ، ومن هذا يظهر ان محمداً المذكور هو اخو نجم الدين . ولكن هل هو الذي قتله وتولى بعده ام هناك اخ ثالث ؟ والظاهر انه هو الذي تولى بعده وان كنا لا نجزم بذلك .

الملك الكامل مجير الدين محمد

وهو رابع ملوك الحصن ، وهو ابن ابي بكر شادى ، والمظنون انه هو الذي قتل اخاه الملك الصالح نجم الدين ايوب بن ابي بكر شادى ، ولا نعرف عنه اكثر من ذلك

---

(١) وهو الملك محمد بن قلاوون تسلطن للمرة الأولى سنة (٦٩٣) فبقي سلطاناً سنة واحدة ثم خلع لصغر سنه ، ثم تسلطن للمرة الثانية سنة (٦٩٩ — ٧٠٠) فبقي سبع سنين ثم خلع نفسه وذهب إلى الكرك ، ثم تسلطن للمرة الثالثة سنة (٧٠٢) فأقام ملكاً حتى توفي سنة (٧٤١) .

الملك المجاهد شهاب الدين غازي

وبعد الملك الخامس من ملوك الحصن، وهو ابن مجير الدين محمد ولا نعرف عنه شيئاً .

الملك العادل فخر الدين سليمان

وهو السادس من ملوك الحصن، وهو ابن المجاهد غازي ، ابن الملك الكامل محمد ، ابن الملك ابي بكر شادى ، وبواسطته عرفنا اسم ابيه وجده وابي جده[(١)] ترجمه في الضوء اللامع ونقل عن ابن حجر في انباء الغمر : انه اقعد ملوك اهل الأرض في مملكة حصن كيفا (يريد اطول ملوك عصره عمراً) الا صاحب صعدة الامام الزيدي فانه اقعد في المملكة منه . ملك الحصن بعد ابيه فدام نحو خمسين

(١) ترجمه صاحب الشذرات كما ترجمه صاحب الضوء اللامع ، ويتفق الضوء مع الشذرات في اسمه واسم أبيه وجده ولكنهما يختلفان في القابهم ، فصاحب الشذرات يلقب أباه بالملك الكامل غازي ونرجح ما في الضوء بأن لقبه الملك المجاهد لتردد هذا اللقب عدة مرات على هذه الصفة .

وقد وهم في اسم (الملك العادل فخر الدين سليمان) صاحب كتاب التثقيف كما نقله عنه القلقشندي في صبح الأعشى (ج ٤ ص ٣١٧) ووهم في لقب أبيه وجده ولكنه يتفق مع الشذرات والضوء في اسميهما . ففي التثقيف أن الذي اتضح له آخراً في رمضان سنة (٧٧٦) أن صاحبها (أي حصن كيفا) الملك الصالح سيف الدين أبو بكر بن الملك العادل شهاب الدين غازي ابن الملك العادل مجد الدين محمد ، ابن الملك الكامل سيف الدين أبي بكر .

فيوافق أن أباه شهاب الدين غازي وجده مجدالدين محمدوأبا جده أبو بكر ، ولكننا نراه يخالف في ألقابهم الملوكيه ، فيلقب الأب والجد بالملك العادل ثم يستشكل كيف أن أباً وابنه يكونان بلقب واحد ولكن الوهم الذي وقع فيه هو الاسم الأول وهو — الملك الصالح سيف الدين أبو بكر — لأن الذي كان ملكاً سنة (٧٧٦) هو الملك العادل فخر الدين سليمان بن الملك الكامل غازي صاحب هذه الترجمة لانه توفي سنة (٨٢٧) وجاء في ترجمته أنه بقي ملكاً نحو خمسين سنة فاذا طرحنا واحداً وخمسين من سنة وفاته فانه يكون ملكاً سنة (٧٧٦) ومهما يكن فصاحب التثقيف مشكك فيما ذكره والصواب ماحققناه . راجع صبح الأعشى ج ٤ ص ٣١٧ .

ووهم القلقشندي أيضاً في صبح الأعشى إذ قال : الذي أخبرني بعض قصاد صاحبها سنة (٧٩٦) أن الملك القائم بها يومئذ اسمه سليمان بن داود وذكر لي لقبه فنسيته اه والصواب أن اسم الملك يومئذ هو سليمان بن الملك غازي .

سنة ، وشكرت سيرته ، وحسنت ايامه وله فضائل ومكارم وادب وشعر واعتناء بالكتب والآداب . ويقول صاحب الشذرات انه تسلطن في الحصن بعد موت ابيه وحسنت ايامه وكان مشكور السيرة محبباً للرعية مع الفضيلة التامة والذكاء والمشاركة الحسنة وله نظم ونثر وديوان شعر لطيف ومن شعره :

أربعان الشباب عليك مني ... سلام كلما هب النسيم
سروري مع زمانك قد تناءى ... وعندي بعده وجد مقيم
فلا برحت لياليك الغوادي ... وبدر التم لي فيها نديم
يغازلني بغنج والمحيا ... يضيء وثغره در نظيم
وقد مثل لدن ان تثنى ... وريقته بها يشفى السقيم
اذا مزجت رحيق مع رضاب ... ونحن بليل طرته نهيم
ونصبح في ألذ العيش حتى ... تقول وشاتنا هذا النعيم
ونرتع في رياض الحسن طوراً ... وطوراً للتعانق نستديم

ويقول القلقشندي ان بعض قصاد حصن كيفا ذكر له ان الملك سليمان يقول الشعر واحضر معه بيتاً مفرداً من نظمه وهو :

وجارية تعير البدر نوراً ... ولولا نورها عاد الظلام

فنظم القلقشندي ابياتاً وبعث بها اليه صحبة قاصده وأولها

سليمان الزمان بحصن كيفا ... له في الملك آثار كرام
زكا اصلاً فطاب الفرع منه ... وطاب الغصن اذ طاب الكمام
بنو ايوب ابقوا منه ذخراً ... ونعم الذخر والقيل الهمام
وجارية تعير البدر نورا ... ولولا نورها عاد الظلام

توفي الملك العادل سليمان سنة (٨٢٧) بعد ان ملك نحواً من خمسين عاماً .

الملك الاشرف احمد بن الملك العادل سليمان

وهو السابع من ملوك الحصن ترجمه صاحب الشذرات وصاحب الضوء اللامع بأنه صاحب حصن كيفا واعمالها من ديار بكر وليها بعد ابيه في سنة سبع وعشرين وكان مشكور السيرة محبباً لرعيته لوفور عقله وسياسته وديانته مع فضل وميل زائد الى الأدب ومشاركة في فنون وكرم وشجاعة وظرف ذكره ابن حجر في انباء الغمر ، وقال انه خرج في عسكره لملاقاة السلطان [1] على حصار آمد فاتفق انه نزل لصلاة الصبح فوقع به فريق من التركمان فأوقعوا به على غرة فقتل وذلك في شوال سنة ست وثلاثين وثمانمائة ودفن بحصن كيفا · ويقول ابن حجر عنه انه كان فاضلاً اديباً له شعر حسن ووقف على ديوان شعره وهو يشتمل على نوائح في ابيه وغزل وزهديات وغير ذلك وانه كان جواداً محباً للعلماء ومن نظمه :

بدا حبي وقد خضب اليدين ... فأتلف مهجتي بالحاجبين

وبين النوم والجفن اختلاف ... كما بين الذي اهوى وبيني

ترفق ياحبيب القلب واعطف ... لتنعم بالرضا عيني بعيني

اذا [ما] رمت سلواً إلفي قلبي ... يجرجره الجمال بقائدين

وان اذنبت ذنباً ياغزالي ... أرى لك عند قلبي شافعين

يعنفني فؤادي كيف اسلو ... مليحاً ساكناً في الناظرين

يذوب القلب مني حين يضحي ... شروداً للغرام محركين

فزرني ياحبيبي تلق اجراً ... ودس فضلاً على رأسي وعيني

انتهى عن الضوء والشذرات

(١) هو السلطان الأشرف برسباي الدقاقي الظاهري تولى مملكة مصر والشام سنة (٨٢٥) وتوفي سنة (٨٤١) خرج سنة (٨٣٦) بالعساكر المصرية والشامية لقتال الأمير التركماني عثمان قرايلوك صاحب ديار بكر وآمد وماردين فحاصره في آمد شهراً ثم صالحه ·

الملك الكامل خليل بن الملك الاشرف احمد

وهو الملك الثامن من ملوك الحصن • وهو خليل بن احمد بن سليمان بن غازي ابن محمد بن ابي بكر بن عبد الله بن توران شاه الملك الصالح ثم لقب بالملك الكامل ابو المكارم • استقر في مملكة الحصن بعد قتل والده سنة (٨٣٦) وكان محباً للعلماء خصوصاً الشافعية ، وسار في بلاده سيرة حسنة ونشر العدل ، ووصفه الحافظ ابن حجر بأنه من أهل الفضل وان له نظماً وأنه ارسل بديوان من شعره على عادة ابيه الى الديار المصرية فقرظه له الادباء ومما انتقاه ابن حجر من ديوانه

بانوا فأجروا عيوني من بعدهم كالعيون
في حبهم مت عشقاً ياليتهم قبلوني

وكتب اليه الكمال بن البارزي يمدحه

أبحر الشعر ان غدت منك في قبضة اليد
غير بدع فانها للخليل ابن احمد

وثب عليه ابنه ناصر فقتله في ربيع الاول سنة (٨٥٦)

الملك العادل ناصر بن خليل بن احمد

وهو التاسع من ملوك الحصن قتل أباه وتملك بعده فبقي نحو سبعة أشهر ثم ثار عليه ابن عمه حسن بن عثمان بن الملك العادل سليمان فقتله ثأراً لأبيه

الملك الكامل احمد بن خليل بن احمد بن سليمان

وهو العاشر من ملوك الحصن ، ولما قتل اخوه ناصر اباهما الملك الكامل خليل فر خوفاً من أخيه الى جهانشاه ملك تبريز ، فلما ثار ابن عمه على أخيه ناصر وقتله استدعاه ابن عمه من تبريز وجعله ملكاً على الحصن فبقي فيه ملكاً نحو سنتين ، ثم حصلت ثورة في بلاده وتغلب على ملكه ابن عمه خلف بن محمد ففر الى قلعة ارغيش

من معاملة الحصن ثم الى بغداد ثم الى مصر فأكرمه عتيق جده مرجان العادلي مقدم المماليك وتوفي في مصر أيام الملك الظاهر خشقدم

الملك العادل خلف بن محمد بن سليمان بن احمد

وهو الحادي عشر من ملوك حصن كيفا ثار علي ابن عمه الملك الكامل احمد في حدود سنتي (٨٥٨—٨٥٩) ففر الملك الكامل واستولى على المملكة فبقي مالكاً سبع سنين · ثم جرى له ما فعله بسلفه ، فثار عليه أبناء عمه : زين العابدين ، وايوب وعبد الرحمن ابناء علي بن محمود بن العادل سليمان فقتلوه وولده هارون في حدود سنة (٨٦٥) وذكره صاحب الشذرات فيمن توفي سنة (٨٦٧) وكان العادل شجاعاً مقداماً ذا بطش وقوة وله نظم ليس بالجيد · واليه الاشارة بقول الصدر بن البارزي مما كتب به اليه ·

قالوا بموت الكامل الحصن وهت ... وعزها قد حاد عنها وصدف

فقلت ان كان مضى كاملها ... فان فيها خلفاً عن من سلف

الملك الصالح زين العابدين

وهو الثاني عشر من ملوك الحصن ثار هو وأخواه ايوب وعبد الرحمن ابناء علي ابن محمود بن العادل سليمان فقتلوا ابن عمهم العادل خلف بن محمد وتملك زين العابدين على الحصن وبقي ايوب وعبد الرحمن كالوزراء ثم اختلف الثلاثة فيما بينهم فهاجم الحصن حسن بيك الطويل (أُزون حسن) بن قرايلوك عثمان صاحب آمد واستولى على الحصن وقتل الثلاثة بين يديه صبراً في ذي القعدة سنة (٨٦٦) وبذلك انقرضت هذه السلالة الأيوبية.

هذه خلاصة ما اطلعنا عليه من اخبار هذه السلالة ، واكثرها لا يعدو كونه تراجم ، ولكنها بمجموعها تعطينا فكرة قيمة عن هذه الامارة ، وبعد ذلك نتساءل لماذا كانت اخبار هذه الامارة غامضة في اول نشأتها فلم يعرف عن احوالها الا النزر

اليسير ، ولماذا لم يعرف شيء عن ملوكها الخمسة الأول ، وما السبب في ان المؤرخين اخذوا يذكرون تراجم ملوكها منذ منتصف القرن الثامن الهجري ؟

اني ارى ان صغر هذه الدولة وضعفها كان له اكبر الأثر في ذلك ، يضاف اليه ان هذه الدولة تعتبر صاحبة الحق الشرعي في اعتلاء عرش المملكة في مصر والشام كما تعتبر دولة المماليك البحرية (مماليك جدملوك حصن كيفا) مغتصبة لعرش الأيوبيين ، وهاضمة لحقهم ، ومنكرة لنعمتهم ، وعاقة لولائهم .

لذلك كان من المعقول ان لا يجرأ احد من المؤرخين على ذكر دولة ملوك الحصن الا رمزاً خوف تنبه الأفكار اليها ، بخلاف ملوك حمص وحماه التي بقيت امارتهم مستقلة استقلالاً ادارياً في عهد المماليك ، لأنهم ليس لهم صبغة قانونية في حق العرش ولم يسبق لأحد من اجدادهم ان امتلاك دمشق او حلب او مصر ، وهي العواصم الكبيرة التي كان يقوم في كل منها مملكة ايوبية كبرى

لذلك كان ابناء ملوك هذه البلدان الثلاث موضع ريبة وحذر في دولة المماليك البحرية ، وكانوا موضع بطش وانتقام من هذه الدولة ايضاً

ولما التقى جيش التتر بقيادة كتبغا مع الجيش المصري الذي يقوده الملك المظفر قطز كان قد انضم الى جيش التتر الملك السعيد حسن بن الملك العزيز عثمان ، والملك الأشرف موسى صاحب حمص — حرصاً على بلادهما من تدمير التتر لها — ولما اسفرت المعركة عن انتصار الجيش المصري وانهزام جيش التتر حضر الملك السعيد الى الملك المظفر قطز ليعتذر اليه فأمر قطز بضرب عنقه فضربت ، وارسل الملك الاشرف صاحب حمص الى قطز يطلب منه اماناً على نفسه وبلاده فأمنه وأقره عليها

فان كان الانضمام الى التتر يعد جريمة وخيانة لا تغتفر فلماذا ينتقم من الملك السعيد فتضرب عنقه ، ويعفى عن الملك الاشرف وتعطى له بلاده ؟

ليس لهذا سبب في نظري الا ان الملك السعيد هو ممن يحق له ان يطالب

بعرش المملكة لأن جده هو الملك العادل اخو صلاح الدين فلذلك حكم عليه بالقتل تخلصاً من مضايقته

وترى الملك الظاهر بيبرس يحتال على الملك المغيث صاحب الكرك ثم يلقي عليه القبض ويتهمه بأشنع التهم ويقتله شر قتله ، وليس لهذا من سبب الا انه كان احق الناس بتاج مصر

ويحدثنا التاريخ ايضاً بأن الظاهر بيبرس لما رأى الناس يلهجون بذكر الملك القاهر بن الملك المعظم عيسى ملك دمشق اغتاله بسم وضعه في نبيذ قمز[1] سقاه منه

ولم يقف الامر بالظاهر بيبرس عند هذا الحد بل عمد الى أعظم حيلة تسقط حق الايوبيين من عرش بلادهم ، فأعاد الخلافة العباسية في مصر ، لأن الخلفاء العباسيين في نظر الناس هم اصحاب الحق في حكم العالم الاسلامي اجمع ، والدول والملوك الذين يحكمون في البلاد انماهم نواب عنهم ، واصبح الملك الظاهر نائباً في الحكم عن الخليفة العباسي ، وبذلك لفت انظار الناس عن الايوبيين الى الخلافة العباسية الوهمية وكاد للايوبيين مكيدة لم تقم لهم قائمة بعدها

هذه كلها (في نظري) اسباب منعت المؤرخين أن يذكروا احداً من ملوك حصن كيفا خوفاً من بطش المماليك ، حتى اذا استقرت قواعد دولة المماليك في البلاد ، ونسي الناس عهد الايوبيين ، وانفلت عرش الملك من المماليك البحرية ، الى المماليك الشراكسة استطاع المؤرخون ان يذكروا هذه الدولة ويؤرخوا لملوكها ، ولكن أسلوب كتب التاريخ كانت قد تغير واصبح طراز كتبها منذ القرن الثامن الهجري مثل كتب التراجم تجمع بين العلماء والوجهاء والملوك والامراء والتجار الخ ، كما فعل الحافظ ابن حجر ، والسخاوي ، وابن العماد ، وبذلك استطعنا ان نجمع حلقات هذه الدولة المبعثرة وان نبعث تاريخها من جديد ولعل الباحثين من العلماء والمؤرخين يرشدوننا لما لم نطلع عليه فنكون لهم من الشاكرين .

محمد أحمد دهمان

(١) نبيذ يتخذ من ألبان الخيل يحب بشربه الترك والتتار .

غريب الحديث

لا تعرف العربية بعد القرآن الكريم كلاماً يسامي الكلام النبوي او يدانيه ؛ فصاحةَ مبنى وبلاغة معنى ، وجمال أُسلوب ، وجلال قدر ، وبراعة تركيب ، وروعة تأثير ، وانه لكما يقول شيخ الكتاب ابو عثمان الجاحظ « لم يسمع الناس بكلام قط ؛ اعم نفعاً ، ولا أصدق لفظاً ، و لااعدل وزناً ، ولا اجمل مذهباً ، ولا اكرم مطلباً ، ولا احسن موقعاً ؛ ولا اسهل مخرجاً ، ولا افصح عن معناه ، ولا ابين عن فحواه ، من كلامه صلى الله عليه وسلم » ورب قائل يقول : اذا كان الامر على ما وصفت فمن أين تسللت الغرابة الى بعض الفاظه ، وتطرق التعقيد الى بعض معانيه ، والغرابة لا تساكن الفصاحة ، والتعقيد لايجاور البلاغة ، فنحن نقول ان الكلام النبوي منزه عن التعقيد ، والغرابة بالمعنى الذي يريده المتأخرون من علماء البيان . لأنهم لايريدون بذلك الا الخروج عن جادة المألوف من الألفاظ بالنسبة الى المتكلم والمخاطب فاذا كان اللفظ من مألوف المخاطبين فليس لأحد ان يسمه بسمة الاغراب . او يصمه بوصمة الابهام ، وان كان غير مألوف عند غير المخاطبين به من الناس . اذ الاعتبار — في هذا الباب — مقصور على من يتوجه اليه الخطاب ، دون غيره . ولو ذهبنا في تفسير الاغراب والتعقيد عند البيانيين غير هذا المذهب ، وقلنا من شرط الفصاحة في الكلام ان يكون عارياً من كل لفظ غير مألوف للناس اجمعين في كل زمان ومكان ، لما وجدنا كلاماً لمتكلم من عرب الجاهلية وصدر الاسلام يستحق ان تخلع عليه حلة الفصاحة ضافية .او غير ضافية . لأنا لا نعرف لهم كلاماً منثوراً او منظوماً يخلو من الفاظ غير مألوفة بالنسبة للاجيال المتأخرة تدفع السامع او القارئ منهم الى استنطاق دواوين الادب ومعاجم اللغة ، والاستنجاد بالشروح والتعاليق . .

والحقيقة ان الغرابة نسبية تختلف باختلاف الناس والزمان والمكان ، فرب لفظ

يكون شائعاً ذائعاً عند قوم ؛ وعديم الاستعمال قليله عند آخرين . ورب لفظ يكون معروفاً مألوفاً في زمان او بلد ، ومنكوراً مجهولاً في زمان او بلد آخر ، على ما ألمعنا اليه في بحث مفردات القرآن .

هذا واعلم ان النبي (ص) كان يشافه العرب ويكاتبهم أفراداً وجماعات ، وكانوا على ما تعلم من اختلاف اللحون واللغات ؛ وتباعد المواطن واللهجات . وكان يخاطب كل قوم بلغتهم ، وعلى اسلوب تفاهمهم ، وان كان ما يكلمهم به غير معروف تمام المعرفة عند قومه واهله ، بل قد تجهله قبائل معد كلها . فقد روي ان علياً كرم الله وجهه قال للنبي (ص) وقد سمعه يكلم وفد بني نهد بلحنهم : يا رسول الله نحن بنو اب واحد ، ونراك تكلم وفود العرب بما لا نفهم اكثره . فقال له « ادبني ربي فأحسن تأديبي » .

ومن يرجع الى أسفار الآثار ، ويقف على تلك الرسائل التي كان يبعث بها النبي (ص) الى بعض قبائل العرب غير العدنانية يأخذه العجب مما أوتيه الرسول الكريم من البسطة في البلاغة ، وسعة الاطلاع على مختلف لغات القبائل وأساليب تخاطبها . وبعدُ فاذا وجدنا في كلامه شيئاً مما لم يكن مألوفاً في لغات الجمهرة من قبائل مضر ، فلا نحكم على هذه الالفاظ بالغرابة المطلقة ، بل علينا ان نبحث عن مواردها ، ونقف على ما تكتنفها من زمان ومكان . وبذلك تصل الى انها قيلت في موضعها ، ووقعت في موقعها ، بحيث لو حل محلها غيرها مما نسميه مألوفاً الآن لوسم بسمة الاغراب والاندار .

ثم ان كثيراً من الكلام النبوي نقل الينا بالمعنى ، دون الالفاظ ، والنقلة اكثر من ان يحصوا ، وهم مختلفو الانتساب قبيلة وبلدا ، منهم القرشي ، والكناني ، والبكري والتغلبي . ومنهم الهمداني والكندي ، والقضاعي ، والزبيدي . ومنهم المكي ، والمدني ، والحضرمي ... الخ .

فاذا نقل أحدهم الحديث بالمعنى كان اللفظ له ، وعلى اسلوب كلام قومه ، أو أهل بلده ·

ومن هنا ينكشف لنا السر في ورود بعض الاحاديث على نمط لم يكن مألوفاً في لغة اهل الحجاز ، وان كان الخطاب معهم ، وما ذلك الا لأن اللفظ لبعض الرواة وهو غير حجازي القبيلة او البلد · وهذا هو السر ايضاً في ان المتقدمين من النحاة لم يجعلوا الحديث أساساً في الاستشهاد لتقرير قواعد النحو واستخراج مسائله ، وأول من وسع دائرة الاستشهاد به ، وعول عليه في اثبات القواعد وتقرير المسائل ، امام المتأخرين من النحويين محمد بن عبد الله بن مالك الاندلسي (المتوفى سنة ٦٧٢) ه والحق معه لأن المتقدمين الاولين من نقلة الحديث معظمهم ممن كلامه حجة في العربية · فاذا ابدلوا بعض الفاظ الحديث بألفاظ من عندهم فليس معنى ذلك انهم خرجوا به عن العربية المعربة الى غيرها ·

ولنرجع الى ما نحن بصدده من الكلام في تاريخ علم غريب الحديث فنقول :

اول من جمع في هذا العلم شيئاً ابو عبيدة معمر بن المثنى ، جمع فيه كتاباً صغيراً ذا أوراق معدودات · لانه مبتدئ ولأن في الناس اذ ذاك بقية ؛ وغصن اللغة لم يزل وريقاً · فلم تكن الحاجة ماسة الى الكثير مما يعده المتأخرون غريباً ، لأنه لم يكن اذ ذاك بالغريب ·

ثم جاء النضر بن شميل المازني فجمع في ذلك كتاباً اكبر حجماً من كتاب ابي عبيدة · وأوسع فيه الشرح والايضاح ، ولكنه لم يخرج عن ان يعد من المختصرات ·

وألف الاصمعي كتاباً اربى فيه على كتاب ابي عبيدة من حيث المادة والتبسط في البيان والتوضيح · ثم ان كثيراً من ائمة اللغة جمعوا طوائف من الاحاديث ، وتكلموا على لغتها ومعناها · وهم في الغالب يتواردون على الحديث الواحد ، فيشرحه كل على قدر مبلغه من العلم ، ولم يكد احدهم ينفرد عن غيره بالشيء المهم ·

وغبر الناس على هذا الى ان جاء ابو عبيد القاسم بن سلاّم فألف كتابه المشهور

في هذا الموضوع ، وجمع فيه من الاحاديث والآثار ما لم يجتمع في كتاب من قبله . وقد روي عنه انه كان يقول : جمعت كتابي هذا في اربعين سنة ، فهو خلاصة عمري ، وقد انتشر هذا الكتاب وذاع صيته لذلك العهد ، واعتمد الناس عليه في موضوعه .

فلما كان عصر عبد الله بن مسلم بن قتيبة الدينوري ورأى ما عليه الناس من الاعتماد على كتاب ابي عبيدة ، ووجد ان هذا الكتاب لم يأت على معظم الاحاديث واكثر الآثار التي تحتاج الى الايضاح والتبيين — عمد الى تأليف كتاب جمع فيه ما اغفله ابو عبيد في كتابه ، ونحا فيه ما نحاه من طريقة التفسير والشرح . وكان ابراهيم بن اسحاق الحربي معاصراً لابن قتيبة فألف كتاباً واسعاً جمع فيه الشيء الكثير من الاحاديث والآثار . وبسط القول وأطال الشرح ، ولكن الناس زهدوا في هذا الكتاب لأن المؤلف اطاله بذكر الاحاديث بطرق اسانيدها وذكر متونها من اولها الى آخرها . وان لم يكن في بعضها الا الكلمة والكلمتان مما يحتاج الى الشرح والتفسير .

ثم تتابع الأئمة على التأليف في هذا العلم واقبلوا عليه ايما اقبال ، فقلما نجد كبيراً من كبراء اهل العلم الا وله شيء في هذا الباب . مثل شمر بن حمدويه ، وابي العباس ثعلب ، وابي العباس المبرد ، وابي بكر الانباري ، وابي عمر الزاهد وغيرهم .

ثم جاء الامام ابو سليمان احمد او (حمد) بن محمد الخطابي البستي (المتوفى سنة ٣٨٦) فألف كتاباً سلك فيه مسلك ابي عبيد وابن قتيبة ، ولكنه قصره على ذكر مالم يورداه في كتابيهما ، فجاء كنحو من احدهما حجماً .

ومضى الناس زمناً يتداولون هذه الامهات الثلاث ويعولون عليها في بابها ، ولكن هذه الكتب وما قبلها — ما عدا كتاب الحربي — لم تكن مبوبة تبويباً يسهل على الناس المراجعة . وفي هذا ما فيه من العناء على المراجعين ، فاذا اراد المرء معرفة كلمة غريبة وردت في احد الاحاديث لا يهتدي اليها الا بعد جهود كثيرة

زيادة على انه لا يدري ان الحديث المطلوب في اي الكتب الثلاثة هو، فيحتاج الى استقرائها واحداً واحداً . فلما كان عصر ابي عبيد احمد بن محمد الهروي — وكان معاصراً للخطابي — ألف كتابه المشهور في غريبي القرآن والحديث، ورتبه مقفى على حروف المعجم، على ما قلناه في مفردات القرآن . وقد جمع في كتابه هذا ما في كتاب ابي عبيد وابن قتيبة وغيرهما، واضاف الى ذلك ما تتبعه بنفسه مما لم يرد في كتب من تقدمه .

ثم جاء الامام العلامة محمود بن عمر الزمخشري (المتوفى سنة ٥٣٨) فألف كتابه « الفائق » ورتبه على حروف المعجم . ولكنه كان عندما يريد شرح كلمة غريبة من حديث يشتمل على اكثر من كلمة غريبة يورد الحديث كله او بعضه ويشرح كل ما فيه من الغريب . وبذلك يشرح كثيراً من الكلمات في غير حروفها، فيعسر على المتتبع العثور على مطلوبه بالسرعة، ولذلك لم يشتهر كتابه اشتهار كتاب الهروي، مع ما أودعه فيه من الحقائق اللغوية والتدقيقات العلمية .

وجاء ابو موسى محمد بن ابي بكر المديني الاصفهاني فألف كتابه في الغريبين، جمع فيه ما فات الهروي من غريبي القرآن والحديث على ما علمت في الكلام على غريب القرآن .

وألف ابو الفرج عبد الرحمن بن الجوزي كتاباً في الغريب نهج فيه نهج الهروي . بل هو كالمختصر منه .

وكان من معاصريه العلامة المحقق ابو السعادات المبارك بن محمد المعروف بابن الاثير الشيباني الجزري (المتوفى سنة ٦٠٦) فرأى ان احسن ما يرجع اليه في هذا الشأن كتابا الهروي وابي موسى المذكورين . وقد رأى ان الانسان اذا أراد كلمة غريبة يحتاج الى ان يتطلبها في احد الكتابين فان وجدها فيه والا طلبها من الكتاب الآخر . وهما كتابان كبيران في مجلدات . فعمد الى جمع ما فيهما من غريب الحديث مجرداً من غريب القرآن . وأضاف كل كلمة الى اختها في بابها تسهيلاً

لكافة الطلب ، وقد ضم اليهما الشيء الكثير مما لم يوفقا اليه من غرائب الكتب الصحاح كالبخاري ومسلم وغيرهما من الكتب المدونة في اول الامان واوسطه وآخره ، ومن كتب اللغة على اختلافها . وقد سلك طريقة الكتابين المذكورين في الترتيب والتبويب على حروف المعجم ، ملتزماً الحرف الاول والثاني من كل كلمة ، واتباعهما بالحرف الثالث منها ، ناظراً الى الحروف الأصلية من الكلمة دون الزوائد الا انه كثيراً ما يعتبر الحروف الزائدة في اوائل بعض الكلمات بمثابة الحروف الاصلية ، تسهيلاً على الطلاب ولا سيما الذين لا يكادون يفرقون بين الاصلي والزائد . على انه عندما يذكر ذلك ينبه على أصل الكلمة ، لئلا يظن ظان ان الزائد اصلي فيختلط عليه الأمر .

واسمى كتابه هذا « النهاية في غريب الحديث والأثر » وهو اجل كتاب ألف في هذا العلم واجمعه وعليه الاعتماد في فنه . وقد صار مادة لمؤلفي المعاجم اللغوية من بعده . ولا نعرف ان أحداً ألف بعده كتاباً يساويه او يقاربه غير ان جلال الدين السيوطي المتوفى سنة ٩١١ كان قد لخص هذه النهاية في كتاب اسماه (الدر النثير تلخيص نهاية ابن الاثير) . وقال انه ضم الى كتابه هذا كثيراً مما فات صاحب النهاية . ومن وقف على النهاية ثم وقف على هذا الكتاب لم يرق لنظره الرجوع اليه مرة أخرى ، لأن الجلال السيوطي بتلخيصه هذا ذهب برونق الاصل وجماله ، وضيق منه واسعاً فسيحاً . هذا وانما تزاحمت اقلام اهل العلم في باب غريب الحديث اكثر من ازدحامها في باب مفردات القرآن . لأن الاحاديث والآثار فسيحة الرقعة منتشرة الاطراف ، واسعة الارجاء . وقلما توفق العالم المبرز الى استقصاء اكثرها . فيأتي عالم آخر من بعده فيستدرك عليه كثيراً مما فاته . ثم يأتي ثالث فيستدرك على الثاني وهكذا على ما علمت فيما مر . بخلاف القرآن الكريم فانه مجموع بين دفتين ، متواتر بكل مافي معنى التواتر من قوة . وبهذا يسهل على اهل العلم استقصاء كل مافيه من المفردات . فلم يبق الا اختلاف انظارهم في تفسير بعض الكلمات ، واختلافهم

في ايجاز الشروح او الاطناب فيها ، واختلاف اذواقهم في الترتيب والتبويب ، والتنقيح والتهذيب ، وهذه امور ليست من الصعوبة بمكان . بخلاف ما يعانيه المؤلفون في غريب الحديث من التتبع الكثير ، والاستقراء الواسع ؛ هذا ابن الاثير بعد ان وقف على ما وقف عليه من جهود العلماء في هذا الباب ، واستقرى ما وصل اليه جهده من المصنفات الكثيرة في الحديث والآثار ، تجده مع ذلك كله يقول في خطبة نهايته : « كم يكون قد فاتني من الكلمات الغريبة التي تشتمل عليها أحاديث رسول الله صلى الله عليه وسلم واصحابه وتابعيهم جعلها الله ذخيرة لغيري يظهرها على يده ليذكر بها . ولقد صدق القائل : كم ترك الاول للآخر .

يقول هذا وهو من هو في غزارة العلم وسعة الاطلاع ، وطول الباع ، في علوم الشريعة وفنون الآداب .

طه الراوي



من ذخائر قبة الملك الظاهر

تاريخ علماء اهل مصر لابن الطحان

مجموع ١١٦ (١٢)

اسم الكتاب والمؤلف : —

و : ١أ : الجزء الأول [والثاني كما في و : ١٧ب] من تاريخ علماء أهل مصر تأليف أبي القاسم يحيى بن علي بن محمد بن ابراهيم الحضرمي المعروف بابن الطحان .

سمع المؤلف الحديث قبل سنة ٣٦٨ كما ورد في ترجمة صالح بن علي الحصيني (و : ١٨ب) وتوفي سنة ٤١٦ كما في كشف الظنون في مادة تواريخ مصر ٢٣٢/١ وفي فهرس معجم البلدان طبعة وستنفلد ٧٦٨/٦ . ولم نعثر للمؤلف على ترجمة ويقول بروكلمان ان له ترجمة في (Wustenfeld: geschichte ص ١٨٠) .

وصف موضوع الكتاب ومحتواه

ذكر ابن خلكان (٢٧٨/١ من طبعة سنة ١٣١٠) وصاحب كشف الظنون ٢٣٢/١ ان لابي القاسم الحضرمي ذيلاً على تاريخي ابن يونس الصدفي (— ٣٤٧) وأحد هذين التاريخين كبير لاهل مصر والآخر صغير للغرباء الواردين اليها . ويخيل من اسم كتابنا انه ذيل على تاريخ اهل مصر الكبير .

والحق انه ذيل على الاثنين لأن فيه تراجم علماء غرباء مروا بمصر كابن عبد ربه (و : ٣أ) .

ويتفق هذا مع ماذكر ابن خلكان (٣٠٥/١) من انه ذيل لتاريخي ابن يونس المصري دون تفصيل وما ذكره السخاوي في الاعلان بالتوبيخ (ص ١٣٠) من انه ذيل لهما معاً ويختلف مع ما ذكر ابن زولاق (في الولاة والقضاة للكندي ص ٥٨٥) من

ان له كتاب الغرباء وذكر ترجمة شخص محلها في القسم المخروم من كتابنا . ويعتقد بروكلمان ان ذيل تاريخ مصر غير كتابنا هذا (GALS ١/٥٧١) ولعل اختلاف الاسم دعاه الى ذلك .

يترجم الكتاب للمصريين او من وردوا الى مصر من المحدثين والرواة خاصة ويرد فيه حيناً ذكر الشعراء والفقهاء والمعدلين والمعلمين والمؤدبين والقضاة والنحويين والمؤرخين والوراقين من أهل السنة . وهو مرتب على حروف المعجم لأسماء العلماء ، لكن ترتيبه غير مضبوط فقد يرد اسم جناح قبل جعفر وحبيب بعد حمدان ولكن لا غلط في ترتيب الحرف الاول من الاسم . والتراجم مختصرة ، يذكر المؤلف اسم العالم بالتفصيل وان كان عرفه قال عرفته والا قال حدثت عنه وقد يذكر تاريخ الوفاة ويورد بعض قصص ويذكر أشعاراً بالمناسبة . واغلب العلماء الذين ترجمهم ممن عاشوا في القرن الرابع غير ان منهم من عاشوا في القرن الثالث بل اوائله كعلي بن عبد الله الحضرمي ولد بمصر سنة ١٨٠ وتوفي سنة ٢٤٥ (و : ١٩[ب]) وكان يجب الا ترد هذه الترجمة فيه بصفته ذيلاً لابن يونس ولعله ذكرها لانها اهملت في ابن يونس . وقد الف الكتاب بعد سنة ٤١١ فقد ذكر عالماً توفي في هذه السنة (و : ٢٥[ب]) . واكثر التراجم التي وردت فيه مهملة في كتب التواريخ المطبوعة ، وكذلك فالكتاب يكشف عن تراجم علماء مصريين مجهولين .

وننقل على سبيل المثال تراجم الشعراء الذين ورد ذكرهم

و : ٣[أ] : احمد بن محمد بن عبد ربه الشاعر بالاندلس يكنى ابا عمر حدثونا عنه

و : ١٢[ب] : الحسن بن علي بن احمد بن وكيع بن خلف الشاعر ابو محمد اصله بغدادي ومولده هو بتنيس سمعت منه

و : ١٥[أ] الخليل بن احمد الشاعر ابو القاسم توفي في جمادى الاولى سنة ثمان وخمسين وثلثمائة انشدني الخليل بن احمد لنفسه

يا خالق الخلق انت لي جارُ واتت للمذنبين غفار

فارحم عبيداً أتاك معترفاً خاطٍ له بالذنوب اقرار
ان تعف عنه فالخلد مسكنه وان تعاقب فداره النار

وأنشدني الخليل لنفسه

شيب الفتى موت له عاجل يأتيه موت بعده آجل
فعمره عنه به راحل والموت في ساحته نازل
من لم يزل عن ملكه طايعاً فالملك عنه عنوةً زايل

و : ١٧ ؟ : سعيد بن احمد بن محمد بن عبده الشاعر مولى بني امية يكنى اباعثمان حدثونا عنه .

و : ٢٢ ا : عثمان بن حجاج بن يوسف الخولاني الشاعر ابو عمرو ، توفي في صفر سنة ست وستين وثلثمائة سمعت منه ، انشدني عثمان بن حجاج لنفسه

سلام على الأيام يوم حصولنا على شرجع جوف القليب توارى [1]
وتوحش دار بعد انس بأهلها بحادث ليل نأتنا [2] ونهار

اول النسخة

و : ١ ؟ : عونك اللهم قال ابو القاسم يحيى بن علي ... باب ابراهيم ، ابراهيم بن عبد الله بن محمد بن يحيى المعافري

و : ١٧ ؟ : تم الجزء الأول من الأصل

آخرها

و : ٣٠ ؟ : محمد بن عبد الله بن الحسين بن عبيد البزاز

فالكتاب غير كامل ينقصه من الاسماء ما يقارب الثلث ولم يرد فيه من اسماء المحمدين الا اربعة .

وصف النسخة المخطوطة

المخطوطة في حال حسنة الا انها كما رأينا مخرومة وتجليدها في المجموع الذي الحقت

(١) في الأصل سرجع ولا معنى لها ، والشرجع : النعش ، والقليب : البئر أو العادية القديمة منها (القاموس) ومعناه هنا القبر (٢) لعلها « تاوة » .

يدل على أنها كانت ناقصة مذ كانت في الخزانة العمرية قبل سنة ١٢٩٧ هـ . ورقها اسمر متين ، عدته ثلاثون ورقة ، ابعاده ١٨/١٤ سم ، عدد اسطره يختلف بين ١٧ الى ٢٠ سطراً ، ويبلغ هامش الكتاب ثلاثة سنتمترات . خطها مقروء منقط على الغالب ومضبوط في بعض محاله . وفي النسخة بعض أغلاط في النقل اشير اليها باشارة خاصة بخط ناصل يغلب ان يكون من قلم محمد الذهبي ، وصححت حيناً واهمل حيناً تصحيحها . وبمقابلة النسخة ببعض نصوص من الكتاب وردت في معجم البلدان لا سيما ٣/٦٧٦ تبين وجود بعض الاختلاف البسيط في النص عما نقل عن الكتاب . الخط كبير الحرف وقد كتبت اوائل الاسماء بخط كبير ليهتدى اليها والكتابة متتابعة دون فاصل اللهم الا في الاشعار فقد خصصت لها اسطر خاصة .

كتبت النسخة قبل سنة ٦١٦ او ٦١٩ لأنه توفي في احديها ابن الانماطي الذي ملك الكتاب .

وورد في الورقة الاولى الوجه الاول مايلي ولعل كل ذلك بخطوط العلماء المذكورين:

فرغ منه محمد بن [احمد بن عثمان بن قايماز] الذهبي (٦٧٣ — ٧٤٨)

طالعه وانتقى منه احمد بن احمد بن عبد الهادي

لخصه يوسف بن عبد الهادي (٨٤٠ — ٩٠٩)

علق منه محمد بن المحب ومحمد بن سند

ملك القاضي الفقيه ... تقي الدين ابي الطاهر اسماعيل بن [عبد الله] الانماطي (توفي سنة ٦١٦ او ٦١٩)

وقفه وجميع كتبه واجزائه الشيخ المحدث ابو الحسن علي بن مسعود بن نفيس [سنة ٦٦٧ كما اشار الى ذلك بخطه في و : ١ا من مخطوط الظاهرية رقم حديث ٣٣٩ وكان وقفه في دار الحديث الضيائية ومنه انتقل الى العمرية ومن العمرية الى الظاهرية .] ونسختنا هي الوحيدة التي ذكرها بروكلمان

يوسف العش

مخطوطات ومطبوعات

الاسلام والحضارة العربية

تأليف الأستاذ محمد كرد علي

طبع في مطبعة دار الكتب بمصر ونشرته لجنة التأليف والترجمة والنشر

١٩٣٤ — ١٩٣٦

هذا كتاب كبير يقع في مجلدين يقرب عدد صفحاتها من الألف ، خصه مؤلفه الجليل بالبحث في الاسلام والحضارة العربية بحثاً مسهباً مترعاً بالأخبار والاسرار حتى غدا مرجعاً في هذا الباب .

وموضوع الكتاب ذو قيمة وشأن . ما أحسب أن أحداً عني به قدر ما عني به الاستاذ المؤلف ، وما أحسب ان عالماً حفل باظهار حضارة الإسلام وسرد الدلائل عليها ، على الوجه الذي اظهرها هو فيه ، لأن تبيان هذه الصفحات الناصعات من تاريخ العرب ، والجلاء عن آياتهم البينات في الحضارة يتطلبان بسطة في العلم وصحة في النظر ، وذلك مالا يتهيأ لكل انسان ، دع عنك ما يستدعيانه من جهد دائم وما يتطلبانه من وقت طويل .

وقد تناول الاستاذ بالبحث طائفة من الموضوعات الهامة ، فذكر في المجلد الاول منازع الناقمين على الإسلام وناقديه ، اشباه رنان وجانو وغيرهما . وجلّى عن الشعوبية في الشرق والغرب فعرّفها وردّ على أهلها ، وفصل المسائل التي يرددها الشعوبيون كالقرآن والطلاق والحجاب والربا والرق والمسكرات . ودفع دسائسهم فيها . وهذا الفصل من امتع فصول الكتاب .

ثم بين المؤلف حالة العرب قبل الاسلام . وما اصبحوا عليه في دينهم الجديد ، والأشاوي التي امتازوا بها ، وسرد رأي لوبون ودوزي وغيرهما في الفتوح العربية ، وتكلم على ثروة العرب وعلومهم ، وأوضح أثر اللغة العربية في لغات الشرق والغرب ، وحالة اوربة في شباب الإسلام ، وأثر علوم العرب في اوربة ، وما كان للمسلمين والعرب من فنون ، وما كشفوه واخترعوه ، مستشهداً على ذلك بأقوال اساطين الغرب

وعلمائه ثم تطرق الى ذكر مدنية العرب في الاندلس وما نشأ عنها من علم ورقي وعمران ثم أوضح اثر العرب في صقلية ومدنيتهم التي تركوها فيها ، وكان ذلك مجهولاً لا يعلمه الا القليل ، وانتقل الى البحث في الحروب الصليبية ، ومجازر اهلها وأثرهم في المسلمين ، وأثر المسلمين فيهم ، وسياسة صلاح الدين ، وهذا الفصل مترع بالأخبار واذكر اني سلخت زمناً في قراءة ما كتب عن الصليبيين ، فما وجدت بحثاً اكثر سعة واوفر مادة مما كتبه المؤلف .

اما المجلد الثاني فيبحث في العلوم والمذاهب في الاسلام كنشأة علم الحديث وعلم الكلام والتصوف والفلسفة والادب ، وميلاد الفرق الاسلامية ، وما لقيه العلماء من عنت واضطهاد في نشر أفكارهم ومذاهبهم . ثم بحث في الادارة الاسلامية فتناول ذكر الادارة عند كل خليفة منذ عهد الرسول الى زمن العثمانيين . وقلّ ان تجد مثل هذا الفصل في سعته واستقصائه وغزارة أخباره وأردف ذلك ببحث مطنب عن السياسة زمن الرسول والخلفاء الراشدين وبني أمية وبني العباس والمماليك والعثمانيين .

والمؤلف في هذا كله يبدو حافل الخاطر يتدفق تدفق الينبوع الثر . لا يدعك تقرأ خبراً حتى يردفه بآخر . ولا يكاد يجلو أمراً حتى يلحقه بثان ، بأسلوب مرسل تترقرق فيه السلاسة والسهولة والصفاء ، وبايضاح لا تدليس فيه ولا موالسة هذا مع تنبيه على الدسائس ودحض للهواجس وتجرد من العواطف وبعد عن الأوهام .

لا جرم أن هذا الكتاب من العيون التي يحتاج اليها الشباب المتأدبين ولا يستغني عنها الشيوخ العلماء . أما الشباب فيجدون فيه ما جهلوه من الاسلام وحفول تاريخه وسمو تراثه . وأما الشيوخ فلا يعدمون فيه مرجعاً وسنداً ، وليت شعري من ذا الذي يكتب له أن يقرأ مؤلفاً فيه زبدة ستماية كتاب ما بين مخطوط ومطبوع ونادر فلا يسارع اليه ولهان ، او يقدر له أن يقطف في كتاب ثمرة سنين طوال حافلات بالدرس والمطالعة فلا يبادر نحوه عجلان ؟

صلاح الدين المنجد

العقد الفريد

جزؤه الأول

أصدرته لجنة التأليف والترجمة والنشر سنة ١٩٤٠ م
بتصحيح الأساتذة : أحمد أمين ، أحمد الزين ، ابراهيم الأبياري

لا يخفى على كل متأدب ان العقد الفريد لابن عبد ربه من أمهات كتب الأدب وأنه اجمعها لفرائده ونوادره . وان طبعاته السالفة ملئت خطأ وتحريفاً . وان الحاجة ماسة الى اعادة طبعه طبعةً صحيحة تلائم منزلته . وتفي بحاجة الطلاب الذين أُدخل هذا الكتاب في برامج مسابقاتهم الامتحانية — كل ذلك جعلنا نرحب بهذه الطبعة الجديدة ونقول ها قد تحققت الأمنية . وعثر على الضالة .

وصفحات هذا الجزء تبلغ ٤٧٦ صفحة ذات قطع كامل . منها نحو ربعها يتضمن استدراكات وفهارس في المطالب المختلفة . أما العناية بالطبع والورق وجودة الحرف والتصحيح والتعليق فقد وثق بها القارئ وثوقه بلجنة التأليف التي طبعته . و (هيأة) الأساتذة التي صححته . على أن ذلك كله لم يحل دون وقوع أخطاء تفطن لها (استاذ جليل) فهو يتتبعها وينشرها مقالات في مجلة (الرسالة) . وقد اطلعنا من تلك المقالات على ما نشر في أعداد (٣٩٩) و (٤٠١) و (٤٠٣) و (٤٠٧) من السنة التاسعة . ومن ثمّ أهملنا في مقالنا هذا التعرض لشيء من تلك الأخطاء وتصحيحها محيلين القارئ الحريص الى مقالات (الاستاذ الجليل) المذكورة . اللهم إلا ما عثرنا عليه عفواً ونحن نتصفح الكتاب : من ذلك ماجاء :

في ص ١٤١ قول المصححين في تعليقهم على شعر عمرو بن معدي كرب (أعاذلُ عدّتي بزّي ورمحي) قالوا إنه جاء في الأغاني هكذا (أعاذل عدتي بَدَني ورمحي) و (بدني) تحريف اهـ أقول لاتحريف ولا تصحيف فان البدن معناه الدرع فكأن الشاعر يقول (أعاذل عدتي درعي ورمحي) أما في الرواية الأخرى فهو يقول (عدتي سلاحي

ورمحي) وليوازن القارئ بين الروايتين ان شاء . قال ابن سيده : البدن الدرع القصيرة على قدر الجسد . وقيل هي الدرع عامة . وبه فسر ثعلب قوله تعالى (فاليوم ننجيك ببدنك) قال بدرعك . وذلك أنهم شكوا في غرق فرعون فأمر الله عز وجل البحران يقذفه على دكة في البحر ببدنه اي بدرعه فاستيقنوا حينئذ أنه قد غرق لأن الدرع درعه .

وفي ص ٣٧٢ ذكر صاحب العقد قول الشاعر في عبد الله بن طاهر

اشرب هنيئاً عليك التاج مرتفقاً من شاذياخ ودع غمدان لليمن

أقول صوابه (في شاذياخ) وشاذياخ بستان الممدوح فالشاعر يقول له اشرب فيه كما هو في الرواية الأخرى (إشرب هنيئاً ... بالشاذياخ) على ان هذا الشاعر في قوله هذا إنما حذا حذو الشاعر الأول الذي قال في سيف بن ذي يزن :

إشرب هنيئاً عليك التاج مرتفقاً في قصر غُمدان داراً منك محلالا

ومثل قول هذين الشاعرين القول المنسوب الى يزيد بن معاوية

اذا اتكأت على الأنماط مرتفقاً في دير مُرّان عندي ام كلثوم

وكلمة (مرتفقاً) الواردة في هذه الأشعار تصحفت الى (مرتفعاً) بالعين وهو خطأ وصوابه القاف . ولكن ما معنى (مرتفقاً) بالقاف ؟ فسر مصححو العقد (مرتفقاً) بقولهم (ثابتاً دائماً) والصواب أن تفسر بما فسرها به الشراح وأرباب المعاجم وهو متكئاً على مرفق يدك أو على مِرْفقتك أي وسادتك وهي جلسة الرافه الوادع او المتكبر المتعظم . راجع اللسان في مادة (رفق) ص ٤٠٩ أما ماجاء في التاج في مادة (رفق) وهو قوله (وارتفق اتكأ على مرفق يده أو على المخدة . وامتلأ . والمرتفق الواقف الثابت الدائم) فالعبارة الأخيرة منه لم نجدها في غيره وهي مقحمة في جملة كلام ليس من أصل التاج وانما هو هامش أو تعليق دخيل عليه فراجعه . ولو صحت العبارة لكان المعنى إشرب يا ابن ذي يزن في قصرك أو يا ابن طاهر في بستانك واقفاً ثابتاً دائماً !! وهذا قول هراء لا طعم له .

وفي ص ٢٤٠ قوله (ضراعة سنه وحداثة مولده) فسر المصححون (ضراعة سنه) بمعنى (شبابه) وكلمة (ضراعة) لا تكون بهذا المعنى وانما هي مصحفة وصوابها (خراعة

سنه) بالخاء المعجمة : ففي اللسان ان الخراعة اللين من قولهم امرأة خريع أي شابة ناعمة لينة . وقال الأصمعي (الخريع) هي المرأة التي تتثنى من اللين . والخريع ايضاً الغصن لنعمته وتثنيه . وامرأة خِرْوَعة حسنة رخصة لينة . قال ابو النجم (فهي تمطى في شبابٍ خروع) اه والسن معناها العمر فمعنى خراعة سنه أنه في لينٍ ورخوصة ونعومةٍ من عمره .

وفي ص ١٢٩ يقول الشاعر (اذا هــابَ اقوام تجشمت كَلّها) وهي احدى روايات هذا البيت وقد قال المصححون ان قوله (تجشمتُ كلها) لا معنى له . والحق أن له معنى إذ (الكلّ) هنا بفتح الكاف وتشديد اللام بمعنى ثقلها اي ثقل الحرب وعبئها كما في رواية (تجشمت هولها) والتجشم التكلف . فكان الأجدر ان يقال (إن قوله (تجشمت كلها) له معنى لكنه لا ينتظم أو لا ينسجم مع الشطر الذي بعده وهو قوله (يهاب حُمياها الألد المداعس) .

وفي ص ٢٨ قال المصححون (استكفيت أي وليت الاكفاء) وصوابه الاكفياء جمع كفي - كغني - . أما الاكفاء فجمع كفؤ بمعنى مثل ولا يجيء منه فعل على وزن استفعل بهذا المعنى .

وفي ص ٣٣ قال المصححون في تفسير قول الشاعر (فلم يترك لها سبد) ما نصه (السبد الشعر ويكنى به عن الإبل ؟ كما يكنى بالوَبر عن الغنم ؟ فيقال : ماله سبد ولا لبد . أي ذو وبر ولا صوف متلبد يريد إبلاً وغنماً بنصّه اه) وهذا الكلام كتب بعجلة وتحريره أن يقال (السبد الشعر وهو للمعز . كما أن الوبر للابل . والصوف واللبد للغنم . وقولهم ماله سبد ولا لبد بمعنى لا يملك شيئاً من شعر ولا صوف وهو كناية عن الفقر أو المعنى انه لا يملك شيئاً من ذي سبد ولا ذي لبد أي لا يملك معزاً ولا غنما) .

هذا ومن كان حريصاً على تصحيح نسخته التي اقتناها من هذه الطبعة النفيسة فليرجع الى مقالات (الاستاذ الجليل) المنشورة في الرسالة فإن فيها غناء .

ومجلة المجمع تشكر لحضرات الناشرين والمصححين عنايتهم بابراز هذا الكتاب وتستزيدهم من العناية في تصحيح الأجزاء الباقية .

المغربي

آراء وانباء

استدراك ورجاء

حول كتاب الاجابة

ذكرني ما نشر عن كتاب « الإجابة لإيراد ما استدركته عائشة على الصحابة »[1] بدين علي ، أرى من حق العلم أن أنوه بصاحبيه في هذه المجلة اعترافاً بفضلهما وغيرتهما على الحديث الشريف :

أما الأول فهو الشيخ سليمان الديراني الذي قرأ الكتاب بامعان وتحرٍ وقابل النقول بالأصول التي عزا اليها الزركشي ثم نبهني الى :

١ — ص ١١١ س ٨ قوله : « لم ينزل البلاء بالرسل حتى خافوا ... الخ » صوابه « لم يزل ... الخ »

٢ — ص ١٢٨ قوله : « هم الذين يكنزون .. » صوابه « هم الذين يكتوون . »

وأما الثاني فهو العلامة الاستاذ كرنكو الذي انتدب الى خدمة النسخة فور وصولها إليه ، ثم كتب الي كتاباً عنها ، أقتطف منه فقرة النقد فقط لما فيها من فوائد في أماكن بعض كتب الحديث الأمهات ، قد تعني المشتغلين بهذا العلم ، قال :

« ... إنكم مع جودة التهذيب وإتقان النشر وهمتم في عزو كتاب المسند للبزاز إذ هو بلا شك ابو بكر أحمد بن عمرو بن عبد الخالق البزار — بالزاي ثم بعد الألف الراء — المتوفى سنة ٢٤٢ (انظر أنساب السمعاني) وقد حمل الي وقت إقامتي في الهند ، العالم عبد اللطيف الحرازي نزيل مدينة (لكنو) مجلداً فيه الجزء الثالث من هذا المسند ، وأعتقد أن أجزاء أخر موجودة في خزائن استانبول .

و ص ٣٨ سطر ٣ اللغوي المذكور هو أبو القاسم عمر بن ثابت الثمانيني المتوفى سنة ٤٤٢ .

وص ٦٢ سطر ١٣ كتاب (ايضاح مالا يسع المحدث جهله) فهو موجود في عدة

---

(١) مجلة المجمع العلمي العربي المجلد السادس عشر ص ١٢٩

نسخ في لندن واستانبول وبانكي‌پور ورامپور من بلاد الهند (انظر بروكلن ١ وتكملته ٦٣٣/١) والمؤلف هو الميانشي بالياء المثناة نسبة الى قرية في إفريقية ٠

أما كتاب المعجم الاوسط للطبراني فهو مفقود سوى المجلد الثالث وهو الأخير فمن نسخة قديمة في خزانة كوپريلي‌زادة بإستانبول ولكن لاأعرف مايضمن هذا المجلد ٠

وفي ص ١٣٣ سطر ١٧ وص ١٣٤ الخ الراوي عن ابن مسعود هو جابان بالجيم كما هو مضبوط في كتب الرجال ٠٠٠ »

ومع أن أكثر هذه التصويبات مطبعية لا تعدو النقطة فان القاريء لا ينتبه الى صوابها ، وليس يسع المرء الا إكبار خدمة العلم المخلصين وشكرهم من أي ملة كانوا ٠

هذا وفي الكتاب مواضع تركت بيضاء لأن خط المؤلف فيها كان كهذا الذي يكتبه الاطباء باللاتينية الى صيادلتهم ، وقد أعوزتني المصادر التي نقل عنها الامام الزركشي وخاصة كتاب شعب الايمان للبيهقي لم أر أحداً يعرف له وجوداً ٠

فالرجاء ممن استطاع تصحيح شيء عجزنا عنه ان ينبهنا اليه وله على ذلك شكر العلم وثواب الله [1]

سعيد الافغاني

---

(١) فيما نشر الاستاذ الشيخ محمد بهجة البيطار عن (الاجابة) ص ١٢٩ (المجلد السادس عشر) أشياء تحتاج إلى استدراك :

فقولي ص ٥ س ٧ « وعروة وابن الزبير » مقصود لا سهو فيه ، فابن الزبير إذا أطلق انصرف إلى عبد الله وكل من عبد الله وعروة أخذ وروى عن عائشة ٠

وقول عائشة : « أدخل البيت الذي دفن معها عمر ص ٧٢ سطر ١٣ » لا خطأ به وحذف « فيه » منه جائز لغة كما هو معلوم من كتب النحو (انظر بحث الموصول في حاشية الخضري) ٠ وقد صورت في النسخة الصفحة الوارد فيها هذا القول ٠ والحديث لا يصحح اعتباطاً ولا عفو الخاطر وانما يرجع فيه إلى دواوينه وتتبع أصوله ٠ ولو رجع الأستاذ البيطار إلى مستدرك الحاكم المطبوع بالهند (ج ٤ ص ٧) لوجد الحديث كما هو مثبت في النسخة تماماً ٠

وكذلك قول الأستاذ : والصواب : « أعلى الدلاء من أسفلها » غير صحيح وهذا الحديث ذكر في السمط الثمين ص ٤٤ محرفاً أيضاً وانما الصواب فيه : « إن الغيرى لا تبصر أسفل الوادي من أعلاه » أنظر شرح المواهب للزرقاني ٤ : ٢٧١

ومراعاة النطق في رسم داوود أولى ، وكلٌ جائز ٠

مجلة المجمع العلمي العربي

الجزء الثامن آب سنة ١٩٤١ شعبان سنة ١٣٦٠

قصر الحير

اكتشاف القصر

في البادية الشامية — على بعد (٦٤) كيلو متراً من تدمر لمن يقصد دمشق عن طريق القريتين — اكمة تجد في زاويتها الشمالية الغربية بقية برج بزنطي مربع شاهق وهو آخر ما رممه المسلمون سنة ٥٨٣ هـ . على ما تشير الى ذلك الكتابة المزبورة في مدخل هذا البرج .

ذكر هذا البرج المعروف بقصر الحير والانقاض المبعثرة بجواره اكثر من بحثوا في تدمر وعمرانها واتساع سلطانها زاعمين ان تحت الاكمة انقاض حصن روماني مستنتجين ذلك من عتبة باب مزخرفة كانت ظاهرة في وسط سفح هذه الاكمة الشرقية نقوشها رومانية من عهد خرائب تدمر . وايدت الرسوم الجوية التي التقطت فيما بعد صلة هذا البناء وماجاوره بسد خربقة الروماني الذي يبعد عنه نحو (١٥) كيلو متراً الى الجنوب ومنه كانت تستمد هذه المنطقة حاجتها من الماء بواسطة قناة مكشوفة يستقي منها السكان وتسقي الحدائق والمزروعات التي كانت محدقة بالقصر . ولقد كادت تصبح هذه المزاعم عقيدة مسلماً بها لولا الحفريات التي قامت بها مصلحة الآثار في عام ١٩٣٦ باشراف أحد مفتشيها المسيو شلومبرجه لاظهار العتبة الآنفة الذكر والباب الذي تظلله . ولم يمض أيام على مباشرة العمل حتى كشف الباب بكامله بنقوشه البديعة وظهر بين الانقاض التي كانت تغمره كنز زخارف من الجص

يت بعضها بصلة للفن البزنطي الهيليني وبعضها للفن الساساني ، ومنها ماهو مزيج من الفنين معاً . ولم يستنكر اجتماع كل ذلك في صعيد واحد وسورية ملتقى الحضارات . وشاع ذلك فيها في أواخر العهد الروماني لا سيما على مقربة من حدودها الشرقية التي كان لمدنها صلة وثيقة ببلاد ما بين النهرين . ولكن تقدم الحفريات وزيادة المكتشفات أوحت للقائم بها بفكرة جديدة وافقه عليها الاخصائيون وأيدتها نتائج الاعمال والابحاث : اتضح أن البرج القائم هو بناء بزنطي وتحت الاكمة أنقاض قصر أموي .

القصر

بناء مربع الشكل (طول ضلعه الشرقي ٧١،٤٥ م والغربي ٧٣،٠٥ م والشمالي ٧٠،٤٥ م والجنوبي ٧١،٠٥ م) بني جداره الخارجي من حجر نحيت بارتفاع مترين والباقي من اللبن والآجر وشيد في كل من اركانه برج مستدير ما خلا الركن الرابع اي الزاوية الشمالية الغربية فانها احتفظت بالبرج البزنطي الآنف الذكر ودعم وسط كل من اضلاع القصر بدعامة نصف مستديرة وحكم مدخل القصر في منتصف الضلع الشرقي بين دعامتين نصف مستديرتين . ينفذ من الباب الى مدخل مسقوف على جانبيه مساطب ومنه الى باحة رحبة مرصوفة يطوف بها رواق قائم على (٣٢) عموداً مشيدة من حجر لم ينحت يكسوها الجص ويضاف اليها اربع دعامات مربعة قائمة في زوايا هذا الرواق ، وبني خلفه صفان من بيوت سكن وغيرها من المرافق البالغ عددها ستين ونيفاً وعثر على بقايا ادراج وانقاض يستدل منها بأنه كان للقصر اكثر من طبقة واحدة يؤيد ذلك ما جمع من أنقاض واجهة مدخل القصر وزخارفها البالغ ارتفاعها نحو (١٥) متراً وللقصر صهاريج ماء ومراحيض ومجاري وبجواره حمام واسع على نسق حمامات دمشق وترتيبها وعلى هذا يشتمل على جميع اسباب الراحة وروعيت فيه كل الشروط الصحية المنزلية . وبها ندرك مدى رقي الفن المعماري في العصر الأموي وازدهاره في الحضر والبادية . وانه ليتعذر علينا في هذه العجالة التوسع في وصف هذا القصر وملحقاته وطرق الري اذ كل ناحية منها تتطلب بحثاً خاصاً يفرد لكل منها .

زخارف القصر

لا يتأتى لمن يشاهد القصر بحالته الحاضرة بعد ان كشفته الحفريات للعيان أن يصور فكرة صحيحة عن عظمته ابان ازدهاره . فهو اليوم بناء رحب جردته صروف الحدثان من كل المعالم التي تدل على نسبه العريق ومجده الغابر حتى أصبح أشبه بحصن تأوي اليه الجنود منه بقصر خليفة خضعت لسلطانه رقاب أمم وملوك .

ولم يصل الينا من ماضيه المجيد الا ما التقط بين الانقاض من كسر الزخارف التي كانت تزين القصر وقد زاد عددها على (٤٠،٠٠٠) قطعة لا يتجاوز حجم اكبرها عشرات السنتمترات . كان منها بعد بذل جهود عظيمة تصوير القصر في صورته الأولى . وقد صنعت هذه الزخارف من الجص لتكسو بعض الجدران من الداخل والخارج وتزين نوافذه وقناطره وتفنن الصناع بتنويع أشكالها فمنها النباتية والهندسية وذوات الأرواح من أشخاص وحيوانات جاءت بمجموعها في غاية الابداع والإحكام وحسن التناظر والتناسق منها تمثال امرأتين كانتا فوق مدخل القصر احداهما جالسة والثانية مستلقية على ظهرها تشبه صنعتها التماثيل التدمرية المعروفة وكأنهما نقلتا عن صورة الجاريتين اللتين مر بهما اوس بن ثعلبة التيمي فاستحسنها وأنشد فيهما :

فتاتي أهل تدمر خبراني ألما تسأما طول القيام
قيامكما على غير الحشايا على جبل أصم من الرخام

وفيهما قال أيضاً ابو دلف :

ما صورتان بتدمر قد راعتا أهل الحجى وجماعة العشاق
غبرا على طول الزمان ومره لم يسأما من ألفة وعناق

وعثر أيضاً على بقايا أنواع من الرخام والمرمر والفصوص الملونة والاخشاب المنقوشة والمصبوغة والمذهبة يستدل منها — وان لم يعرف كنهها — على تنوع زخارف

هذا القصر والعناية بزينته خصوصاً اذا أضفنا اليها ما اكتشف من الزخارف المصورة والملونة التي كانت مرسومة على جدران بعض غرف القصر وارضها ومن أعظمها ما عثر عليه داخل غرفتين منها رصفت ارضها بالجص المصور تمثل الاولى سماوة امرأة تحمل بين ذراعيها سلة فيها أثمار وقد التف حول عنقها ثعبان وفوقها صورة (قنطورسين) بهيئة رجلين نصفها الاسفل بشكل ثعبان له مخالب سبع ورسم في أرض الغرفة الثانية مرزبان على جواده يطارد غزلاناً يرميها بالسهام ، وصورة قينتين الأولى تنفخ بمزمار والثانية تضرب بمزهر الخشب على عود ذي خمسة اوتار وهذا ينفي ما نسب لزرياب مولى المهدي العباسي ورئيس المغنين [1] أنه هو أول من زاد الوتر الخامس في العود وهذا الرسم يثبت أن الوتر الخامس كان موجوداً قبل وفاة زرياب بـ (١٢١) سنة . وحجم هذه الصورة يعادل حجم الانسان ويزيد عنه في بعضها وهي متقنة الصنع زاهية الألوان ساذجة الخطوط طبيعية الحركات رشيقة لا تكلف فيها ولا اجهاد تدل على مهارة الصانع وسمو مواهبه الفنية .

وقد استجلب للقصر من انقاض بناء قديم دعامتا باب المدخل وعتبته وهما تحاكيان بعظمة نحتها وجمال زخارفها ما يعثر عليه من أنقاض خرائب تدمر الرومانية .

تاريخه

سبق لنا القول بأنه عثر في القصر وجواره على بعض انقاض غير اسلامية ، وعلاوة على ما أقحم منها في البناء كالبرج ومواد بناء الباب فقد عثر في المدخل على عتبة عليها كتابة يونانية من القرن السادس للميلاد جاء فيها ذكر الحارث بن جبلة الغساني وهنالك مظاهر غيرها عديدة تدل على مصانع رومانية وبزنطية قديمة قام هذا القصر البديع على أطلالها . ثم ان المكان معروف قبل العهد الاسلامي وهو أحد المراحل بين تزالا (القريتين) وتدمر وقد جاء ذكره في تقويم بوتنجر (Peutinger) باسم هليلاراميا (Heliaramia) وربما كان اسم الحير الذي

(١) نفح الطيب الجزء الثاني ص ١١١ .

عرفت به [١] هذه المنطقة محرفًا عنه . واما القصر الذي نحن بصدده فلا نشك في عصره ونسبه اذ وقع الباحثون فيه وفي جواره على ما يؤيد تاريخه واهمها الكتابة الكوفية التي وجدت على عتبة البناء المعروف بقصر الملح المجاور له وهذا نصها :

« بسم الله الرحمن الرحيم لا اله الا الله وحده لا شريك له . امر بصنعة هـذا العمل عبد الله هشام امير المؤمنين أوجب الله أجره . عمل على يدي ثابت بن أبي ثابت في رجب سنة تسع ومائة . »

وعثر ايضًا في الانقاض داخل القصر على قطع من اللخاف وهي لوحات صغيرة من المرمر الابيض كان يكتب عليها في صدر الاسلام وهي الوحيدة المعروفة من نوعها فقرأنا على احداها ما يأتي :

« بسم الله من هشام امير المؤمنين الى الوليد ابي العباس احمد الله اليك ... »
وكتب على أخرى الحروف الهجائية بالترتيب الآتي .

« ا ب ت ث ج ح خ د ذ ر ز س ش ط ظ ص ض ع غ ف ق ك ل م و ن ه لا ي » وهو ضرب مفرد ثالث لترتيب الحروف لم يتصل بنا علمه وغير معروف عند اهل المشرق ولا المغرب [٢] .

واذا اضفنا الى ما تقدم دراسة القصر من ناحيته الهندسية والمقابلة بينه وبين غيره من القصور الأموية المعروفة المعاصرة له ، كقصر الحير الشرقي في سورية وقصور خرانة والتوبة والمشتى وعمرة في الشرق العربي وخربتي منية والمفجر في فلسطين تضافرت جميعها على تأييد نسبة هذا القصر للعصر الأموي وليس ما يمنعنا من نسبة بنائه الى هشام بن عبد الملك ، ولعل هذا الموضع هو الزيتونة حيث الخلافة أتت هشامًا وهو يتبدى فيها ، وهذا قبل ان يحدث الرصافة [٣] .

(١) R. Dussaud - Topographie historique de la Syrie antique et médiévale. ص ٢٦٤ و ٢٦٥

(٢) صبح الأعشى الجزء الثالث ص ٢٢ .

(٣) فتوح البلدان ص [illegible] الطبري الجزء الثامن ص ٢٨٠

قيمة القصر التاريخية والعلمية

لاكتشاف هذا القصر شأن عظيم في تاريخنا القومي ، واعظم من ذلك فائدته العلمية العالمية لمعرفة تسلسل الفنون الشرقية وتطورها . وقد بعث هذا الأثر ، بعد أن دُفن نحواً من اثني عشر قرناً ، وبعث معه ماضياً مجيداً حافلاً بكل طريف فاق كل ما كنا نتوقعه منه وكل ما كنا نعرفه عن نشأة الفن الاسلامي وتطوره السريع جاء نوراً ساطعاً وبرهاناً صادقاً أسكت ألسن الخراصين الذين كانوا يزعمون أن الاسلام قد قضى على الفن في المشرق وان العرب في الأندلس لم يتذوقوا الفنون الجميلة الا بفضل تشوبق البيئة الغريبة عنهم ومنها نشأت نهضتهم الفنية وترعرعت .

ولم تكن دعوى هؤلاء باطلة يومئذ لأن الفن الاسلامي والاصح العربي لم يتصل بنا خبره الا بما خلفه لنا العرب في الاندلس وبلاد فارس حيث وجدناه في أقصى مراحل الكمال والابداع . لم يتصل بنا قبل اكتشاف قصر الحير الا النزر اليسير من الفن الأموي في مصانع اسلامية محضة اللهم الا ما خلفه لنا الزمن في قبة الصخرة في بيت المقدس والجامع الأموي بدمشق وذلك في نطاق ضيق لا يساعد وحده على دراسة نشأة الفن الأموي وتطوره . ولذلك ضن بعض المستشرقين على العرب ان يكون قصر المشتى [1] المشهور وغيره قد بني في عهدهم وأنكروا أن يكون مثل هذا العمل من صنعهم . وأنى للعرب أن يأتوا بمثله وهم بزعمهم حديثو العهد بالحضارة ولوازمها ، وهم امة لم تمارس الفنون من قبل .

لم ينشأ هذا الخطأ من قلة الوثائق فقط بل سببه جهل بعض علماء المشرقيات حقيقة الاسلام ومدى ما أتى به من تعاليم رفعت المستوى العقلي عند العرب الى درجة كبرى ، ورسمت للحياة مثلها العليا فأحدثت تطوراً جديداً في بلاد مترامية الاطراف لا وحدة بينها وتحقق ذلك بسرعة خاطفة لم يعرف التاريخ لها مثيلاً .

ظهر الاسلام وليس للعرب ما يحملونه للبلاد التي فتحوها بقوة إيمانهم وشدة

(1) J. Strzygowski - L'ancien art Chrétien de Syrie p. 129.

بأسهم سوى دينهم القويم وشريعتهم السمحة فكانوا خير عامل لحفظ حضارة البلاد التي سيطروا عليها من الاضمحلال فنقلوا تلك المدنية برمتها الى السلف بعد ان هذبوها وصقلوها وازدهرت في عهدهم ونمت وهكذا اتصل عصرنا الحديث بالثقافة الاغريقية وعلومها وفنونها . واجمع العلماء على ان العرب قد نقلوا لنا علوم اليونان وفلسفتهم ولكن قلّ من فكر منهم بأن العرب قد واصلوا الفن المعماري الهلليني (اليوناني) ، وزخارفه الشائع في بلاد الشام قبيل الفتح الاسلامي .

ان قصر الحير برهان جديد لا يقبل الجدل يجد الباحث فيه الحلقة المفقودة التي تربط الفن الهلليني بالفن الاسلامي المألوف ، فنرى الزخارف والاشكال البزنطية ممزوجة بالزخارف الساسانية الفارسية متداخلة بعضها ببعض بشكل يألفه النظر بسرعة ويستحسن هذا المزج الذي انبثق عنه الفن العربي وانتشر في العالم الاسلامي . وأحسن وصف لهذا القصر ما قاله مكتشفه في محاضرة له : « ان هذه الزهرة التي اكتشفناها في واحة قصر الحير نمت وترعرعت تحت سماء الاندلس وأعطت أبدع الأمثلة في غرناطة وقرطبة . ولنا أن نقول ان الفن المغربي وجد أصوله في قصر الحير كما ان الفن الروماني والفن القوطي أخذا عنه فن تنوع القناطر وعلى الاخص « القوس المكسور » الذي احتل في هندسة المعمار في القرون الوسطى مكاناً ممتازاً . فقد كنا نعده ابتكاراً غربياً فظهر ان الغرب أخذه بواسطة اسبانيا عن قصر الحير [1] »

بلغ اللخميون في الحيرة والغسانيون في الشام في المدنيــة شأواً بعيداً بالنسبة لحالة عرب الجزيرة وذلك لطول اختلاطهم بالفرس والروم وتأثرهم بهاتين المدنيتين كما تشهد بذلك آثارهم . وكان هؤلاء العرب أسبق الناس لانتحال الاسلام فكانوا العامل القوي لتسرب ثقافة الفرس والروم الى المسلمين وانتشارها بينهم .

كان من بين هؤلاء جماعة مارسوا مختلف الصناعات لا سيا البناء [2] والنحت والتصوير ورصف الفسيفساء وزخارف الجص وقد واصلوا مهنهم بعد اسلامهم ، فساهم

(١) مجلة الحديث ١٩٦١ ص ١٤٤ — ١٤٥

(٢) تهذيب تاريخ ابن عساكر الجزء الاول ص ٢٠٠

بعضهم وغيرهم من عمال الفرس والروم [1] في بناء المسجد الاقصى وجامع دمشق وغيرهما من مصانع العصر الأموي فنجم من ذلك مزيج الفن الفارسي بالفن اليوناني ودام هـذا الحال حتى النصف الاول من القرن الثامن للميلاد ، ازدهر خلالها البناء وزخارفه على اختلاف أنواعه في بلاد الشام . وقد شهدنا الفن العربي بعد هذا التاريخ دخل في طور جديد فعم جميع الاقطار التي فتحها العرب وأصبح فناً اسلامياً ذا طابع خاص يعرف به وكيان يتميز به . ولولا الاكتشافات الاثرية الحديثة — ومنها قصر الحير — لضاعت أصوله وضللنا مصادره . وابرز ما في هذا التطور الجديد اهمال تصوير كل ذوات الروح والاقتصار على الخط والزخارف النباتية والهندسية وقد أبدعوا فيها وأتوا بآيات من الجمال .

وانا لا نستغرب هذا الاتجاه الجديد بل نعلق عليه ونشرحه . لأن الاسلام — الذي قضى على الوثنية — قد نهى عن تشبيه المخلوقات فلا عجب أن نفر منه المسلمون واهملوا هذه الناحية . هذه حقيقة كان يصح لنا السكوت عنها لو لم يتسامح المسلمون بالتصوير ويدخلوه دورهم وقصورهم في صدر الاسلام وهو أشد العصور تمسكاً بتعاليم الشريعة المحمدية ولو لم يعودوا اليه فيما بعد في بلاد الشام والاندلس ومصر وفارس وسمرقند بنسب متفاوتة .

فيجب علينا والحالة هذه بحث العامل الحقيقي لهذا الاهمال الذي تواصل نحو قرنين (الثامن والتاسع للميلاد) . وهذه الفترة تتفق مع ما حصل من مثيلها في الدولة البزنطية المجاورة لبلاد الشام حينما اشتد الانكار على الصور واصدرت قانوناً عام ٧٣٠ م حرمت فيه تكريم الصور والتماثيل واقتناءها كما حرمت صنعها واتلفت كل ما كان موجوداً منها في البيع والكنائس وعند افراد الشعب ، مما هو معروف .

ومن رأينا أن هذا الحدث هو العامل غير المباشر الذي قضى على صناعة تصوير المخلوقات ونحتها عند المسلمين وغير المسلمين الذين خضعوا لسلطانهم . ومن المسلم به

(١) الاغاني جزء ٣ ص ٨١

ان هذا المذهب قد نشأ بين نصارى بلاد الشام ومصر ومنهم انتقل الى القسطنطينية فدانت به حكومتها وفرضته على شعبها وعلى من كان يخضع لكنيستها حوالي قرنين (الثامن والتاسع م) فلا غرابة ان تشيع لهذا المذهب نصارى بلاد الشام الذين كان منهم البناؤون والمزخرفون والنقاشون والمصورون . وهكذا اهمل المسيحيون النحت والتصوير خلال هذين القرنين ففقدوا بعدهما كل رغبة في هاتين الصناعتين وتحولوا عنهما الى الزخارف النباتية والهندسية التي لاقت عند المسلمين كل ترحيب واقبال لأنها تتفق وتعاليمهم الدينية وتزكي فيهم ما توحي به الميزة البشرية من حب الجمال والزينة . وعليه يكون الحرمان المسيحي هو العامل الحقيقي في القضاء على النحت والتصوير في ديار الشام والحائل دون انتقاله للمسلمين ولولاه لبقي هؤلاء المسيحيون يمارسونها كبقية الصناعات التي ترفع عنها المسلمون في بدء عهدهم كالحدادة والصياغة وصنع الاسلحة فبرعوا فيها الى حد بعيد واقتبسها عنهم المسلمون فيما بعد حتى فاقوا أقرانهم عند مختلف الأمم والديانات وبرهنوا على سلامة ذوقهم ودقة صنعهم .

وكل هذا يحملنا على القول بأنه لو كانت الشريعة الاسلامية هي العامل الحقيقي في نبذ التصوير والنحت لكان أحق بها ان تفعل فعلها وتقضي على غيرها من الكبائر التي كانت ولم تزل شائعة بين كثير من المسلمين والاجماع على التشديد في تحريمها .

هذا هو القصر الذي تعمل الحكومة السورية على اعادة قسم منه لتلحقه بدار الآثار بدمشق وتبذل عنايتها لتحقيقه ليكون في المستقبل خير شاهد تدفع به وصمة طالما عابتنا بها العيابون . وسيكون هذا العمل أعظم مشروع تم من نوعه في عصرنا تغبطنا عليه جميع متاحف العالم .

مدير دار الآثار

جعفر الحسني

ابو العلاء المعري واخوان الصفاء

إخوان الصفاء طائفة من العلماء الحكماء اجتمعوا على تصنيف كتاب في أنواع الحكمة وجعلوه إحدى وخمسين مقالة أو رسالة : خمسون منها في خمسين نوعاً من الحكمة ومقالة جمعت أنواع المقالات على طريق الاختصار ·

وقد زعم هؤلاء أن الشريعة دنست بالجهالات ولا سبيل الى تطهيرها الا بالفلسفة لأنها حاوية للحكمة الاعتقادية والمصلحة الاجتهادية ومتى انتظمت الفلسفة اليونانية والشريعة العربية حصل الكمال · وقد سموها رسائل إخوان الصفاء · وفيها نعي على الحياة السياسية وتعريض بما طرأ عليها من الخلل والاضطراب ، ولما كانت مشتملة على ما لا يوافق الدين والسياسة خاف أصحابها على أنفسهم أن يصيبهم ما كان يصيب الزنادقة والملحدين فكتموا أسماءهم · وبثوها في الوراقين ووهبوها للناس ليصلوا الى الغاية المقصودة من إنشائها ووضعها

وكتمان هؤلاء الجماعة أسماءهم فسح المجال لاختلاف الناس فيمن وضع هذه الرسائل · فقال فريق إنها من كلام بعض الائمة من نسل علي بن أبي طالب واختلفوا في اسمه اختلافاً كبيراً وقال فريق ثان إنها تصنيف بعض متكلمي المعتزلة في العصر الاول وقال فريق ثالث وضعتها جماعة وقد ذكروا منهم أبا سليمان محمد بن معشر البستي ويعرف بالمقدسي وأبا الحسن علي بن هارون الزنجاني وأبا أحمد المهرجاني او النهرجوري والعوفي [1] وزيد بن رفاعة

وكل هذه الأقوال قائمة على الحدس والتخمين كما يتضح ذلك من كلام القفطي وغيره وقد ذكر الدكتور طه حسين في ذكرى أبي العلاء ص ١٧٩ وتجديده ص ١٥٠ أن أبا العلاء المعري كان يحضر المجمع الخاص الفلسفي الذي كان يأتلف

---

(١) لا تعلم حقيقة هذا الاسم فانه يقرأ العوفي والعرفي والعوقي ·

يوم الجمعة بدار عبد السلام البصري وفيه يقول من قصيدة بعث بها اليه

تهيج أشواقي عروبة أنها   اليك زوتني عن حضور بجمع

ثم قال : وكأن هذا المجمع السري هو الذي أسماه إخوان الصفاء لشيوع هذا اللفظ بين المسلمين في ذلك العصر ودلالته الخاصة على جماعة فلسفية تشترك في الاغراض والآراء وذلك حيث يقول

كم بلدة فارقتها ومعاشر   يذرون من أسف علي دموعا

واذا أضاعتني الخطوب فلن أرى   لوداد [1] اخوان الصفاء مضيعا

خالت توديع الأصادق للنوى   فمتى أودع خلي التوديعا

وزاد على هذا في المقدمة التي كتبها في رسائل اخوان الصفاء فقال في ص ٧ في الكلام على الرسائل المذكورة: فهذا الكتاب .. يمثل من جهة فساد الحياة السياسية الاسلامية في ذلك الوقت لأن الذين كتبوه جماعة لا نعرف منهم أحداً لأنهم كانوا يعملون من وراء ستار وكانوا يعملون لغرض سياسي قبل كل شيء ... وانما كانت لهم أغراض سياسية متطرفة مسرفة في التطرف فهم من غلاة الشيعة ولعلهم من الاسماعيليين ..

وقال في ص ٨ كان هؤلاء الناس اذن يعملون من وراء ستار ويؤلفون جماعة سرية وكان قوام جماعتهم هذه فيما يظهر سياسي عقلي [2] فهم يريدون قلب النظام السياسي المسيطر على العالم الاسلامي يومئذ .

وقال في ص ٩ وقد احتاط هؤلاء الناس في التستر والاستخفاء فلم نكد نعرف منهم أحدا كما قلنا وانما سميت أسماء لا تتجاوز الخمسة ولا تخلو من أن يحيط بها الشك وكل ما نستطيع ان نعرفه من أمر هذه الجماعة انها نشأت في البصرة في منتصف القرن الرابع وعرف لها فرع في بغداد وليس عندي شك في أن أبا العلاء قد

(١) في ياقوت لعهود . (٢) كذا في الاصل .

اتصل بهذا الفرع حين ارتحل الى بغداد آخر هذا القرن وكان يحضر اجتماعه يوم الجمعة من كل اسبوع ترى ذلك في سقط الزند بل نرى بعض أسماء الذين كانوا يحضرون جلسات هذا الفرع ونكاد نعرف المكان الذي كانوا يجتمعون فيه يوم الجمعة من كل اسبوع ونكاد نلمح في هذه الاجتماعات شيئاً من اللهو المعتدل الذي لابد منه فيما يظهر لتستقيم فلسفة الفلاسفة . وقد أشرت الى شيء من ذلك في ذكرى أبي العلاء على أني أشد استيقاناً به الآن وأعتقد أنا نجد في رسائل اخوان الصفاء أحسن تفسير لكثير من غوامض اللزوميات . الى آخر كلامه .

ويظهر للمتأمل ان الاستاذ الدكتور جعل دار عبد السلام مجمعاً خاصاً للفلسفة وان الاجتماع فيه يوم الجمعة وحجته في ذلك بيت ابي العلاء المتقدم . تهيج اشواقي . .

وانه استنبط من قول المعري في الابيات العينية المتقدمة ان هذا المجمع السري هو الذي سماه ابو العلاء اخوان الصفاء لشيوع هذا اللفظ في ذلك العصر ودلالته على جماعة فلسفية . . . . وانهم من غلاة الشيعة وان ابا العلاء منهم . وهذا استنباط غريب ؛ والأدلة على بطلان كل ما تقدم أمور كثيرة منها أن قول المعري عن حضور بمجمع ليس فيه تصريح بأن المجمع كان في دار عبد السلام ولا بأنه كان مجمعاً فلسفياً سرياً بل يجوز أن يكون المجمع دار العلم او الكتب التي كان عبد السلام خازناً لها وتخصيص يوم الجمعة يجوز أن يكون عبد السلام اختاره للمعري ليتمكن من زيارته بسبب فراغه في ذلك اليوم او ليجمعه برجال من العلماء والادباء كانوا يجتمعون في ذلك اليوم في دار العلم أو في غيرها للمذاكرة والمفاكهة والمطارحة والمؤانسة ونحوها وهذا أقرب الى القبول واكثر ملاءمة لما عرف به عبد السلام من الاشتهار بالقراءة ورواية الأخبار والحديث والتفسير وغيرهما ولو شعر الناس بأنه ينحو منحى الفلاسفة في عقيدته لأعرضوا عن روايته

ومنها ان هذا اليوم لو كان يوم المجمع السري لما صرح أبو العلاء بذكره في هذه القصيدة كيلا ينتبه له خصومه ومن البعيد أن يكون اخوان الصفاء

الى ابي العلاء وهو غريب عنهم وقد نقل عن ابي حيان انهم كانوا يجتمعون في منزل ابي سليمان النهرجوري · وكانوا اذا اجتمع معهم اجنبي التزموا الكنايات والرموز والاشارات ···

ومنها ان كلمة إخوان الصفاء في أبيات المعري المتقدمة لا تدل على ماأراده الاستاذ الدكتور بل الاقرب أن يراد بالصفاء هنا مصافاة المودة

وقد وقعت هذه الكلمة في كلام كثير من الشعراء والكتاب منهم عمرو بن شاس الأسدي حيث يقول [1]

تذكرت اخوان الصفاء تيمموا فوارس سعد واستبد بهم جهلا

ومنهم الخنساء حيث تقول [2]

ولم يجز اخوانالصفاء ويكتسي عجاجاً أثارته السنابك اكدرا

ومنهم ابو حبال البراء بن ربعي الفقعسي [3]

أولئك اخوان الصفاء رزئتهم وما الكف الا اصبع ثم اصبع

ومنهماسماعيل بن يسار [4]

وان أيقنت ان الني فيما دعاك اليه اخوان الصفاء

ومنهم عبد السلام بن رغبان [5]

فهاك اخاً لم تحوه بقرابة بلى ان اخوان الصفاء أقارب

ومنهم ابن الرومي

لو أن اخوان الصفاء تناصفوا لم يفرحوا بتفاضل الأعمار

وقال ابن المقفع في باب الحمامة المطوقة من كتاب كليلة ودمنة فهذا مثل اخوان الصفاء وائتلافهم في الصحبة.

(١) معجم البلدان : « اوماث » · (٢) ديوان الخنساء · (٣) حماسة ابي تمام ·
(٤) حماسة البحتري · (٥) زهر الآداب ٣ ـ ١٧١ ·

فهؤلاء كلهم ذكروا اخوان الصفاء وهم يريدون اخوان المودة الصافية الخالصة قبل ان تؤلف جمعية اخوان الصفاء وابو العلاء احتذى على مثالهم على ان ياقوتاً روى في معجم الأدباء ج ١ ص ١٧٥ عن ابي الوليد الدربندي قال انشدني ابو العلاء التنوخي في داره عند وداعي اياه وذكر الابيات الثلاثة المتقدمة وابو الوليد هذا هو الحسن بن محمد البلخي الدربندي المحدث الصوفي طاف الآفاق في طلب الحديث ثم رجع الى سمرقند وتوفي سنة ٤٥٦ كما قال ابن عساكر ج ٤ ص ٢٤٧ وذكره ياقوت في دربند وفي سقط الزند ج ٢ ص ١٣٦ انه قال هذه الأبيات على لسان البلخي ·

وفي كلام الاستاذ الدكتور في مقدمة رسائل اخوان الصفاء تناقض بين وذلك انه قال : لأن الذين كتبوه جماعة لا نكاد نعرف منهم أحدا ·· ثم قال وقد احتاط هؤلاء في التستر والاستخفاء فلم نكد نعرف منهم أحدا ·· ثم قال وانما سميت بأسماء لا تتجاوز الخمسة ولا تخلو من أن يحيط بها الشك ·· ثم قال وكل ما نستطيع ان نعرفه ·· انها نشأت في البصرة ·· وعرف لها فرع في بغداد ···

ثم ما لبث ان ناقض نفسه وتخلص من هذه الشكوك وزاد استيقاناً فقال بعد ما تقدم : وليس عندي شك في ان أبا العلاء ، قد اتصل بهذا الفرع ببغداد وكان يحضر اجتماعه ··· ثم قال : نرى ذلك في سقط الزند ·· بل نرى بعض اسماء الذين كانوا يحضرون ·· ثم قال ونكاد نعرف المكان الذي يجتمعون فيه ·· ثم قال ونكاد نلمح في هذه الاجتماعات شيئاً من اللهو ··· ثم قال على انني أشد استيقاناً به ·· الى آخره ·

وهذا التناقض يوقع الواقف على كلامه في ظلمات من الشك والحيرة فلا يدري على أي قوليه يعتمد أعلى قوله لا نكاد نعرف ·· ام على قوله نكاد نعرف ونلمح· ونرى· · واعتقد ···

واذا أردنا ان نجري كلامه على طريقة العلماء في النصين المتعارضين ونعول

على المتأخر منها لا نجد له دليلاً يؤيده والقضايا التاريخية لا تقوم على ظنون وأوهام ولا على احتمال وتخمين .

وأغرب مافي كلامه أن يحكم على اخوان الصفاء بأنهم من غلاة الشيعة أو الاسماعيليين ثم يزج بأبي العلاء بينهم فيجعله في عدادهم وابو العلاء ينفر عقله مغضباً من اتباع مثل الامامين مالك والشافعي مع اعترافه بفضلها وينكر على الشيعة والاسماعيليين أشد الانكار ولولا خشية الاطالة لأوردنا أمثلة تدل على مبلغ انكاره عليهم وبراءته من موافقتهم في شيء من عقائدهم . وحسبنا أن نحيل القارئ على رسالة الغفران فان فيها غنية للطالب ومقنعاً للمرتاب . ونجتزئ بهذا القدر للدلالة على أن أبا العلاء ليست له صلة باخوان الصفاء وما وقع في كلامه مما يشبه ما في رسائل اخوان الصفاء فحكمه حكم ما وقع في كلامه مما يشبه كلام غيرهم

والباحث في كلامه يجد فيه كثيراً من الآراء التي وافق فيها افلاطون وغيره وخالف فيها ارسطو وغيره وكثيراً من العادات التي استحسنها لاهل الهند وغيرهم ولم يكن من اشياعهم ولا أتباعهم ولا شهد مجامعهم

ولم يحدثنا التاريخ أن أبا العلاء كانت له أغراض سياسية متطرفة مسرفة في التطرف .

واغرب من ذلك كله أن يعرف الاستاذ ويرى ويلمح وهو في مصر بعد الف سنة تقريباً مالم يعرفه ويره ويلمحه أهل بغداد والبصرة حين كان أولئك الجماعة بين ظهرانيهم ، وحين كان رجال الدين والسياسة يبالغون في التنقيب عن أمثالهم

ومما تقدم يتضح ان استنباط الاستاذ لطيف جميل لو مهد له السبيل وأناره بدليل ولكن شيئاً من هذا لم يكن . فسبحان الموفق

سليم الجندي

الديار الشامية

ونعني بالشام البلاد الواقعة بين العريش والفرات ، وقد سقطت بعد الحرب العالمية الكبرى (١٩١٤– ١٩١٨) في يد الحلفاء ، فكانت فلسطين وشرقي الأردن من حصة بريطانيا العظمى ، وسورية ولبنان من حصة فرنسا ، ثم جعل لهما الانتداب على هذه البلاد بقرار من جمعية الأمم . ورأت بريطانيا العظمى في هذه الحرب الأخيرة (١٩٣٩—١٩٤١) الاستيلاء على سورية ولبنان لتصبح البلاد العربية كتلة واحدة امام دولتي المحور (المانيا وايطاليا) . فأرسلت حملة يوم ٨ حزيران ١٩٤١ احتلت حوران ، وأخرى خرجت من الساحل بين صور وصيدا ، وفي الثاني والعشرين من حزيران فتحت دمشق ، وكان جاء جيش آخر فاستولى على سقي الفرات ثم على تدمر باتجاه حمص وحماة وحلب . واشتد الضغط على بيروت من البر والبحر والجو فاضطرت القيادة الفرنسية الى طلب الهدنة فعقدت هدنة بين الفريقين المتحاربين في المعسكر قرب عكاء بعد معارك دامت كما قالت جريدة التايمس اربعة وثلاثين يوماً بزحف بطيء يقصد منه تجنب اراقة الدماء . وهذا نص وثيقة الهدنة التي وقع عليها الطرفان ننشرها للتاريخ :

هذا نص الاتفاق الذي عقد للكف عن القتال في سورية ولبنان : —

بين الجنرال السر هنري متلند ولسون القائد العام لقوات الحلفاء في فلسطين وسورية (نائباً عن القواد العامين في الشرق الأوسط) من جانب

والجنرال دي فرديلاك نائب القائد العام للجنود الفرنسية في سورية (نائباً عن القيادة العامة) من جانب آخر

تم الرضى والاتفاق على انهاء الحرب في سورية ولبنان بالشروط التالية :

١ — بطلت الحرب في ١١ تموز سنة ١٩٤١ في الساعة الواحدة والعشرين والدقيقة الواحدة بوقت جرينتش أي ١ : ٩ مساء

٢ — تحتل قوات الحلفاء الأراضي السورية واللبنانية وتحتشد القوات الفرنسية في مناطق تختارها لجنة تؤلف من مندوبين عن الجانبين

ويتم هذا الاحتشاد في يوم الثلاثاء ١٥ تموز سنة ١٩٤١ في الساعة ١٢ ظهراً . وفي هذه الساعة تشرع قوات الحلفاء في احتلال مواقع حربية معينة

والى ان يتم تسريح الجنود الفرنسيين يظلون خاضعين لقيادة فرنسية في مكان محدود يقدم اليهم فيه ما يحتاجون اليه من المؤن الموجودة في المخازن

وقد وضعت تدابير خاصة لجبل الدروز فتبقى فيه — لأسباب خاصة بالأمن — حامية من الجنود الفرنسية الى ان يحل محلها جنود بريطانيون

٣ — لأجل ضمان استتباب الأمن العام يتم احتلال الجهات الرئيسة في سورية ولبنان طبقاً لبرنامج يمكن بمقتضاه ابدال الجنود الفرنسيين بقوات من جيش الاحتلال حالاً .

٤ — تعطى للسلطات المحتلة بيانات تكشف عن مواضع حقول الألغام سواء كانت في البحر او البر

٥ — تمنح القوات الفرنسية الاكرام الحربي التام فتسير الى المناطق التي اختيرت لها بجميع سلاحها ، وفي جملتها المدافع والمدافع الرشاشة والدبابات والسيارات المدرعة وما تملك من ذخيرة

وتتخذ القيادة الفرنسية جميع التدابير اللازمة لعدم ترك السلاح والذخيرة بلا حراسة في ميادين القتال أو في غيرهـا

وعلى السلطات العسكرية الفرنسية ان تسدي كل مساعدة ممكنة لجمع السلاح الذي قد يكون في ايدي أهل البلاد

٦ — وفيما يتعلق بالاكرام الحربي يسمح للضباط وضباط الصف والجنود

الفرنسيين بأن يحتفظوا بسلاحهم (كالبنادق او القرابينات والمسدسات والحراب والسيوف)

ومع ذلك لا يباح للجنود بأن يحملوا ذخيرة · ولكن لكل وحدة أن تحتفظ بكمية يسيرة من الذخيرة لأسباب خاصة بالأمن

ويحتفظ رجال الدرك بسلاحهم ومقدار محدود من الذخيرة · أما سائر الاسلحة وفي جملتها المدافع وبطاريات السواحل والمدافع المضادة للطائرات وسيارات النقل العسكري فتخزن تحت رقابة بريطانية

ويتعهد البريطانيون هذه المهمات ويكون لهم الحق في أخذ مايكونون في حاجة اليه منها · ثم تتولى سلطات فرنسية تدمير الباقي باشراف بريطانيين

٧ — يطلق سراح الأسرى من قوات الحلفاء حالاً ومنهم الذين نقلوا الى فرنسا · وهؤلاء الاخيرون يحتفظ البريطانيون في أسرهم بحق استبقاء عدد مساوٍ لهم من الضباط الفرنسيين وبرتبهم على قدر الطاقة كأسرى حرب الى أن يطلق سراح الذين نقلوا الى فرنسا · ويطلق سراح الأسرى الفرنسيين عند احتلال أرض سورية ولبنان كلها وانفاذ مواد هذا الاتفاق · ثم يلحقون بكتائبهم لأجل اعادتها الى أوطانها ·

٨ — يخير الافراد من عسكريين ومدنيين في الانضمام الى قضية الحلفاء واعادتهم الى أوطانهم · أما المدنيون الذين لا يريدون الانضمام الى قضية الحلفاء فتعنى السلطة البريطانية بالنظر في الطلبات التي يقدمونها للبقاء في سورية أو لبنان

٩ — يبقى موظفو السلطة التنفيذية وموظفو المكاتب الفنية وضباط الخدمات الخصوصية في مناصبهم مدة الحاجة اليهم لضمان استمرار الادارة في البلاد والى الوقت الذي يمكن فيه الاستغناء عنهم وحينئذ يرسلون الى اوطانهم اذا أرادوا ويجوز الاستغناء عنهم اذا لم يكن عملهم وسلوكهم مرضيين

١٠ — توافق السلطة البريطانية على أن يعاد على سفن فرنسوية الجنود الفرنسيون والرعايا الفرنسيون الى أوطانهم بشرط أن تقتصر هذه الاعادة على الذين يخيرون في

ذلك وتحتفظ السلطة البريطانية بحق الاشراف على جميع الأمور الخاصة بإعادة هؤلاء الاشخاص الى أوطانهم

١١ — تنقل ممتلكات الرعايا الفرنسيين الذين يُراد اعادتهم الى أوطانهم طبقاً لشروط تعين لذلك ويعاملون معاملة لا تقل عن معاملة البريطانيين الذين سافروا من سورية أخيراً

١٢ — تكفل للمعاهد الفرنسية الثقافية ومنها المستشفيات والمدارس والبعثات الدينية وغيرها حرمة حريتها على ان لا تناقض حرية هذه المعاهد مصالح الحلفاء الحربية

١٣ — جميع الأعمال العمومية ومنها سكك الحديد والترام والنقل والكهربائية والماء تبقى في عملها وتسلم سليمة

١٤ — جميع المواصلات ومنها التلفون والتلغراف والراديو والمخاطبة بالاسلاك البحرية تسلم سليمة الى السلطة المحتلة · ويسهل للقيادة الفرنسية استعمال التلغراف لمخاطبة فرنسا أسوة بالجمهور

١٥ — تسلم الموانىء والمؤسسات البحرية وجميع السفن وبينها البريطانية الراسية في المياه السورية واللبنانية والاقليمية سليمة الى السلطة المحتلة

١٦ — تسلم جميع الطائرات والمؤسسات الجوية والمعدات الحربية في سورية أو لبنان سليمة · وعند إمضاء الاتفاق الحالي يصبح من حق الطائرات البريطانية أن تستخدم أي قاعدة جوية كانت وأي منطقة كانت من مناطق نزول الطائرات في لبنان وسورية

١٧ — تسلم مقادير الوقود الموجودة في البلاد سليمة وتوضع المقادير الضرورية للنقل الحربي تحت تصرف القيادة الفرنسية

١٨ — تضمن سلامة العملة ووسائل الدفع الأخرى سواء كانت متداولة أو في الاحتياطي او في ملكية البنوك أو السلطات العامة الأخرى

١٩ — تحتفظ السلطات العسكرية البريطانية بحقها في أن تدخل في خدمتها

« الجنود الخصوصيين في الشرق » تدريجاً بعد ان تسرحهم السلطات الفرنسية وتسلم أسلحة هؤلاء الجنود الى السلطات البريطانية

٢٠ — تتعهد السلطات البريطانية بعدم اتخاذ اجراءات قضائية ضد السوريين أو اللبنانيين الذين كانت لهم يد في الاعمال الحربية الأخيرة وذلك من الناحيتين العسكرية أو الرسمية

٢١ — تشرف على تنفيذ شروط هذا الاتفاق لجنة رقابة واشراف يكون مقرها بيروت وتكون مؤلفة من خمسة أعضاء

وتعين السلطات البريطانية ثلاثة أعضاء منهم الرئيس وتعين السلطات الفرنسية العضوين الآخرين

ومن حق لجنة الاشراف والرقابة أن تعين لجاناً فرعية وان تضم اليها الخبراء الذين ترى ضمهم اليها ضروريا

٢٢ — كتبت هذه المعاهدة باللغتين الانجليزية والفرنسية وفي حالة وقوع خلاف يكون النص الانجليزي هو المرجع الرسمي

امضاء	امضاء
ميتلند ولسون	الجنرال دي فرديلاك
القائد العام لقوات الحلفاء	نائب القائد العام
في فلسطين وسورية « بالنيابة عن	للقوات الفرنسية في سورية « بالنيابة
القائد العام في الشرق الاوسط »	عن القيادة الفرنسية العليا »

عكا في ١٤ تموز ١٩٤١

مخطوطات ومطبوعات

كتاب الأوائل

وقعت على كتاب مخطوط يسمي « الفواتح المسكية في الفواتح المكية » تأليف العالم الرباني عبد الرحمن البسطامي في خزانة كتب السيد حسن صدقي الدجاني ببيت المقدس وقد جاء في الباب الثامن والعشرين من هذا الكتاب أنه ألفه للسلطان مراد خان فاهداهُ له وقال :

أضحى مليكاً لأهل الأرض كلهم   كأنما حبه ألقي على الماء

جوهرة آل عثمان . فخر امة اورخان . عزة بلد مراد خان درة زين بايزيد خان [1] فانه عنوان مآثر الصلات وديوان مفاخر التفضلات وقد خدمت بهذه العبارة الفائقة والاشارة الرائقة خزانة كتبه الحاوية لا زالت لضروب السجلات طاوية الخ »

ومما جاء في طيات هذا الكتاب ما ننقله قال

الأوائل

أول ما خلق الله القلم وقيل اللوح قاله ابن عباس وقيل الدواة .

〃 〃 〃 تعالى العقل

〃 ما اظهر الله من خلقه النطفة قاله علي بن ابي طالب

〃 ما خلق الله النور والظلمة قاله محمد بن اسحق

〃 من نزل البصرة من الصحابة عتبة بن غزوان المازني وهو الذي اختطها

〃 〃 وضع ركاب الفرس من حديد المهلب بن ابي صفرة .

(١) عثمان واور خان ومراد خان وبايزيد خان من ملوك آل عثمان

اول من اخرج علم الخلاف في الدنيا ابو زيد الدبوسي الحنفي
〃 〃 دون علم المنطق ارسطو
〃 〃 〃 〃 الموسيقى فيثاغورس الحكيم
〃 〃 اظهر الطب اسقلتيوس خادم هرمس
〃 〃 صنف في علم التوحيد الامام الاعظم ابو حنيفة وهو ايضاً اول من استنبط علم الرأي والقياس
اول من بدأ بعلم أصول الفقه الامام الشافعي
〃 〃 شرح الفقه الاكبر لأبي حنيفة ابو مطيع البجلي
〃 〃 〃 الشاطبية ابو الحسن السخاوي
〃 〃 دفن معه كتابه سيبويه حتى اخرجوا الكتاب من قبره
〃 〃 تكلم في الناسخ والمنسوخ الشافعي
〃 〃 صنف اربعين حديثاً عبد الله بن المبارك
〃 〃 قعد على كرسي من الوعاظ يحيى بن معاذ الرازي سنة ٢٥٨
〃 〃 وعظ الحسن البصري وهو ايضاً اول من تكلم في حقائق الفرع واول مشايخ الصوفية
اول بدعة حدثت في الاسلام النخل
〃 〃 〃 بعد رسول الله صلى الله عليه وسلم التشيع
〃 من حدث بالمغازي الشعبي
〃 〃 صلى الفجر بوضوء العشاء اربعين سنة من الائمة الاربعة ابو حنيفة رحمه الله
〃 〃 ولي القضاء بالكوفة لعمر بن الخطاب شريح بن الحرث
〃 〃 مات من الصحابة بالكوفة خباب بن الارت
〃 〃 من أسلم من الرجال ابو بكر ومن الصبيان علي ومن النساء خديجة ومن العبيد بلال ومن الروم صهيب

أول مولود ولد في الاسلام بأرض الحبشة عبد الله بن جعفر

م من تجبر في الأرض نمرود ابراهيم ٠ الى آخر ما هنالك من الأوائل ٠

والمؤلف عبد الرحمن البسطامي الحنفي الحروفي ولد في انطاكية بالشام وطلب العلم في القاهرة بمصر وسكن بروسة بالروم وتوفي فيها سنة ٨٥٨ هـ ١٤٥٤ م وله كتب عديدة منها كتاب الدرر في الحوادث والسير في التاريخ ذكر الوفيات فيه على ترتيب الأعوام وقدمه ايضاً للسلطان مراد الثاني ومنه نسخة في مكتبة ليدن بهولاندة وتراجم العلماء في مكتبة غوطا بألمانية ومناهج التوسل في مباهج الترسل وهو مجموع لطائف ادبية ومنه نسخة بالمكتبة المصرية في القاهرة

أما كتاب الأوائل الذي نحن بصدده فمنه نسخ في ڤينا بالنمسة وليبسك بألمانية ومكتبة الاسكوريال بمجريط « اسبانية » وليدن من بلاد هولاندة

عبد الله مخلص

كتاب الشعراء لأبي نعيم الاصبهاني

مجموع ١٢٤ (٣)

اسم الكتاب والمؤلف :

و : ١' : الجزء فيه منتخب من كتاب الشعراء. تأليف ابي نعيم احمد بن عبد الله ابن احمد بن اسحق الاصبهاني (٣٣٦ — ٤٣٠) ٠٠٠

ذكر بروكلمان في تاريخه ٣٦٢/١ وذيله ٦١٧/١ من ترجموا لابي نعيم واغفل الاعلام ٤٧/١ ورجال ميرزا محمد ص ٣٧ ومنتهى المقال ٣٦ وتنقيح المقال ٣٨٦/١ ٠ ولم يذكر كتاب الشعراء هذا احد من ترجموا لمؤلفه ولعله من مؤلفاته الصغيرة

موضوع الكتاب ونصوص منه :

هو منتخب وردت فيه أخبار عن الشعراء الاسلاميين خاصة وبعض شعراء

العصر العباسي وعرضت فيه بعض الاحاديث النبوية عن الشعر والشعراء وغير ذلك مما ليس له علاقة بموضوع الكتاب الاصلي . والكتاب على طريقة المحدثين يذكر السند أولاً والخبر ثانياً ؛ وقد أشير على هامش النسخة حيناً ان بعض أحاديثه متروكة وهاك على سبيل المثال بضعة أخبار مما ورد فيه .

و ٢: حدثنا سليمان بن احمد وابو احمد محمد بن احمد قالا : حدثنا ابو خليفة عن محمد بن سلام الجمحي قال : ابو ليلى نابغة بني جعدة وهو قيس بن عبدالله ابن عدس بن ربيعة بن جعدة بن كعب بن ربيعة بن عامر بن صعصعة [1]

حدثنا ابو بكر احمد بن محمد بن يحيى التيمي حدثنا احمد بن عمرو الزيبقي [2] حدثنا زكريا بن يحيى المنقري حدثنا الاصمعي ، حدثنا هاني بن عبيد الله عن أبيه عن عبد الله بن صفوان قال عاش النابغة مائة وعشرين سنة [3] وسمع النبي صلى الله عليه وسلم شعره فاستحسنه ثم مات باصبهان ودفن بها .

حدثنا أبو بكر الطلحي ، حدثنا احمد بن حماد بن سفيان حدثني يزيد بن سفيان ابو خالد البصري بمصر ، حدثنا خلاد بن يزيد الباهلي : ان نابغة بني جعدة سمع كلام انسان وهو شيخ كبير فقال : ادعوا لي هذا فدعوه فقال : أنت فلان قال لا : أنا ابنه قال : ما فعل فلان ، قال : مات ، فسأله عن غير واحد فقال : مات فأطرق ساعة ثم قال

المرء يهوى أن يعيش وطولُ عيشٍ ما يضره

(١) جاء هذا النسب موافقاً لما ذكر الآمدي في المؤتلف والمختلف بتصحيح كرنكو ص ١٩١ وفي معجم الشعراء للمرزباني تصحيح كرنكو ص ٣٢١ ومخالفاً لما ذكر صاحب الأغاني ٤/١٢٧ الذي قال: «الصحيح حسان بن قيس بن عبدالله بن وحوح بن عدس وقيل ابن عمرو بن عدس مكان وحوح الخ». وذكر الزركلي في الأعلام ١/٢١٩ اختلاف المؤلفين في اسم النابغة الجعدي .

(٢) وردت كلمة الزيبقي مهملة وترجم السمعاني ٢٩٣ ' أي ٢٩٣' لابن الحسين احمد بن عمرو بن احمد الزيبقي فيكون ضبطها كما ذكرنا .

(٣) ذكر صاحب الاغاني ٤/١٢٩ انه عمر مائة وثمانين سنة .

تتابع الأيام حتى ما يرى شيئاً يسره
تفنى بشاشته ويبقى بعد حلو العيش مره(١)

ثم دخل بيته فلم يخرج حتى مات

و : ٤ : حدثنا محمد بن علي بن حبيش ، حدثنا عبد الله بن سليمان بن الاشعث ، حدثنا حمزة بن نُصير العسال المصري ، حدثنا سعيد بن كثير بن عُفير حدثنا يعقوب ابن محمد الزهري عن موسى بن عقبة قال : قدمت الرصافة فرأيت شيخاً فقال لي : ممن أنت ؟ فقلت مولى الزبير ، فقال لي : أيقول الفتى الظريف مثلك مولى ؟ الا قلت : من آل الزبير ، قال : قلت فمن أنت ؟ قال : أنا جرير بن الخطفى قال : قلت : اني ارى سمتاً وهيبة وانه يبلغنا اقذاع من قول فقال : انه ينزل بي الثلاثون والاربعون من قومي يريدون القرى والهجاء فأضيّم قومي(٢) ؟ قال فقلت : ايهما أشعر كثير عزة أوعدي بن الرقاع ، فقال : والله لبيت قاله كثير أشعر من جميع ما قالت عامله قلت : وما هو ، قال :

أئن حنّ اجمال وفارق جيرة وصاح غراب البين أنت حزين

فصول الكتاب :

المبدأ و ١ : ... أخبرنا الشيخ ابو بكر محمد بن اسماعيل بن أبي نصر يعرف بدانكفاذ بقراءتي عليه في شوال سنة خمس وسبعين واربعمائة ، أخبرنا أبو علي الحسن ابن احمد بن الحسن الحداد قراءة عليه وأنا حاضر في شوال من سنة أربع واربعمائة قال احمد بن عبد الله [أبو نعيم الاصفهاني] ... عن اسحاق بن سويد حدثني من سمع حسان بن ثابت يقول

(١) ورد البيتان : الأول والأخير في ديوان ابي العتاهية (عوض يهوى : يأمل وعوض ما : قد) طبعة اليسوعيين ١٨٨٦ ، ص ١٢٠ أما البيت الثاني فقد ورد بعدهما كما يلي :

وتخونه الأيام حتى لا يرى شيئاً يسره

(٢) لعلها : فاطيع قومي

من مرّه الموت صرفًا لا مزاج له فليأت مأدبة في دار عثمان [1]

و ١[٢] خبر آخر لحسان عن الغضب لمقتل عثمان ، قصيدة لكعب بن مالك السلمي في يوم بدر .

و ٢[١] عن لبيد و ٢[٢] : عن النابغة الجعدي ، حديث من كنت مولاه فعلي مولاه عن أبي ذؤيب الهذلي و ٣[١]—٤[١] : عن الفرزدق و ٤[١] عن رؤبة بن العجاج .

و ٤[٢] : عن جرير ، عن الاحنف بن قيس ، و ٥[١] : حديث عن أول من تكلم العربية ، عن أول سورة نزلت من القرآن ، شعر لابي طالب و ٥[١] ؛ ابو نواس وابو العتاهية و ٥[٢] : حديث عن وفاة رسول الله ص ، حديث : مولى القوم منهم

و ٦[١] : اشعار تنشد في مجلس الرسول ص و ٦[١] نهي الرسول ص من هجاء الناس ، حديث من خطا سبع خطوات الى شعر كتب من الغاوين و ٦[٢] حديث : امرؤ القيس يقود الشعراء الى النار ، حديث : الشعر كلام حسنه كحسن الكلام وقبيحه كقبيح الكلام ، ترخيص الرسول من شعر الجاهلية قصيدة أمية بن ابي الصلت في أهل بدر وقصيدة الاعشى في عامر وعلقمة ، شعر لابليس في قابيل وهابيل

النهاية و : ٦[٢] كان أبو بكر شاعراً وكان عمر شاعراً وكان علي أشعر الثلاثة .

وصف النسخة:

النسخة في حال حسنة ويظهر انها كاملة لا كلمة في الكتاب تذكر نهايتها على أن طريقة حبكها تظهر انها تامة . ورقها اسمر جيد عدته ٦ ورقات ابعاده ٢١×١٣ سم مع هامش قدره سنتيمتر واحد الورقة تحوي ما يقارب ٢٨ سطراً ؛ خط النسخة معتنى به معجم في بعض حروفه المعجمة ، متوسط الحرف ، مقروء ، يبتدأ الخبر في النسخة بقوله حدثنا ُمدّ فيه حرف الحاء على ان الاخبار تتابع دون فاصلة او تغيير سطر .

(١) لم يرد هذا البيت في ديوان حسان طبعة هارتويغ هير شفلد سنة ١٩١٠ في مجموعة جب

تاريخ النسخة :

و ١' : سماع لعبد الغني بن عبد الواحد بن علي المقدسي (٥٤١—٦٠٠)

و ١' : وقف الحافظ عبد الغني ، بالضيائية مقره [ومنها انتقل الى العمرية فالظاهرية]

ومن مقابلة خط هذه النسخة بخط عبد الغني المقدسي في مجموع ٣٠ (٦) ومجموع ٥٥ (٣) ظهر انها من خطه . ذكر هذه النسخة بروكلمان نقلاً عن الزيات ولم يذكر غيرها فيما اطلع عليه

يوسف العش

الامتاع والمؤانسة

ابو حيان التوحيدي (علي بن محمد) من فلاسفة القرن الخامس ومن أجل علمائه وأدبائه ، وهو ثاني الجاحظ ببلاغته واتساع مادته في العلوم ، وكان يتوخى بأسلوب كتابته البسيط والابانة ويصدر عن حرية وتوسع . وقد ألف كتباً كثيرة أورد الصفدي جريدتها في « الوافي بالوفيات » ومنها كتب في فتوح البلدان ، وأكثر كتبه على ما يظهر مما أحرقه في حياته ، لما عرته السوداء بما ناله من الحرمان والشقاء

ولم يطبع له الى الآن سوى كتاب « المقابسات » وكتاب « الصداقة والصديق » وكتاب « ثمرات العلوم » . وآخر ما طبع له كتاب « الامتاع والمؤانسة » طبعته لجنة التأليف والترجمة والنشر في القاهرة وتولى الاستاذان احمد أمين بك واحمد الزين تصحيحه والتعليق عليه ، فجاء الجزء الأول في ٢٣٦ ص عدا الفهارس والمقدمة . وبقي من الكتاب جزآن آخران تحت الطبع والنظر .

دوّن المؤلف في الامتاع والمؤانسة ما دار بينه وبين ابن سعدان الوزير ، ورجح

أحد الناشرين احمد امين انه هو ابو عبد الله العارض ، أو ابو عبد الله بن الحسين ابن احمد بن سعدان وزير صمصام الدولة البويهي ، لا كما ادعى القفطي في «تراجم الحكماء» من انه كتبه لأستاذه أبي سليمان المنطقي (محمد بن طاهر السجستاني) . فان المؤلف صرح بذلك في مقدمة كتابه هذا ، وقال ان الذي حثه على تدوين ما دوّن صديقه أبو الوفاء المهندس (محمد بن محمد بن يحيى البوزجاني) احد ندماء ابن سعدان وهو الذي قدمه له وعرفه اليه . اراده أن يكتب له ما كان يدور في مجلس الوزير في ليالي السمر ، وهي سبع وثلاثون ليلة حمل الجزء الأول منها ست عشرة ليلة .

وفي هذه الاسمار كلام مفيد جداً في تحليل شخصيات علماء ذاك العصر في بغداد ، وعَرْضٌ جيد لفلاسفتهم وأدبائهم ، ولمواطن الضعف في نفوسهم ، ومثارات النقد من حياتهم ، على أسلوب ما عُهد لكاتب يكتب في الجد أن يدون مثله . وفي الكتاب فوائد في اللغة والشعر والكتابة والتفسير والحديث والاخلاق والفكاهة والتاريخ والحيوان الى غير ذلك مما كشف المؤلف الحجاب فيه عن أشياء كانت غير معروفة من حالة ذاك العصر . وفي هذا الجزء مناظرة ابي سعيد السيرافي مع أبي بشر متىّ بن يونس (او يونان) في النحو العربي والمنطق اليوناني ، وهي التي نقلها ياقوت في معجم الادباء برمتها ، وفيه مبحث في خصائص الشعوب المعروفة لعهده ، ورد على الشعوبية أعداء العرب وتفضيل العرب عليهم ، وفيه وصف الكتابة والمبرزين فيها في عصره ، وكلام على ابن العميد والصاحب بن عباد ، وكان ابو حيان كتب فيهما كتاباً ثلبهما فيه سماه مثالب الوزيرين

وروح التوحيدي ، كمعظم ما انتهى الينا من كلامه ، منقبضة عابسة خلافاً لروح الجاحظ المرحة الضاحكة ، ولا يحمل ذلك الا على مزاج خاص في كل منهما ، وعصر الجاحظ ينطق الابكم ، وعصر التوحيدي يكم الافواه . وتبين بما عرف من أقوال التوحيدي انه بهذه الحرية التي أطلقها لنفسه في نقد الرجال دعا الى اغفال أرباب

السير وكتاب التراجم ذكره في كتبهم ، فلم يسلكوه في سلك المتصوفة ، ولا في سمط الفلاسفة ، ولا عدوه في المتكلمين ولا المتأدبين ولا المتألهين العابدين ، لأنه آلم جمهرة أرباب المظاهر العلمية بما ترجم لهم به ولم يتخطّ نقده غير أفراد من أساتذته ومن رضي عنهم من أصحابه

ومن نقده للرجال ما قاله في مجلسين في التعريف بأبي علي احمد بن محمد مِسكوَيه صاحب « تهذيب الاخلاق » و « الفوز الاصغر » و « تجارب الأمم » : « وأما مسكويه ففقير بين أغنياء ، وعَيي بين ابيناء ، لأنه شادٍ ، وأنا أعطيته في هذه الأيام (صنو الشرح لإيساغوجي) وقاطيغورياس من تصنيف صديقنا بالرّي . قال : ومن هو ؟ قلت : ابو القاسم الكاتب غلام أبي الحسن العامري ، وصححه معي ، وهو الآن لائذ بابن الخمار ، وربما شاهد أبا سليمان وليس له فراغ ، ولكنه مخبتٌ في هذا الوقت للحسرة التي لحقته فيما فاته من قبل . فقال : يا عجبًا لرجل صحب ابن العميد أبا الفضل ، ورأى من كان عنده ، وهذا حظه ! قلت : قد كان هذا ، ولكنه كان مشغولاً بطلب الكيمياء مع ابي الطيب الكيميائي الرازي ، مملوك الهمة في طلبته ، والحرص على اصابته ، مفتوناً بكتب أبي زكرياء وجابر بن حيان ، ومع هذا كان اليه خدمة صاحبه في خزانة كتبه ، هذا مع تقطيع الوقت في حاجاته الضرورية والشهوية ، والعمر قصير ، والساعات طائرة ، والحركات دائمة ، والفرصُ بروق تأتلق ، والأوطار في عرضها تجتمع وتفترق ، والنفوس على فوائتها تذوب وتحترق . ولقد قطن العامريُّ الرّيَّ خمس سنين جمعةً ، ودرّس وأملى وصنف وروى ، فما أخذ مسكويه عنه كلمة واحدة ، ولا وعى مسألة ، حتى كأنه كان بينه وبينه سدّ ، ولقد تجرع على هذا التواني الصابَ والعلقم ، ومضغ لقمة حنظل الندامة في نفسه ، وسمع بأذنه قوارع الملامة من أصدقائه ، حين لم ينفع ذلك كله . وبعدُ فهو ذكيٌّ حسن الشعر نقي اللفظ ، وان بقي فعساه يتوسط هذا الحديث (كذا) وما أرى ذلك مع كلفه بالكيمياء ، وانفاق زمانه وكدّ بدنه وقلبه في خدمة السلطان ، واحتراقه في

البخل بالدانق والقيراط والكسرة والخرقة . نعوذ بالله من مدح الجود باللسان ، وايثار الشح بالفعل ، وتمجيد الكرم بالقول ومفارقته بالعمل . وهذا هو الشقاء المصبوب على هامة من بلي به ، والبلاء المعصوب بناصية من غلب عليه . »

وقال في وصفه أيضاً في مكان آخر (ص ١٣٦) : « واما مسكويه فلطيف اللفظ ، رطب الأطراف ، رقيق الحواشي ، سهل المأخذ ، قليل السكب ، بطيء السبك ، مشهور المعاني ، كثير التواني ، شديد التوقي ، ضعيف الترقي ، يَرِد اكثر مما يصدُر ، ويتطاول جهده ثم يقصر ، ويطير بعيداً ويقع قريباً ، ويسقي من قبل ان يغرس ، ويمتح من قبل ان يُميه ، وله بعد ذلك مآخذ كشدوٍ من الفلسفة ، وتأت في الخدمة ، وقيام برسوم الندامة ، وسنة في البخل ، وغرائب من الكذب ، وهو حائل العقل لشغفه بالكيمياء . » اه

وفي هذا الكلام تحامل علي المترجم به ، فان من ترجموا له اجمعوا على انه في طبقة أعلى من الطبقة التي حاول ابو حيان ان يضعه فيها . ولذلك اتهم التوحيدي بدينه ، ونسبت اليه أمور ما خطرت له ببال ، حتى عزا اليه ابن ابي الحديد شارح نهج البلاغة رسالة او مناظرة ابي بكر الصديق مع علي بن ابي طالب (رضي الله عنهما) في الخلافة وادعى ان التوحيدي وضعها ، مع ان الرجل قال في كتابه البصائر والذخائر وفي غيره انه نقلها عمن رواها وهو شيخه ابو حامد احمد بن بشر المرورزي ، أملاها على جماعة من حفظه وكتبها هو وبعض الحضور في المجلس ، ولا موجب لأن يبرأ التوحيدي من عهدتها اذا صح انه هو كاتبها ، فقد روى في كتبه أعظم منها وما خاف ولا جمجم ، ومن أنعم النظر في أسلوب هذه المناظرة وأسلوب التوحيدي فربما يحكم بأنها أرقى من طبقته في الكتابة (راجع ما كتبناه في تحليل حياة أبي حيان التوحيدي وكتابته وتآليفه في الجزء الثاني من كتابنا « أمراء البيان » ص ٤٨٨ - ٥٤٥)

...

بذل الناشران الفاضلان الجهد في تصحيح كتاب الامتاع والمؤانسة وفي التعليق عليه، وأخرجاه من نسخة وحيدة مخطوطة، والناسخ أعجمي جميل الخط لا يعرف ما كان ينسخ. ويؤخذ على الناشرين اغفال التنبيه على جمل غير مفهومة من النصوص ابقياها كما هي بدون أن يشيرا اليها، واعتذرا بأنهما في اكثر الاحيان ينبهان على أنه تحريف وان صوابه ما أثبتاه. وعندنا ان هذه الطريقة ليست عملية اذ ليس كل القراء على بصيرة من فهم كلام البلغاء ولا جمهورهم ممن يفهم في الحال المحرف ونقيضه.

وكنا نود لو وقع الفصل الذي كتبه ابو حيان في الحيوان على ما كان معروفاً في عصره تحت نظر أحد علماء الحيوان في هذا العصر ليعلق عليه ما يزيد في امتاعه، وقد استغرق ٣٨ صفحة من كتاب الامتاع. والواجب أن يلقي النظر على مثل هذا الكتاب المنوّع البحوث والموضوعات عدة أخصائيين، فمن يبرز في الأدب مثلاً، قد لا يكون له حظ من التاريخ، ومن يشدو شيئاً من الفلسفة والتصوف لا يحسن الحيوان والنبات والطبيعة والفلك والموسيقى. وما دام المقصود احياء أدبنا القديم على الوجه الصحيح، ليحسن الانتفاع به، فلا غضاضة علينا اذا تعاون أرباب البصائر مثل هذه المخطوطات بالتدقيق على عدة صور، على نحو ما كانت تجري دار الكتب المصرية في عرض تجارب الاغاني على مختلف الطبقات من العلماء ليصححوها ويقروا الرواية السليمة.

وقد تفضل أحد الناشرين فأطلعني على ملازم كتاب الامتاع بعد طبعها، فاهتديت الى نحو مئة غلطة أقراني على ثلاث وأربعين منها وتفضلا ونشراها في آخر الجزء الاول وتركا لي حريتي في البقية أنشرها في أي مجلة اوجريدة شئت، لأنهما رأيا أن نشرها كلها معناه انهما موافقان على مافيها. والى القارىء الكريم بعض ما ورد في الكتاب من الاغلاط التي لم يقرني الناشران عليها:

ص ١١ حسن النعمة — مس النعمة ١٦٠ تخنث وتليث — تخنث وتديث ١٨٠

راشه (جعل له ريشاً) والاولى تفسيرها (اصلح حاله) كما في كتب اللغة ١٩ ٠٠٠ مع عفو لفظك — اجر أو مر مع عفو لفظك ٢٠ أبالي البلاء — أأبلي البلاء ٠ وفيها : فقلت قبلُ ٠٠ تصحح هكذا : فقلت قبلُ : كل شيء اريد ان اجاب اليه ليكون ٢٣ قال هذا باب مفترق فيه ورجعنا الى الحديث فانه شهي سيما — ورجعنا الى الحديث ، قال وهذا باب مفترق فيه فانه شهي سيما ٠٠ وفيها : حروف متقاومة — متقاربة أو متساوقة ٠ ٢٤ المعانقة العجيبة — المعانق ٢٩ والثناء الطيب اشاعه الله — بحذف الألف من أشاعه وفي الأساس : شاعكم الله تعالى السلام وشاعكم السلام ٣١ عاش — ارتاش ٣٣ وحسن استنباط للعويص — نظنها وسوء استنباط لان المقام مقام تعديد مساويه لا تعداد حسناته ٣٥ ولكنه محسٌ — مخبت ٠ ومنها في طلبه والحرص — في طلبته ٣٦ حتى كأنه بينه — حتى كأنه كان بينه ٠ ومنها ومضع بفمه — ومضغ لقمة ٣٨ القوهي — الكوهي ٤٤ كان الماضي — كان في الماضي ٥٠ نشطني وبشرني — بسطني وسرّني — ٠ ومنها : واذاقني حلاوة هذه المزية — هذه المرتبة ، ٥١ في الدلة الدائمة والحال المربوطة ٠ وخرّجا المربوطة بقولهما لعله يريد بالمربوطة في هذا الموضع ، الواقفة عند حد من الفاقة لا تنتقل عنه (كذا) والأولى ان يقال الحال المسخوطة ٠ ومنها : ووفاءٌ بما له في عنقي من مننه — من يمنن ٠ ٥٣ مغلوب مالديه — مغلوب على مالدية ٥٥ حسود حقود حديد — ليس في طبقات الأدباء « حديد » والأولى حذفها ٥٦ وكن الثالث من الهمج المنشدين — لا معنى لهمج والأولى حذفها وفي طبقات الادباء : وكن الثالث من المنشدين ٥٧ لا تحملني نُهزة الشامت — لا تجعلني هزأة الشامت ٥٨ وابن ثوابة في الفقه — في التقفية ، لأن ابن ثوابة أديب كاتب وليس من الفقهاء ، يؤيد ذلك أنه ذكر في الصفحة ذاتها مع ابن عبدكان وابراهيم بن العباس الصولي وفي ص ١٠٣ ورد ذكره مع ابن وهب وآل وهب وكل هؤلاء لم يعرفوا بغير الادب والبيان وجاء ذكره في ص ٦٦ عند حكمه على أبي الفضل بن العميد في الكتابة ٥٩ يتقابل ويتمايل

— يتفكك ويتمايل ٦٠ ولكن الغنى رب غفور — في ديوان عروة بن الورد — ولكن للغنى رب غفور ، ٦١ غلط في السجع — غلط في السجع ٦٤ والثاني العادة وهي المؤاتية — ترفع « وهي » الى السطر السالف فانها سقطت منه وتجعل محلها في « وخاذلته لا ناصرته » فتكون هكذا : وهي خاذلته لا ناصرته ، ٦٥ وليس في الدنيا محسوب — مخلوق . ومنها : الحلاوة المذوقة بالطبع — ترجح المدوفة وفي حديث ام سليم قال لها وقد جمعت عرقه ما تصنعين ? قالت عرقك أدوف به طيبي أي اخلطيقال دفت الدواء أدوفه اذا بللته بماء وخلطته فهو مدوف (عن النهاية لابن الاثير) ٧١ دار ابن برثن — في العقد الفريد دار نيروز ٧٢ فوضموا لذلك الأنواء — فوصفوا ٣٧ وخطوة ، متباين — تحذف متباين فيستقيم المعنى ٧٤ وتلك لا تخص بل تلمّ — بل تعمّ ٧٦ وكأن عمائمهم فوق الرجال ألوية — فوق الرحال ، ٨٠ وطعم ما لحق — وطعم ما لوّق . وفي حديث عبادة بن الصامت : ولا آكل الا ما لوّق لي أي لا آكل الا ما لين لي واصله من اللوقة وهي الزبدة وقيد الزبد بالرطب (النهاية) ومنها : فهدلت الثمار — فتهدلت ٨١ ونضرت خلافتهم — ونصرت ، ٨٢ يضاف الى آخر السطر السادس قوله في السطر بعده : عزّ المهمّا الخ الى قوله مقصوداً ويكون اول الكلام في السطر السابع : وبعد ، فالذي . ومنها : ويستبدّون في مصالحهم — ويستعدون على مصالحهم ٨٧ وطعم العشب — الجشب ، وهو الطعام الغليظ او الذي بلا إدام . ومنها المعمومة بالفضل — المعكومة ، والمعكوم المشدود ٨٩ إقليدس — أقليدس . في القاموس أوقليدس بالضم وزيادة واو اسم رجل وضع كتاباً في هذا العلم المعروف وقول ابن عباد إقليدس اسم كتاب غلط . وبالافرنجية Euclide

ومثله في صفحة ١١٦ إلا أحكام اللغة — الا إحكام اللغة ٩٣ وقبل منه الفرس — وقبله منه الفرس ٩٥ والمسفّ حاضر العين — العيب ١٠٠ لجعفر بن يحيى فان كتابته كانت سوادية — ترجح ان تكون ساسانية بدليل ما جاء بعدها وبلاغته سحبانية وسياسته يونانية وآدابه عربية ولا معنى لسوادية هنا ١٠٥ معرفة باقية — معرفة ثاقبة .

١٠٦ وهائلا وعاملا — وهائلاً وغائلاً ، ١١٥ صفها وبنائها — وضعها وبنائها ، ١٣٣ الدين الثخين — الدين المتين ، ١٣٩ ويشمُ فيهزُ — ويشتم ١٥٩ يضبط ويحتد — ويحدُ ١٦٨ يترحل النهار — يترجل النهار وفي الاساس : وترجلت الشمس ارتفعت ، وترجل النهار ٢٠٨ رسم او قوام — من رسم أو قوام اه

وهنا لابد من تسجيل رأينا في احياء المخطوطات القديمة . فانا نرى ان تعرض كما قلنا على عدة اخصائيين خصوصاً اذا كان الأصل مبدلاً محرفاً فقد رأينا كتاب الامتاع والمؤانسة وقع اولاً الى أبدي ثلاثة من أساتذة دمشق وهم خليل مردم بك ورشدي الحكيم والدكتور حسني سبح فأصلحوا ما أمكن اصلاحه من اغلاط الناسخ وهي كثيرة جداً فنقلت الصورة الأصلية الى مصر مصححة في الجملة فعاد الاستاذان احمد امين واحمد الزين فصححا ما أمكنهما تصحيحه وطبعاه معلقين عليه تعليقات قيمة . ودوّن كاتب هذه التعليقة ما عن له من تصحيح بعض الهفوات فوافقني صديقاي الناشران على عشرات منها . وهكذا الشأن في كل كتاب للاسلاف نريد احياءه وليس لنا الا نسخة واحدة منه لابد ان يتعاور النظر فيه عدة باحثين وناقدين فيهتدي كل واحد الى ناحية قد لا يهتدي اليها صاحبه وليس في ذلك غضاضة على الناشر الأول . وعندي ان كتاب الامتاع والمؤانسة لو وقع الآن هذا الجزء المطبوع منه تحت نظر ناقد آخر او عدة نقاد لرأوا فيه مالم يره الدمشقيون والقاهريون . وقد استحقت لجنة التأليف باحيائها الامتاع والمؤانسة الثناء العطر لأن انشاءه نمط عال من الأدب كان يجهله المتأدبون والرجاء ان تسارع الى اخراج الجزأين الباقيين تبلُّ بهما شوق عشاق الأدب العربي القديم .

محمد كرد علي

معرض الآراء الحديثة

هذا هو العدد التاسع من «عيون الأدب الغربي» التي عنيت بترجمتها لجنة التأليف والترجمة والنشر ، ألفه «ج . لويس د كنسن» وعربه الاستاذ محمد رفعة في ١١٥ صفحة .

قارئ الكتاب يحضر جلسة من جلسات «منتدى الباحثين» بلندن الجمعية التي كان من أغراضها أن تجمع بين اكثر العناصر تباينًا وتعقد جلساتها في دور أعضائها بالتناوب ، في لندن شتاء وفي منازل بعض الأعضاء الريفية صيفًا .

أما الأعضاء الذين سجل المؤلف كلامهم في جلستنا هذه فهم : «رمنهام» كبير وزراء الدولة حينئذ من حزب الأحرار ، وخصمه اللدود «مندوزا» من المحافظين ، و «كانتلوب» الذي اعتزل الحياة العامة حديثًا وهو محافظ قديم ، و «أليسون» الاشتراكي النشيط ، و «ما كارثي» الفوضوي المشهور ، و (ولسن) العالم بالاحياء ، و «مارتن» الأستاذ ، و «كوريات» الشاعر ، و (أودين) من رجال الاعمال و «هور تجنن» من الأعيان ، و «ودمان» عضو جماعة الاصحاب ، و «ڤيڤيان» الأديب .

يجتمع هؤلاء السادة كل أسبوعين مرة فيقرأ احدهم رسالة ثم يتناقش فيها سائر الأعضاء . والكلام في جلستنا هذه التي امتدت من بعد العشاء حتى طلوع الشمس لكانتلوب المحافظ القديم ، وقد نسي هذا رسالته المكتوبة ورفض أن يرتجل شيئًا في موضوعها ففرض عليه رب الدار كفارة : «ان يقدم اعترافًا شخصيًا يفسر به اشتغاله بالسياسة ، ولمَ كان — ومازال — محافظًا من الطراز القديم ؟ ولم اقدم على اعتزال الحياة العامة وهو في مستهل حياته ؟ وقصارى القول ان عليه ان يفضي إلينا بوجهة نظره ، وهذا سيحفز رمنهام للكلام بعده ، فاذا تكلم استثار غيره من الأعضاء حتى يفضي كل منا في آخر الأمر بوجهة نظره وتكون السهرة ممتعة حقًا» (١) .

(١) ص ٣

وكذلك كان ، فقد أجرى المؤلف على ألسنة هؤلاء السادة المختلفي المذاهب والميول آراء شديدة التباين في نقائص المجتمع وطرق مداواتها ، كلٌ قد شخص الداء ووصف الدواء من وجهة نظره الخاصة . فالكتاب اذن محضر جلسة فيها « عرض مختصر لآراء جماعة من الناس يمثل كل واحد منهم طائفة خاصة ويشرح نظرته الى الحياة ويدافع عنها . وفي هذا العرض آراء كثيرة بعضها خطأ وبعضها صواب ، بعضها قائم على العقل والمنطق ، وبعضها مغالطات وبلاغة خطابية ، شأن كثير من الآراء التي يعرضها الناس في احاديثهم ويدافعون عنها بحماسة ، وليست هي في الغالب الا سفسطة وكلاماً منمقاً »[1]

كذلك قال المعرب الفاضل في مقدمته ، لكن القارئ يقع خلال هذا الجدل على حوار ممتع لذيذ فيه حق وفيه علم وفيه تفكير عميق وتجارب صادقة . وعلى القارئ ان يمعن في هذا الحوار للفائدة لا للتسلية . ولا يسعه الا الاعجاب الشديد لهذا الهدوء والنظام يسودان جلسة لا يجمع اثنين من أعضائها رأي واحد ، تصطرع فيها المذاهب وتتباين الآراء ويصرح كل بما لخصمه عنده ، ومع هذا فالجو مشبع بروح الألفة والاحترام . وهذا شيء لا تجده الا عند الانكليز : محافظ ، وحر ، واشتراكي ، وفوضوي ، ومالي ، وشاعر ، ومتدين ، وأديب : يتجاورون في المسائل التي هي مصادر خلافهم وفرقتهم . تسمع الخطيب فلا تشك ان خصمه سيثب عليه ليقطعه إرباً ؛ فاذا نزل ذاك وصعد هذا يرد عليه ، رأيت احترام الرأي وسمو التهذيب يسيطران على كلامه وسلوكه .

اكثر هؤلاء الخطباء تأثيراً فيّ هو المحافظ القديم (كنتلوب) لا لأنه حمل على الديمقراطية ونصر الارستقراطية الوراثية ، ولكني رأيت في انتقاده توسيد الوظائف الى المرتزقة حقاً كثيراً ، وحببني فيه انه صريح غاية الصراحة يمثل طبقته من الانجليز خير تمثيل . واذا استطعت ان تشك في انجليزية هذه الصور التي عرضها المؤلف

(١) ص ه

فلن يتطرق اليك شك في عراقة هـذا الرجل في انجليزيته وقد وقفت كثيراً عند قوله :

« أعتقد ان السعي وراء الثروة يقضي على جدارة الانسان لتولي الخدمة العامة ... وان محترفي التجارة يجب ان يبعدوا عن الوظائف العامة » (١) «اني أدين بمذهب حكومة السادة (gentleman) وأعني بهذه الكلمة مدلولها الانجليزي الممثل لروح العصر القديم ، وهو الرجل ذو الموارد الخاصة ، الناشئ منذ الطفولة في جو الحياة العامة المهيأ بطبيعة منبته للخدمة في الجيش او البحرية او الكنيسة او البرلمان . هذا النوع من الرجال هو الذي أسس عظمة روما ، وشيد مجد انجلترا في سالف الزمان ، واني لا أومن ان ستقوم قائمة لدولة عظيمة حكامها من التجار وارباب الحوانيت والصناع ؛ وليس ذلك راجعاً الى أنهم ليسوا جديرين بالتقدير ، بل لأن طرائق حياتهم ومعاشهم تقضي على جدارتهم لولاية الشؤون العامة . » (٢)

وهذا رأي قد رآه أيضاً احد الاعيان (انظر ص ٩٢) وهما من طينة واحدة وقد اعجبني تعريفه الانجليز الخلصاء فهو يراهم من نتاج الريف خاصة ويقول في صفتهم :

« يقفون ساعة كاملة لا يتحركون ، كصفحة الماء الراكد ، يتأملون حصاناً أو خنزيراً ؛ هذا الطراز من الرجال يظنهم المتحضرون بلهاء لأنهم لا يجيبون عن سؤال قبل ان تمر خمس دقائق ، ثم يجيبونك في الغالب بتوجيه سؤال آخر . الخ » (٣) وقد اسف هذا المحافظ القديم « كيف يهرع الناس الى المدن التماساً للحياة الاجتماعية في حين أني ما وجدت حياة اجتماعية حقة الا في الريف »

وتسمع على هذا الوتر نغماً آخر لعين انجليزي عاش طويلاً في ايطاليا ثم رجع الى بلاده فنظرها نظرة ناقدة ، ومن قوله : « يخيل الي ان الانجليز بنوع خاص قلما يبذلون محاولة جدية لمواجهة الحقيقة لأنهم .. الخ » (٤) .

والقارئ يشعر شعوراً قوياً برشاقة أسلوب المؤلف وقوة عارضته وشعوره العميق

(١) ص ٥ (٢) ص ٧ (٣) ص ١٨ (٤) ص ٨٦

بنواحي الحياة وإحساسه بالجمال وهي الصفات التي وصفه بها المعرب الفاضل ·

* * *

ليس بنقص اعجابنا بتعريب الاستاذ رفعة عن اعجابنا بالمؤلف ، فقد استطاع ان يسبغ على الكتاب حلة رشيقة من الاسلوب العربي السهل البليغ وقد لفتت نظري هذه الملاحظات اعرضها عليه :

١ — تقول العرب : « فعلته على رغمه » ولم اجد حذف الجار في كلام يعتمد عليه وقد جاءت (رغم) خالية من (على) في الصفحات : ١٦ ، ١٨ ، ٦٩ ، اخ ·

٢ — لم يرد استعمال (لما) للتعليل فيحسن أن يستبدل (اذ) بلما في قوله (ولما كانت · · · فاني) ص ٤٠ س ٩ وكذلك ص ٤١—١٦

٣ — إذا قلنا : « هذا واجبي » لم يفهم منه الا أنه واجب لي على غيري أما اذا كان الأمر على العكس فالصواب ان نقول : « هذا واجب علي » وعلى هذا ورد خطأ قوله : واجبي في الصفحات ٤٠ ، ٤٤ ، ٦٢ ، ٦٧ ، ٨٣ ، ٦٢ ، ١٠٠

٤ — الصواب في نحو قوله ص ٤٢ (تتعارض مع كل الحقائق) ان يقال « تتعارض هي وكل الحقائق » لأن الفاعل في أفعال المشاركة متعدد ولا يؤتى بـ(مع) قبل مجيء اسمين على الأقل ومثلها : اتفق معه · وقد ورد شبيه هذا الخطأ في الصفحات ٧١ ، ٨٧ ، ٨٩

٥ — وهب تتعدى لمفعولها الأصلي باللام تقول : « هب لي من لدنك وليًا » وتعديتها له مباشرة على خلاف الوارد · وعلى هذا يصلح ماورد في ص ٤٦ ، ٨٩ ، ١٠٢

٦ — قوله ص ٢٥ (يلبس على عينيه منظارين) يحتاج الى اعادة نظر المعرب وحذف الفعل او استبدال (يضع) به أولى.

٧ — أحصينا هذه الهنوات فأحببنا عرضها خدمة للكتاب :

ص	خطأ	صواب	ص	خطأ	صواب
٧	إحساننا المادي	إحساسنا المادي	١٥	أحمق من	أشد حمقًا من

ص	خطأ	صواب	ص	خطأ	صواب
٢٣	حدابي ٠٠٠ الى	حداني ٠٠٠ على	٥٣	بل و كل	بل كل
٤١	هذاوذاك الذين	هوهذاوذاك اللذان	٥٥	يتمشدق	يتشدق
	بنفس البساطة	بالبساطة نفسها	٦١	الغير المحدودة	غير المحدودة
٤٨	البعض الآخر	بعضها الآخر	٧٨	أحاجج	أحاجّ
	[وكذا في ص ١٠٦، ١٠٧		٨٣	ينصلح	يصلح
٤٩	شعوذة	شعبذة	٩٠	أأمرتكم	أمرتكم
٥٠	أثرتموها[مفصولة في سطرين]	أثرتموها	٩١	بل والامانة	وحتى الأمانة(اوبل الأمانة)
٥١	كافة الأشياء	الأشياء كافة	٩٣	تستقرئه	تستقريه
	[وكذا في ص٥٩، ٨٩، ٩٣ ولا تستعمل		١٠٥	مبرءاً	مبرأ
	الا حالاً منكرة متأخرة]		١٠٩	أبواه	مات أبواه

ولا يسعني الا شكر الاستاذ المعرب على جهده القيم وشكر لجنة التأليف والترجمة والنشر على ما تقوم به من جليل الاعمال في خدمة العلم والعرب ٠

سعيد الافغاني



الانسان ذلك المجهول

للدكتور كاريل ٠ طبع في صيدا سنة ١٩٤٠ صفحاته ١٨٩

اصل الكتاب لكاريل من كتاب فرنسا قال الاب بولس سويد انه اتبعه بنظرات ودروس فلم يتبين للقارئ ان كان الكتاب منقولاً عن الفرنسية او هو من آراء المترجم مزجها بكلام ذاك الفيلسوف ٠ ولا نكتم صاحب هذه النظرات والدروس ان الكتاب في جملته كلام لا محصل له ، والناظر في كتابه لأول وهلة يحكم بأنه

لم يوفق في اسلوب كتابته ، لأنها خلت من نصاعة الألفاظ ، وجمال التركيب والديباجة ، وفقدت فيها الرشاقة والسلاسة ، وحملت من الغموض والابهام شيئاً كثيراً فكان كلامه وكلام مقدم الكتاب أيضاً عبارة عن ألفاظ لا يدري القارئ مقصدهما من الجمل التي رصاها .

نحن لانعرف كيف يجرؤ من لم يرزق طبعاً شفافاً ولم يأخذ نفسه بدرس هذه اللغة اعواماً طويلة على التأليف والنشر فيها ، وبهذه الركاكات يحاول بعض سكان لبنان في العهد الاخير ان يوجدوا لهم لغة خاصة كما حاولوا ان يكون لهم كيان سياسي خاص .

ولو عاد هذا المدرس المؤلف العجيب يافعاً في بلد كمصر يدرس في إحدى مدارسها وعرض ما كتب في هذه الصفحات على استاذه في المدرسة الثانوية لما اخلاه في كل صفحة من ملاحظات لغوية وبيانية وتأليفية وربما رد له بعض الفصول وقال له انها غير مفهومة ومملوءة بفضول لا تدخل في صلب الكتاب ولا متنه . مثل تعريضه بمجمع اللغة العربية في مصر ونقله ما ذكرته احدى الصحف الهزلية في مداعبته فقال (ص ٨) : « وحسبك ان تذكر الارزيز (التلفون) والدويدات (المعكرونة) والشاطر والمشطور والكامخ بينهما يعني الصندويش وسواهـا . » وهذه الكلمات ما صدرت عن المجمع اللغوي قط وهذه مجلته في الايدي فليرجع اليها من شاء . ثم اي معنى لنقل ذلك في مقدمة كتاب في الجد الا اذا كان يقصد الحط من مصر ثم من العرب والمسلمين .

وقوله ص ١٨٢ ينعي على الشرق اهماله الكتّاب وانهم لا يعيشون فيه كما يعيش ابن الغرب : « يكتب الكاتب في الغرب فيشتهر وتقبل آلاف الخلائق على مطالعته واذا عشرات الآلاف من مؤلفاته تنشر بين ايدي الجماهير فتعود عليه بالرفاهية والرخاء في حياته المادية ... وانظر الا ترى ان العلم عندنا محتاج اليه كوسيلة لعمل او لمنصب ؟ واساتذة معاهدنا العلمية وهم المنقطعون الى الدرس

والبحث والتنقيب وبلوغ كمال الشخصية هل فيهم رجال الاختصاص الثقات ؟ انهم لاينصرفون الى الدرس بكل نفوسهم لما يعلمون من ان هذه المهنة لا تعد مركزاً ولا تؤمن حياة ، فهم يتخذونها مرحلة يقطعونها باحثين في هذه الفترات عن سبيل للرزق سواها ... »

هذا نموذج من الأفكار التي حملها كتاب مدرس البيان العربي في مدرسة كان مثل الشيخ ابراهيم اليازجي رحمه الله مدرس بيانها ومثل شاعر الاقطار العربية خليل مطران من طلبتها . ونصيحتي لهذا المؤلف الجديد المتفلسف ومن كان على شاكلته في البيان ان يصونوا أوقات الناس عن العبث بما ينشرون فالقوم اليوم لا يحتاجون الى من يبيع منهم هذه الافكار الصبيانية بهذا الاسلوب الركيك الذي كان يكتب به بعض سكان قرى الجبل منذ ثمانين سنة

محمد كرد علي



محمد رسول الله صلى الله عليه وسلم

تأليف الأستاذ محمد رضا

الطبعة الثانية ، راجعها المؤلف وأضاف إليها زيادات شتى
طبع بمطبعة عيسى البابي الحلبي وشركاه بمصر
سنة ١٣٥٨ هـ و سنة ١٩٣٩ م

تضمنت هذه السيرة وصف حياته الشريفة مفتتحة بمناقب أجداده ، فتاريخ ميلاده ، ثم نشأته بمكة ، وتزوجه بخديجة ، وتجديده للكعبة ، وبعثته على رأس الأربعين ، وإنشائه دار الدعوة لرد عدوان دار الندوة ، وأذى قومه له ولمن آمن به ، وهجرة من هاجر منهم الى الحبشة ، ثم هجرته ومن آمن معه الى المدينة ، وإرسال

كتبه ورسله الى الملوك والامراء وغيرهم بدعاية الاسلام ، ثم إيذانه من الله تعالى بقتال المعتدين ، وذكر غزواته وقد بلغت سبعاً وعشرين ، وبعوثه وسراياه وقد عدها ثمانياً وثلاثين ، وبين الحكمة في تعدد ازواجه أمهات المؤمنين ، ثم ذكر جملةً من أخلاقه وشمائله وتعاليمه ومعجزاته واعظمها القرآن العظيم ، وختم الكتاب بايراد طائفة من الأحاديث النبوية مرتبة على حروف الهجاء ، وجدول بتواريخ الحوادث المشهورة في السيرة النبوية ، وفهارسَ للأعلام من رجال ونساء ، وقبائل واماكن .

وهذا الوصف المجمل لحياته واعماله في مكة والمدينة لا يغني عن مراجعة الفهرس المفصل في الكتاب ، فقد ذكر حاله عليه السلام وحال اصحابه الكرام ، وأسباب اسلام كثير منهم ، وردّ كلام غلاة المستشرقين ومطاعنهم ، مشيراً الى كتبهم ومباحثهم ، وقد جاء الكتابُ — بفهارسه — جامعاً بالغاً ما يقربُ من ستمائة صفحة بالقطع المتوسط .

أما أغلاطُ الطبع التي لم تذكر في جدولها فقليلة كقوله (ص ١١٥ س ١٦) المسائلُ الثلاثةُ وصوابها : الثلاث ، و (١١٦ س ٢) من التعليق : واقيعه — واقعية او واقعة و ص ١٧١ س ١ من التعليق : أول جمة — جمعة و ٢٣٠ : ٤ فضيرب — فيضرب و ص ٣٤٩ س ١٧ : الى ابي سفان — سفيان و س ٢٢ سول الله : رسول الله و 〃 ٣٥٣ 〃 ١٩ : واصداقائهم — واصدقائهم و ٣١٠ : ٦ واستغل — واشتغل و 〃 ٤٢٠ 〃 ١١ : رسول — رسول الله و ٤٣١ : ٥ : تفكر تلك — تكفر تلك

وقد سها المؤلف فقال في عدّه أسماء المدينة المنورة « والبلد » قال تعالى « لا أقسم بهذا البلد » والمشار اليه في هذه الآية هو مكة لا المدينة ، والسورةُ مكية . وفي ص ١٦ عقد المؤلف فصلاً وصف فيه الاحتفال بمولد الرسول (ص) قديماً وحديثاً . ونقل فيه عن الحافظ السخاوي انه حدث بعد القرون الثلاثة

وهنا كان حرياً بحضرة المؤلف ان ينكر هذه المظاهر اللاهية ، والآثار الواهية التي اعتاد الناسُ سماعها في مثل هذه المواسم والمراسم . . ان الاخبار التي

تخالف العقل والنقل الصحيحين يُخشى من ضررها في عقائد المتعلمين اضعاف ما يرجى من نفعها عند بعض العوامّ ، دع ما ورد فيها من الوعيد الشديد ، وان في هذه القصص التي تُتلى في المحافل الكبرى من غرائب النقول ما يصرفُ اذهان المستمعين عن حياة الرسول الى تصورات خيالية لا أثر لها في عالم الحس والحقيقة ·

فجدير بالعلماء العاملين ، والامراء العادلين ، ان يجعلوا درس السيرة النبوية في هذه المجتمعات العامة شذرات من لبابها ملائمة لروح المجتمعين ، مغذية لعقولهم ، باعثة على حسن الاستماع والاتباع ·

وقال (ص ٣٣) وكراماتُ الاولياء كمعجزات الانبياء ، غير انهم لم يدعوا النبوة ، ويجب الايمان بالأولياء قال تعالى : « ألا إن أولياء الله لا خوف عليهم ولاهم يحزنون » وقد ترك المؤلف وصفهم في الآية التالية « الذين آمنوا وكانوا يتقون » فأولياء الله هم المؤمنون الصالحون المتقون ، وليس لولاية الله في هذه الآية غير هذا المعنى ·

وفي (ص ٣٨٥) وقال (ص) لجعفر : « أشبهتَ خَلقي وخُلقي » فرقص جعفر لسروره بهذا الخطاب ولفرط ما اصابه من الفرح ، ولم ينكر عليه (ص) رقصه ، وجعل ذلك اصلاً لرقص الصوفية عندما يجدون من المواجيد في مجالس الذكر والسماع !! أقول اما لفظ « اشبهتَ خَلقي وخُلقي » فمعروف من رواية الصحيحين وغيرهما ، واما زيادة : فرقص جعفر » الخ فلم نرها في كتب السنة المشهورة ، فهل للأستاذ ان يذكر لنا من خرجها من الثقات بهذا اللفظ ؟ · وما روى ان جعفر لما عاد من الحبشة ونظر الى النبي (ص) حجل اعظاماً له (اي مشى على رجل واحدة فعل الحبشة تعظيماً لكبرائها) فقال العقيلي — وقد رواه من طريق مكي بن عبد الله الرعيني ، حدثنا سفيان بن عيينة الخ — : غير محفوظ ، وقال في الميزان : مكي له

مناكير ، وقال في المغني : تفرد عن ابن عيينة بحديث وقال البيهقي : — وقد رواه من طريق الثوري — : في اسناده الى الثوري من لا يعرف [1]

وقد بنى المؤلف استدلاله على أصل منكر حتى عند رواته ، ولم يُذكر «الرقصُ» في كلامهم ولو كان هذا الفعل (الحجل) مشروعاً لما تركه جعفر ، ولعمل به الصحابة والتابعون ، والائمة المجتهدون ، ولا قائل به منهم ، فعلم أنه باطل ، وعبادة لم يأذن بها الله « قل : آلله أذن لكم » .

وعجيبٌ للمؤلف الذي يجدُّ في الردِّ على كبار المستشرقين امثال مرجليوث وموير ونولدكي وغيرهم كيف يقبل لدينه هذه المهازل التي تثير تلك المطاعن على أصل الإسلام ، ويغفل عن مثل قوله تعالى : « وذر الذين اتخذوا دينهم لعباً ولهواً »

وبعد فلم يذكر المؤلف اسماء أولئك المستشرقين في فهرس الأعلام فيسهل الرجوع الى ما كتبه عنهم ، ولم نر فهرساً في اسماء الكتب والمصادر الكثيرة التي استمد منها ، فتتم الفهارس التي عُني بوضعها ، وكنا نرجو ان نجد أسماء « أمهات كتب الحديث » التي أورد منها في آخر الكتاب تلك الاحاديث النبوية ، مرتبة على الحروف الهجائية ، فقد أشكل علينا منها مثل « شراركم عزابكم » ومثل « اصحابي كالنجوم بأيهم اقتديتم اهتديتم » فمن خرجها ، وهل طرقها صحيحة يا ترى ؟

هذا وانا نشكر المؤلف على مابذل من جهد وعناء في جمع مباحث هذا الكتاب الجليل وتنسيقها ، وتتبع شكوك المشككين ، واعتراضات المستشرقين ، وتفنيدها .

محمد بهجة البيطار

---

(١) أنظر منتخب كنز العمال على هامش المسند (ج ٥ ص ١٥٥ وزاد المعاد : ١ ص ٣٩٧)

الاغنياء والفقراء

في ٢٢٨ صفحة من القطع المتوسط

مؤلف هذا الكتاب هربرت جورج ولز من أشهر الأدباء في انكلترة . ومترجمه السيد زكي نجيب محمود . وقد طبعته لجنة التأليف والترجمة والنشر في القاهرة . وجعلته حلقة من سلسلة كتب تترجم باسم « عيون الأدب الغربي » ومن جملة حلقات هذه السلسلة كتاب حياة دزرائيلي السالف الذكر .

وكتاب الأغنياء والفقراء فصلان من سفر عنوانه « عمل الانسان وثروته وسعادته » يقع في ستة عشر فصلاً . ويتناول المؤلف في الكتاب المذكور شيئاً عن حياة بعض رجال المال واعمالهم مثل رُكفلر وفُورد واسرة رُتشيلد وغيرهم ثم يشرح آراءه في تنظيم المجتمع الانساني اقتصادياً وسياسياً وهي آراء ناضجة طريفة تتجه وجهة الاشتراكية الشاملة المعتدلة وتبشر بضرورة اتحاد جميع الأمم ويا حبذا لو صحت الأحلام .

وفي آخر الكتاب فصل ممتع عن المرأة تناول فيه طبائعها وسجاياها وعملها في المجتمع البشري .

ولغة الترجمة حسنة . ومما استرعى نظرنا في ص ١٤٩ لفظة احراش والصحيح حراج واحراج جمع حَرَجة (انظر المخصص ج ١١ ص ٤٤) . ومنها قوله الحمام الزاجل والصحيح حمام الزاجل لأن صاحبها يزجلها اي يرسلها الى بعد فهو زاجل وزجال . اما هذا الصنف من الحمام (اي حمام الزاجلين) فيسمى الحمام الهادي وهنّ الهدّاء .

مصطفى الشهابي

تاريخ الفلسفة في الاسلام

تأليف الأستاذ (ج • دي بور T.y.De Boer) بجامعة أمستردام
نقله إلى العربية الأستاذ محمد عبد الهادي أبو ريدة بجامعة فؤاد الأول
طبع بمطبعة لجنة التأليف والترجمة والنشر بالقاهرة سنة ١٣٥٧ هـ و ١٩٣٨ م
وهو من منشوراتها ص ٢٩٦ من قطع الربع

هذا كتاب نقرأ فيه الابداع والتجدد في التأليف وفي الترجمة وفي الطبع ، وكان لكل منها نصيب وافر من الاتقان على ما يعزّ نظيره .

اشتهر المؤلف بما كتب في « معلمة الاسلام » وبمعالجته الشؤون الفلسفية عند المسلمين ، وقد جود هذه المرة من وراء الغاية بأن ألقى علينا في تأليفه هذا درساً مفيداً فيما عني به اجدادنا من البحث الفلسفي منذ قامت القدرية ثم المعتزلة ثم علماء الكلام ثم الفلاسفة . وافاض في تلخيص فلسفة الفارابي وابن سينا والغزالي وابن باجة وابن طفيل وابن رشد وابن خلدون وغيرهم تلخيصاً اماط النقاب عن مراميهم ومنازعهم ، كل ذلك بذوق كامل وعلم فاضل . ولو اراد أحدنا ان يبحث عن فلسفة هؤلاء الحكماء فيما بقي من كتبهم لاقتضى له ان يجهد سنين طويلة وما نظنه يوفق الى الاحاطة بذلك احاطة فيلسوف بلاد القاع .

وفى المؤلف المسلمين قسطهم من النظر والبحث ، فلم يسلبهم حقهم في عملهم ولم يبالغ فيه ، ودلّ بواسع علمه على مبلغهم من الابتكار منتفعاً بما وصل الينا من كتبهم المطبوعة والمخطوطة مستخدماً أقوال بعض المحققين من علماء الغرب في هذه السبيل ويودنا لو نظر في هذا الكتاب كل من تطالّ نفسه الى وضع التآليف متوخياً منها نفع الناس ، ليستفيد اسلوب علماء أوربا في التصنيف والتأليف ، ويودنا أيضاً لو قرأ هذا السفر بامعان وروية كل عربي ولو لم تكن الفلسفة مما تميل اليه نفسه ، لاننا

نعتقد انه منذ أفتى ابن الصلاح بفساد المنطق أي الفلسفة ، ومنع من تعلمه ، ومنذ انحى ابن خلدون في المقدمة على الفلسفة وقال بابطالها قد تراجع العقل عندنا وضعف تفكير المفكرين في بلاد المسلمين . فما عدنا نفيد في العلوم الدنيوية ولا في العلوم الدينية ، هذا وان ادعى كاتب چلبي في كشف الظنون ان سوق الفلسفة او الحكمة كانت نافقة في الروم (آسيا الصغرى او ارض الترك في الاناضول) بعد الفتح الاسلامي الى اواسط الدولة العثمانية وكان في عصرهم فحول ممن جمع بين الحكمة والشريعة كالفناري وقاضي زاده وخوجه زاده والقوشجي وابن المؤيد وابن الكمال وابن الحنائي ومير چلبي . وما نظن كل هؤلاء الا متذوقين مستفيدين ناقلين عن فلاسفة العرب ولو كانوا على شيء من النبوغ وايراد الجديد لكان علماء المشرقيات أحفوا كتبهم درساً وتمحيصاً ، وأخرجوا زبدة فلسفتهم للعالم

محمد كرد علي

آراء وانباء

تحقيق اسم شاعر

ورد في الجزء الأول من كتاب الامتاع والمؤانسة لأبي حيان التوحيدي الذي طبع في القاهرة مؤخراً اسم شاعر اسمه العسجدي (ص ٤٨) فتوقفت فيه اذ لم أجد له ذكراً في الكتب التي لديّ ثم علمت ان العسجدي كان من مشاهير شعراء ايران ومن اهل بلخ ومن تلامذة الشاعر عنصري ومن شعراء بلاط السلطان محمود بن سبكتكين وقد حظي كثيراً عنده . وكان عنصري وفرخي والفردومي من شعرائه ايضاً وان ديوان العسجدي مفقود وفي ايدي العجم كثير من غزله وقصائده

اما عنصري فهو ابو القاسم الحسن بن احمد بلخي الدار ايضاً . وكان من شعراء ابن سبكتكين وكان في بلاطه « ملك الشعراء » وكان ينظر في القصائد التي تقدم للسلطان وبواسطته تعرض على مسامعه فكان بذلك مرجع مئات من الشعراء فاغتنى وتأثل وعظم جاهه وانتشر صيته (توفي سنة ٤٣١ في غزنة) ملخصاً من قاموس الاعلام التركي لشمس الدين سامي رحمه الله

محمد كرد علي

ذكرى قسطاكي بك الحمصي

اصدرت مجلة الكلمة الحلبية عدداً خاصاً بأقلام نخبة من أدباء العرب تخليداً لذكرى زميلنا السيد قسطاكي الحمصي الحلبي وقد تقدم الراثين صديقنا ورصيفنا الاستاذ خليل مطران بك بقوله

افراقاً وأنت آخر باقِ من رفاق كانوا ابرّ الرفاق
بنيتَ عن جانب من القلب حيّ خذ نصيباً من دمعي المهراق
كم حبيباً أرثي أمالي شغل غير تسويد هذه الاوراق ؟
من سقته النوى ثمالة كأس قدسقتني النوى بكأس دهاق

ورثاه اكثر من خمسة وعشرين رجلاً وسيدة وعددوا صفاته الغر نظماً ونثراً رحمه الله

مجلة المجمع العلمي العربي

انشئت سنة ١٣٣٩ هـ الموافقة لسنة ١٩٢١ م
تنشر في دمشق مرة في الشهر

ايلول وتشرين الأول سنة ١٩٤١ م
رمضان وشوال سنة ١٣٦٠ هـ

دمشق

المجمع العلمي العربي

قيمة الاشتراك السنوي الدفع مقدماً
في سورية ولبنان ٣٠٠ قرش سوري
وفي جميع الاقطار ٤٠٠ « «

مطبعة الترقي بدمشق

ابن حزم في (سير النبلاء)

« نشرت كتابي (ابن حزم الأندلسي ورسالته في المفاضلة بين الصحابة) في ربيع الأول سنة ١٣٥٩ هـ [ايار ١٩٤٠ م] وكنت نشرت منه قبل ذلك فصلاً في مجلة الثقافة المصرية وآخر في مجلة التمدن الاسلامي الدمشقية ، ثم تلقيت بالبريد المضمون آخر عام ١٣٥٩ هـ مغلفاً فيه رسالة خطية عنوانها : « ترجمة ابن حزم رحمه الله ، منقول من النبلاء للذهبي » وكلاماً آخر عرفت منه ان في خزانة صاحب الجلالة الامام يحيى حميد الدين صاحب اليمن نسخة من كتاب النبلاء بصنعاء ، وان وجيه الحجاز الشيخ محمد نصيف لما علم باشتغالي بدراسة الامام ابن حزم حملته اريحيته ونبله فكلف السيد محمد بن احمد الحجري بنسخ ترجمة ابن حزم من النبلاء ثم أوصلها الي .

والرسالة المهداة كتاب مستقل كما انه الذهبي وقد قرئ عليه وفي آخره سماعان احدهما بخطه كتبه بدمشق سنة ٧٣٦ والثاني كتبه بدمشق ايضاً ابن جماعة سنة ٧٤٠هـ فرأيت من الواجب — وللرسالة هذا الخطر — ألا أستأثر بها وان انشرها في مجلة المجمع العلمي العربي تعميماً لفائدتها .

وانا اذ أشكر فضل الشيخ محمد نصيف وغيرته على العلم لا يسعني إلا ان ارفع الى صاحب الجلالة اليمنية على صفحات هذه المجلة رجائي ورجاء كثير من خدمة العلم : ان يأمر بطبع هذا الكتاب النفيس فيرد بذلك غلة العطاش من رواد العلم ويحيي أثراً نفيساً ويضيف الى مآثره الجليلة هذه المحمدة الجديدة ، ويحقق امنية ليس احق بتحقيقها من الملك العالم المجتهد الفقيه . ودمشق تغتبط اذا امر جلالته فأرسل هذه النسخة النادرة الجلاء بخط مؤلفها ، الى مجمعنا العلمي فيقوم باعدادها للنشر ، ومن الحق ان تقوم دمشق بنشر أثر خرج من خزائنها وألفه في مدارسها ابنها وأحد مفاخرها الخالدة على وجه الدهر »

وهذه كلمة عن المؤلف الامام الذهبي وعن كتابه سير النبلاء أقدمها بين يدي الرسالة :

شهد القرن الثامن للهجرة علماء محدثين وحفاظاً أعلاماً ، استأثر بالاجماع منهم أربعة كان اليهم المرجع ، وعليهم المعول ، وانعقدت لهم الامامة في الحديث ومعرفة الرجال : وهم الحافظ المزي والبرزالي وتقي الدين السبكي ومترجمنا شمس الدين الذهبي . وقد كان مترجموه من جلة العلماء كتاج الدين السبكي والجلال السيوطي والحافظ ابي المحاسن الحسيني الدمشقي وصاحب (فوات الوفيات) وخليل ابن ايبك الصفدي صاحب (نكت الهميان في نكت العميان) وغيرهم ، فأطبقوا جميعاً على أنه حافظ

عصره الذي تشد اليه الرحال من مختلف الاقطار . وناهيك بشهادة هؤلاء الحفاظ المحدثين الأجلاء .

مولده ونسبه

كان مولد شمس الدين محمد بن احمد بن عثمان بن قايماز التركماني بدمشق سنة ٦٧٣ واصله من ميافارقين واشتهر بالذهبي [١] ونعته الحافظ الحسيني بـ « شيخ المحدثين قدوة الحفاظ والقراء محدث الشام ومؤرخه ومفيده » [١]

طلبه ونبوغه

بدأ بطلب الحديث وله ثمان عشرة سنة ، فسمع على شيوخ الشام ومصر ومنهم شيخ الاسلام ابن دقيق العيد ، وكان هذا « شديد التحري في الإسماع [٢] » لم يقبله حتى اختبره في معرفة الرجال وسأله اشياء اجابه عنها بسداد . ثم جاب مدن الشام يلقى فيها الشيوخ فسمع بدمشق وبعلبك وحمص وحماة وحلب وطرابلس ونابلس والرملة والقدس ورحل الى الاسكندرية وبلبيس والقاهرة ومكة [٣] حتى صار « إمام الوجود حفظاً وشيخ الجرح والتعديل ورجل الرجال في كل سبيل [٣] » فرسخت قدمه وذاعت شهرته وضرب بحفظه المثل .

وأقام بدمشق يقصده فيها العلماء من طلاب الحديث من كل قطر ومصر وتنهال عليه الأسئلة من البلدان فيجيب عليها من حفظه . وكان في القراءات عالماً جامعاً . قرأ القرآن وأقرأه على الوجوه السبعة .

شيوخه وتلاميذه

بلغ عدد الذين ذكرهم في (معجم أشياخه) ثلاثمائة شيخ والف شيخ [٤] .

وقد حفظت لنا كتب الطبقات بعض الأعلام المشهورين ممن قرأ عليهم وأقرأهم ،

---

(١) ذيل تذكرة الحفاظ ص ٣٤ (دمشق ١٣٤٧ هـ) (٢) نكت الهميان ص ٢٤٢ فما بعد وشذرات الذهب ٦ : ١٥٣ (٣) السبكي في طبقات الشافعية ٥ : ٢١٦ (٤) فوات الوفيات ٢ : ١٨٣ وفيها وفي طبقات الشافعية ذكر لبعض شيوخه المشهورين فانظرهم ثمة .

جاء في شذرات الذهب : « أجاز له ابو زكريا ابن الصيرفي والقطب ابن ابي عصرون ، والقاسم الإربلي . سمع بدمشق من عمر بن القواس واحمد بن هبة الله بن عساكر ويوسف بن احمد الغسولي وغيرهم ، وببعلبك من عبد الخالق بن علوان وزينب بنت عمر بن كندي وغيرهما ، وبمصر من الابرقوهي وعيسى بن عبد المنعم بن شهاب وشيخ الاسلام ابن دقيق العيد ، وسمع بالاسكندرية من ابي الحسن علي بن احمد الغرافي وابي الحسين يحيى بن احمد بن الصواف وغيرهما ، وبمكة من التوزي وغيره ، وبنابلس من العماد بن بدران [1] » .

« وأجاز له خلق من اصحاب ابن طبرزد والكندي وحنبل وابن الحرستاني وغيرهم وخرج لجماعة من شيوخه وجمع القراءات السبع على الشيخ عبد الله بن جبريل المصري نزيل دمشق [2] » .

وقد حمل عنه الكتاب والسنة وعلم الرجال خلائق لا يحصون كثرة ، وحسبك ان منهم التاج السبكي صاحب طبقات الشافعية الكبرى ، والسيوطي المؤلف المكثر ، وانظر قدره عندهما في ترجمتها له فيما الفا من كتب الرجال . ومنهم الصفدي صاحب « نكت الهميان » واليك شهادته فيه في كتابه نكت الهميان ، قال :

« اجتمعت به وأخذت عنه وقرأت عليه كثيراً من تصانيفه ولم أجد عنده من جمود المحدثين و كودنة النقلة ، بل هو فقيه النظر له دربة بأقوال الناس ، ومذاهب الائمة من السلف وارباب المقالات . وأعجبني ما يعانيه في تصانيفه من أنه لا يتعدى حديثاً يورده حتى يبين ما فيه من ضعف متن او ظلام إسناد أو طعن في رواته ؛ وهذا لم أر غيره يعاني هذه الفائدة فيما يورده . [3] » وقد قرأ عليه الصفدي هذا من تاريخ الاسلام المغازي والسيرة النبوية الى آخر ايام الحسن رضي الله عنه ، وجميع الحوادث الى آخر سنة سبعمائة .

(١) شذرات الذهب ٦ : ١٥٤ . (٢) ذيل تذكرة الحفاظ ص ٣٤ ، ٣٥ . (٣) نكت الهميان في نكت العميان ص ٢٤٢

عمله ووفاته ورثاؤه

ولي في حياته «مشيخة الظاهرية قديمًا ومشيخة النفيسية والفاضلية والتنكزية وأم الملك الصالح» حتى اذا كان عام ٧٤١ كف بصره فانقطع عن التأليف وأكب على التدريس الى ان وافاه اجله «ليلة الاثنين ثالث ذي القعدة سنة ٧٤٨[1]»

روى التاج السبكي في طبقاته ان وفاة الذهبي كانت «بالمدرسة المنسوبة لأم الصالح[2] في قاعة سكنه ورآه الوالد (يعني تقي الدين السبكي) رحمه الله قبل المغرب وهو في السياق وقال: كيف تجدك؟ فقال: في السياق، ثم سأله: أدخل وقت المغرب؟ فقال له الوالد: الم تصل العصر؟ فقال: بلى ولكن لم أصل المغرب الى الآن. وسأل الوالد رحمه الله الجمع بين المغرب والعشاء تقديمًا فأفتاه بذلك، ففعله. ومات بعد العشاء قبل نصف الليل ودفن بباب الصغير، حضرت الصلاة عليه ودفنه.[3]» وهكذا انقضت حياة حافلة بالعلم والتعليم والدين والتقى. فبكاه العلم وأهله، وبكته المدارس وحلقات التدريس، وفقدته بيوت الكتب التي طالما ملأها بالمفيد الممتع من مصنفاته في علوم الكتاب والسنة والشريعة. وهذه ابيات مما رثاه به تلميذه التاج السبكي:

من للحديث وللسارين في الطلب ... من بعد موت الامام الحافظ الذهبي
من للرواية والاخبار ينشرها ... بين البرية من عجم ومن عرب
من للدراية والآثار يحفظها ... بالنقد من وضع اهل الغي والكذب
من للصناعة يدري حل معضلها ... حتى يريك جلاء الشك بالريب
هو الامام الذي روت روايته ... وطبق الأرض من طلابه النجب

(١) ذيل تذكرة الحفاظ ص ٣٥ (٢) هي على يمين المنحدر في زقاق المحكمة قبيل آخره وفي محلها اليوم دار بدير ودار تقي الدين ولا تزال معالم المدرسة ظاهرة عليها ــ كذا أخبرني أحد المطلعين، شأنها في ذلك شأن غيرها من عشرات المدارس، التي آوت غرفها كبار العلماء والحفاظ والقراء والفقهاء ومن هذه الغرف خرجت إلى أقطار العالم آلاف الكتب النفيسة التي انتفع بعلمها واهتدى بهديها الملايين من البشر

(٣) طبقات الشافعية

ثبت صدوق خبير حافظ يقظ ... في النقل اصدق انباء من الكتب
الله اكبر ما أقرا وأحفظه ... من زاهد ورع في الله مرتقب[١]

شهرته العلمية ومنزلته بين الحفاظ

وبعد فالذهبي احد مفاخر دمشق على وجه الدهر ، جعل منها طول حياته محطاً «يرحل اليه من سائر البلاد وتناديه السؤالات من كل ناد»[٢] فهو واحد من أولئك الأعلام الذين ساهموا في بناء مجدها العلمي العظيم وصاروا أمنية المتمني والغاية التي يتطلع إليها كل طامح : حكي عن شيخ الاسلام ابي الفضل بن حجر انه قال : «شربت ماء زمزم لأصل الى مرتبة الذهبي في الحفظ .»[٣]

وجعله السيوطي احد اربعة كان المحدثون في عصره عيالاً عليهم في الرجال وسائر فنون الحديث وهم : المزي والذهبي والعراقي وابن حجر . «وقد قارن حافظ الشام ابن ناصر الدين بين الذهبي والبرزالي والمزي فحكم للمزي بالتفوق في معرفة رجال طبقات الصدر الأول ، وللبرزالي في العصريين ومن قبلهم من الطبقات القريبة منهم ، وللذهبي في الطبقات المتوسطة بينهما تأييداً لقول بعض مشايخه . على ان الأهواء قلما تتغلب على المزي والبرزالي في تراجم الناس بخلاف الذهبي»[٤]

مؤلفاته

عاش خمساً وسبعين سنة ترك خلالها نحواً من مئة مصنف جمعت من أسمائها ستة وثمانين ، بعضها مشهور متداول كثر منه النفع وعظمت اليه الحاجة .

قرأت مسارد تآليفه في المصادر التي ترجمت له ، فرأيت اكثرها في الحديث ورجاله وما بقي منها ففي التاريخ . وأقصد بالتاريخ هنا : فن التراجم الذي برع فيه العرب براعة ما بعدها غاية ، وتفننوا فيه فنوناً شتى . أما مؤلفاته التي ضمنها ما «جرح

(١) اختار هذه الابيات السيوطي في ذيل طبقات الحفاظ ص ٣٤٩ وانظرها مختارة بقلم ناظمها في طبقات الشافعية ٥:١٠٢ . (٢) كلمة السبكي (٣) ذيول تذكرة الحفاظ ص ٣٤٨ (٤) ذيل تذكرة الحفاظ ص ٣٥ الحاشية .

وعدّل وفرّع وصحح وعلل واستدرك وأفاد وانتقى واختصر من تآليف المتقدمين والمتأخرين [١] »، فقد حوت علماً كثيراً وتيسيراً على العلماء والطلبة ، وأشير هنا الى ان من اطولها تاريخه الكبير المسمى بتاريخ الاسلام في عشرين مجلداً [٢] ، طالعه الحافظ الزملكاني جزءاً جزءاً حتى أنهاه فشهد له بالجلالة [٣] ولعله اعظم مؤلفاته الكبار في التاريخ على الاطلاق .

ويليه في الضخامة (سير النبلاء) وهو ما نحن بصدد نشر جزء منه اليوم ، والذي يؤخذ من الذين ارخوا الذهبي ان (النبلاء) مختصر من تاريخه الكبير [٤] والذي اميل اليه انه انتقى تراجم من التاريخ الكبير فجمعها في سير النبلاء . والذهبي نفسه تفنن في الاستفادة من تاريخه الكبير فاختصره على عدة مرات ، جاء في شذرات الذهب في صدد مؤلفاته : « منها تاريخ الاسلام ، ومختصر سير النبلاء في عدة مجلدات كثيرة ، ومختصر العبر في اخبار من غبر ، ومختصر آخر سماه الدول الاسلامية ومختصره الصغير المسمى بالاشارة ومختصره ايضاً وسماه الإعلام بوفيات الأعلام [٥] » والذهبي في هذا الفن من التاريخ يكاد لا يجاريه احد وكتبه في الرجال على اختلاف فنونها لا يستغني عنها باحث اليوم .

وإليك جريدة مؤلفاته التي جمعتها من مصادر مختلفة [٦] ، ولا بد من الاشارة الى انه قد يكون فيها اسمان لكتاب واحد ، كل مصدر يذكره باسم ، كما ان اكثر ما قصر على التراجم هو — في رأيي — جزء من التاريخ الكبير على ما سيمر بك اذا بلغت الكلام على (سير النبلاء) ولعل في غير التراجم ما يدخل ايضاً في هذا الباب :

---

(١) ذيل تذكرة الحفاظ ص ٣٥ (٢) المصادر السابقة وكشف الظنون ومنه اجزاء في الخزانة الاحمدية بحلب (٣) فوات الوفيات (٤) كشف الظنون (٥) منه نسخة رأيتها في دار الكتب الظاهرية وعليها سماع بخط الذهبي نفسه كتبه سنة ٧٣٥ هـ رقمها : مجموعات ١١٦/١١

(٦) فوات الوفيات ٢ : ١٨٣ ذيل تذكرة الحفاظ ص ٣٥ ، ٣٦٨ ، شذرات الذهب ٦ : ١٥٤ . طبقات الشافعية للسبكي ٥ : ٢١٦ فما بعد ، نكت الهميان ص ٢٤٢ ، كشف الظنون ، قاموس الاعلام .. وغيرها .

١ آداب حملة العلم
٢ أحاديث الصفات
٣ أحاديث مختصر ابن الحاجب
٤ أخبار السد
٥ 〃 ابي مسلم الخراساني
٦ اختصار تاريخ الخطيب (جزءان)
٧ 〃 تاريخ ابن السمعاني
٨ 〃 〃 ابن عساكر (عشرة اجزاء)
٩ 〃 〃 نيسابور
١٠ 〃 تقويم البلدان لصاحب حماة
١١ 〃 سنن البيهقي (خمسة اجزاء)
١٢ 〃 كتاب الاطراف (جزءان)
١٣ 〃 كتاب البعث للبيهقي
١٤ 〃 〃 الجهاد لابن عساكر
١٥ 〃 〃 جواز السماع لجعفر الادفوي
١٦ 〃 〃 الرد على الرافضة لابن تيمية
١٧ 〃 〃 الزهد
١٨ 〃 〃 سلاح المؤمن في الادعية
١٩ 〃 〃 العلم لابن عبد البر
٢٠ 〃 〃 الفاروق لشيخ الاسلام الانصاري (مع اختصار وتهذيب)
٢١ اختصار كتاب القدر للبيهقي
٢٢ 〃 〃 المستدرك للحاكم (جزءان)
٢٣ اختصار وفيات المنذري والشريف النسابة
٢٤ الاصابة في تجريد اسماء الصحابة
٢٥ الاعلام والتجريد في اسماء الصحابة
[لعلهما واحد]
٢٦ الإمامة الكبرى
٢٧ تاريخ الاسلام (عشرون مجلداً)
٢٨ التاريخ الممتع (ستة اجزاء)
٢٩ تاريخ النبلاء (الاكثر انه سير النبلاء عينه)
٣٠ التبيان في مناقب عثمان
٣١ التجريد في اسماء الصحابة (لعله الذي مر)
٣٢ تحريم الأدبار (جزءان)
٣٣ تذكرة الحفاظ (اربعة اجزاء)
٣٤ تذهيب التهذيب للكمال (ثلاثة اجزاء)
٣٥ ترجمة السلف
٣٦ التلويح بمن سبق ولحق
٣٧ التمسك بالسنن
٣٨ تنقيح احاديث التعليق لابن هوري
٣٩ توقيف اهل التوفيق على مناقب الصديق
٤٠ الثلاثين البلدية
٤١ جزء صلاة التسبيح
٤٢ 〃 في الشفاعة
٤٣ جزءان في صفة النار
٤٤ جزء في فضل آية الكرسي

٤٥ دعاء المكروب
٤٦ دوام النار
٤٧ دول الاسلام
٤٨ الروع والادجال في بقاء الدجال
٤٩ الزلازل
٥٠ الزيادة المضطربة
٥١ سير اعلام النبلاء
٥٢ سيرة الحلاج
٥٣ طبقات الحفاظ
٥٤ 〃 القراء (بإسماء القراء الكبار على الطبقات والأعصار)
٥٥ طرق احاديث النزول
٥٦ العباب في التاريخ
٥٧ العبر في اخبار البشر
٥٨ 〃 〃 خبر من غبر (لعله ماقبله)
٥٩ العرش
٦٠ العلو
٦١ فتح المطالب في اخبار علي بن ابي طالب
٦٢ فضل الحج وافعاله
٦٣ قض نهارك بأخبار ابن المبارك
٦٤ الكاشف (اختصار التذهيب)
٦٥ الكبائر
٦٦ كسر وثن رتن الهندي ؟
٦٧ اللباس
٦٨ المحرر في اسماء رجال الكتب الستة (في ذيل تذكرة الحفاظ: المجرد)
٦٩ مختصر ذيل ابن الدبيثي
٧٠ 〃 في القراءات
٧١ مسألة السماع
٧٢ مسألة الغيب
٧٣ المستحلى اختصار المحلى
٧٤ المستدرك على مستدرك الحاكم
٧٥ المشتبه في الأسماء والأنساب والكنى والالقاب
٧٦ معجم اشياخه وهو ١٣٠٠ شيخ (كبير وأوسط وصغير)
٧٧ المعجم المختص
٧٨ المغني في الضعفا
٧٩ المقتنى في الكنى
٨٠ من تكلم فيه وهو موثق
٨١ الموت وما بعده
٨٢ ميزان الاعتدال (ثلاثة اجزاء)
٨٣ نبأ الدجال
٨٤ نعم السمر في سيرة عمر
٨٥ نفض الجعبة في اخبار شعبة
٨٦ هالة البدر في عدد اهل بدر

هذا وقد أعجبتني في الدلالة على براعته في فنه كلمة السبكي اذ قال فيه: «كأنما جمعت الأمة في صعيد واحد فنظرها ثم أخذ يخبر عنها اخبار من حضرها.». كذلك كان رحمه الله.

شيء من نظمه

لعل من تمام الصورة ان نعرض ما عرضه مترجموه من شعره، فلا مفر لك من أن تجد في كتب الرجال عندنا آخر كل ترجمة وان لم يكن صاحبها شاعراً قولهم: ومن شعره. وقد حلا لي أن أحيي هنا هذا التقليد احتراماً لمترجمنا الذي كان أحد زعمائه الكبار. كان شعره رحمه الله شعر فقيه تغلب فيه آثار صنعته، ولا غرابة في ذلك، فأشد شيء أثراً في المرء ماوقف حياته ليلها ونهارها على الاشتغال فيه:

قال التاج السبكي انشدنا شيخنا الذهبي من لفظه لنفسه:

تولى شباب كأن لم يكن   وأقبل شيب علينا تولى
ومن عاين المنحنى والنقا   فما بعد هذين الا المصلى[1]

وانشدنا لنفسه وارسل بها معي الى الوالد (يعني تقي الدين بن السبكي) رحمه الله وهي فيما أراه آخر شعر قاله لأن ذلك كان في مرض موته؛ قبل موته بيومين او ثلاثة:

تقي الدين يا قاضي الممالك   ومن نحن العبيد له وانت مالك
بلغت المجد في دين ودنيا   ونلت من العلوم مدى كمالك.
ففي الاحكام أقضانا علي   وفي الخدام مع أنس بن مالك
وكابن معين في حفظ ونقد   وفي الفتيا كسفيان ومالك
وفخر الدين في جدل وبحث   وفي النحو المبرد وابن مالك
وتسكن عند رضوان قريبا   كما زحزحت عن نيران مالك

(١) طبقات الشافعية ٥: ٢١٦.

لتعطى في اليمين كتاب خير ولا تعطى كتابك في شمالك
تشفع في أناس في فراء لتكسوهم ولو من رأس مالك

وذكر بعدها ابياتاً على هذا النمط تتعلق بمدحي لم اذكرها وختمها بقوله :

والذهبي إدلال الموالي على المولى بحلمك واحتمالك(١)

وله منظومة في المدلسين انظرها في الطبقات المذكورة (٥ : ٢١٨)

مآخذ العلماء عليه :

من الواجب ان نذكر هنا ما اخذه عليه بعض العلماء : فقد ذهبوا الى انه يقع أحياناً فيمن خالفه وأحياناً يطوي ذكره أو لا يوفيه حقه ، فاذا كان المترجم حنبلياً أفاض في تقريظه . ومعاصروه أدرى بنصيب المبالغة من هذا الحكم ، إلا أني ارى من الطرافة ان انقل كلام تلميذه السبكي صاحب الطبقات الذي قدمنا لك اعجابه به ورثاءه له . ولعل القارئ لا ينسى ان السبكي أيضاً شديد الميل والعصبية الى الشافعية قال : « وكان .. شديد الميل الى آراء الحنابلة ، كثير الازراء بأهل السنة الذين اذا حضروا كان ابو الحسن الأشعري فيهم مقدم القافلة ، فلذلك لا ينصفهم في التراجم ، ولا يصفهم الا وقد رغم منه أنف الراغم : صنف التاريخ الكبير وما أحسنه لولا تعصب فيه(٢) »

* * *

« وقد انتقده على خطته في تراجم الناس انتقاداً مراً الحافظ ابن المرابط محمد بن عثمان الغرناطي والتاج ابن السبكي ونسباه الى التعصب المفرط ولا تخلو خطته في التراجم من ذلك لا سيما في تراجم الحشوية ومخالفيهم ، لبعده عن المعقول والعلوم النظرية واكتفائه بالرواية والسماع كما هو شأن غالب الرواة المنصرفين الى السماع والرواية من صغرهم قبل النظر في مبادي العلوم سامحه الله . وقال ابن الوردي في تاريخه : « واستعجل قبل الموت فترجم في تواريخه الأحياء المشهورين بدمشق وغيرها

(١) المصدر السابق ص ٢١٨ (٢) طبقات الشافعية ٥ : ٢١٦ .

واعتمد في ذكر سير الناس على احداث يجتمعون به وكانت في أنفسهم شيء من الناس فأذى بهذا السبب في مصنفاته أعراض خلق من المشهورين (١) . اهـ .

هذا قولهم فيه ، وقلما أرخ مؤلف لمعاصريه إلا كثر فيه الكلام . والمرء يخضع للضعف البشري حين يتكلم على من له معهم العلائق، وهو متأثر لا شك برضاه وغضبه على رغمه ، مهما اجتهد في الانصاف ؛ وانما يؤاخذ الله المرء بنيته وهو بعد يخطئ ويصيب . وهؤلاء الذين انتقدوه يخالفونه فيما ذهب اليه من مذهب ، فمن ثمة كان رأيهم فيه موضع نظر . وما اكثر من كان عرضة للاتهام بعداء اهل السنة كما أراد إصلاحاً ، أو نبذاً لبدعة شائعة ، او نقداً لخطئ تعتقد فيه العامة .

قيمة هذه الرسالة من سير النبلاء :

سير النبلاء (٢) كما في غالب المصادر عشرون مجلداً ، ذكره حاجي خليفة في كتابه كشف الظنون فقال : « هو من جملة ما اختصره من تاريخه الكبير في نحو عشرين مجلداً مرتباً على التراجم بحسب الوفيات وله عليه ذيل في مجلد - وذيله ايضاً الحافظ تقي الدين محمد بن احمد الفاسي المتوفى سنة ٨٣٢ هـ » ولصاحب « نكت الهميان » كلمة في التعريف به تفيدنا في معرفة الصورة التي رتب فيها الذهبي هذا الكتاب قال : « وله في تراجم الأعيان لكل واحد مصنف قائم الذات مثل الائمة الاربعة ومن جرى مجراهم لكنه أدخل الكل في تاريخ النبلاء (٣) »

فعلى هذا يكون سير النبلاء مجموعاً من كتب كثيرة عددها يساوي عدد المترجمين فيه ، واذاً تكون رسالتنا التي ظفرنا بها عن ابن حزم أحد هذه الكتب ، وبه نعرف نسق هذا الكتاب الجليل في جزء مهم منه .

قابلت هذه الرسالة بما في تذكرة الحفاظ للمؤلف نفسه عن ابن حزم ، فوجدت خلافاً يسيراً

(١) ذيل تذكرة الحفاظ ص ٣٥ الحاشية . (٢) وقد يسمى سير اعلام النبلاء ، وتسميه بعض المصادر : تاريخ العلماء والنبلاء (فوات الوفيات) وبعضها : تاريخ النبلاء : « نكت الهميان وفوات الوفيات »
(٣) هذه الكلمة بنصها في فوات الوفيات

في الترتيب وتفاصيل زائدة ، ورأيت اسلوب اهل الحديث في رسالتنا هذه أظهر ، وفنهم فيها أغلب . فستعرف منها أعلى سند عند ابن حزم وأنزل سند ، وأجود سند ، ولا يدع الذهبي ان يذكر لنا سنده الى ابن حزم .. ثم النبي صلى الله عليه وسلم في عدة أحاديث . فنغتبط اذ نرى اعلام الحجاز والعراق والشام والاندلس واحياناً مصر والمغرب في سند واحد وهو شيء طريف حقاً .

وفيها بعض أشعار لم اجدها في مصدر أصلاً على كثرة المصادر التي اطلعت عليها حين دراستي لابن حزم ، وسأشير الى ذلك اذا وصلت اليه .

اما المزية الظاهرة لهذه الرسالة فهي في حفظ كثير من اسماء مؤلفات ابن حزم فقد ذكر منها نحو السبعين على حين لم استطع ان اجمع في كتابي عن (ابن حزم) أكثر من ثلاثة وخمسين كتاباً وبعضها لا ذكر له في هذه السبعين ، وفي بين كتاب ضخم يبلغ خمسة عشر الف ورقة وجزء قد لا يعدو الأوراق . والذي يدعو الى الغرابة ان يكون بين هذه المؤلفات خمسة عشر في الطب خاصة .

ويستطرد الذهبي في رسالته هذه فيذكر كلاماً نفيساً في الاجتهاد والتقليد والرياء وأنه داء الفقهاء والتجار الاسخياء والواقفين والمجاهدين ... فيبدو لنا جديداً في اسلوبه يعنى بعض العناية بالتحليل النفسي والمناقشة المنطقية .

ويؤخذ عليه ما يؤخذ على اكثر مؤلفات عصره : شيء من الفوضى في الترتيب وتداخل في الموضوعات لا يصل الى حد تشتيت الذهن ، الا انه في ذلك هنا خير منه في تذكرة الحفاظ . وعدد شيوخ ابن حزم في تذكرة الحفاظ أوفى .

وهذا أوان الشروع في نشر الرسالة :[1]

---

(١) مزية النسخة التي استنسخها لي الشيخ محمد نصيف انها عن نسخة كتبت في عصر المؤلف وقرئت عليه وعليها خطه . الا انها كثيرة التصحيف وفيها نقص في بعض المواضع وقد توفقت الى وجه الصواب فيها في غير صعوبة ، لأن كثيراً من المصادر التي نقل عنها الذهبي ميسورة لنا وساعدني على ذلك اشتغالي السابق بالموضوع ، وأنا اذاً لا أشير الا الى القليل من الخطأ في الاصل . وقد قسمت الرسالة الى موضوعات صغرى جعلتها بين معقوفتين [ ]

نموذج من خط الذهبي صاحب سير النبلاء

سماع بخط الذهبي نفسه على كتابه (الإعلام بوفيات الأعلام)
المحفوظ بدار الكتب الظاهرية (مجموع ١١٦/١١)

ونصه : سمع الكتاب علي من لفظي كاتبه الأمير الفاضل ناصر الدين ابو الفوارس محمد بن طولوبغا السيفي والقاضي الإمام شرف الدين عبد الرحيم بن عبد الله بن محمد الزريراني والإمام شهاب الدين أحمد بن محمد بن سلمان ابن الشرجاني في جمادي الآخرة سنة خمس وثلاثين وسبعمائة .

وكتب محمد بن احمد بن عثمان عفا الله عنه وصح بالمدرسة الصدرية .

ترجمة ابن حزم منقولة من سير النبلاء للذهبي

الحمد لله

[نسبه ومولده]

ابن حزم الأوحد البحر ذو الفنون والمعارف أبو محمد علي بن أحمد بن سعيد بن حزم بن غالب بن صالح بن خلف بن معدان بن سفيان بن يزيد الفارسي الأصل ثم الأندلسي القرطبي اليزيدي مولى الأمير يزيد بن أبي سفيان(١) بن حرب الاموي المعروف بيزيد الخير نائب أمير المؤمنين أبي حفص عمر على دمشق، الفقيه الحافظ المتكلم الأديب الوزير الظاهري صاحب التصانيف .

وكان جده يزيد مولى للأمير يزيد أخي معاوية، وكان جده خلف ابن معدان هو أول من دخل الاندلس في زمن عبد الرحمن بن معاوية بن هشام المعروف بالداخل .

ولد أبو محمد بقرطبة في سنة أربع وثمانين وثلثمائة .

[شيوخه وتلاميذه]

وسمع في سنة أربعمائة وبعدها من طائفة منهم يحيى بن مسعود بن وجه الجنة صاحب قاسم بن أصبغ فهو أعلى شيخ عنده . ومن أبي عمر أحمد بن

(١) في الأصل بن سفيان والتصحيح عن ارشاد الأديب وتذكرة الحفاظ .

محمد الجسور ويونس بن عبد الله بن مغيث القاضي وحمام[1] بن أحمد القاضي ومحمد بن سعيد بن نبات وعبد الله بن ربيع التميمي وعبد الرحمن بن عبد الله ابن خالد وعبد الله بن محمد بن عثمان وأبي عمر أحمد بن محمد الطلمنكي وعبد الله ابن يوسف بن نامي وأحمد بن قاسم بن أصبغ . وينزل الى أن يروي عن ابي عمر بن عبد البر واحمد بن عمر بن أنس العذري ، وأجود ما عنده من الكتب سنن النسائي بجمله عن ابن ربيع عن ابن الاحمر عنه[2] ، وأنزل ما عنده صحيح مسلم بينه[3] وبينه خمسة رجال ، وأعلى ما رأيت له حديث بينه وبين وكيع فيه ثلاثة أنفس .

حدث عنه ابنه أبو رافع الفضل وأبو عبد الله الحميدي وولد القاضي أبي بكر [بن] العربي وطائفة ، وآخر من[4] روى عنه مروياته بالإجازة أبو الحسن[5] شريح بن محمد .

[نشأته ونبوغه]

نشأ في تنعم ورفاهية ورزق ذكاء مفرطاً وذهناً سيالاً وكتباً نفيسة كثيرة . وكان والده من كبراء اهل قرطبة عمل الوزارة في الدولة العامرية وكذلك وزر أبو محمد في شبيبته . وقد مهر أولاً في الأدب والأخبار والشعر

(١) في الأصل : جمام . والتصحيح عن الصلة لابن بشكوال ص ١٥٦ ورقم الترجمة ٣٤٧

(٢) يعني عن النسائي . (٣) يعني : بين مسلم وبينه . (٤) في الأصل : وآخرين . (٥) في الأصل أبو الحسن بن شريح والتصحيح عن تذكرة الحفاظ إذ جاء ذكره في حديث يرويه الذهبي عن أبي القاسم احمد بن يزيد القاضي عن أبي الحسن شريح بن محمد الرعيني هذا عن ابن حزم . (٣ : ٣٢٩)

وفي المنطق وأجزاء الفلسفة فأثرت به تأثيراً ليته سلم من ذلك ، ولقد وقفت له على تأليف يحض فيه على الاعتناء بالمنطق ونقدمه على العلوم فتألمت له : فإنه رأس في علوم الإسلام ، متبحر في النقل ، عديم النظير على يبس فيه وفرط ظاهرية في الفروع لا الأصول . قيل إنه تفقه أولاً للشافعي . ثم أداه اجتهاده الى القول بنفي القياس كله : جليه وخفيه والأخذ بظاهر النص وعموم الكتاب والحديث ، والقول بالبراءة الأصلية واستصحاب الحال . وصنف في ذلك كتباً كثيرة وناظر عليه وبسط لسانه وقلمه ، ولم يتأدب مع الأئمة في الخطاب بل فجج [1] العبارة وسب وجدّع [2] فكان جزاؤه من جنس فعله : بحيث أنه أعرض عن تصانيفه جماعة من الأئمة وهجروها ونفروا منها وأحرقت في وقت ، واعتنى بها آخرون من العلماء وفتشوها انتقاداً واستفادة وأخذاً ومؤاخذة ، ورأوا فيها الدر الثمين ممزوجاً في الرصف بالخرز المهين ، فتارة يطربون ومرة يعجبون ومن تفرده يهزؤون . وفي الجملة فالكمال عزيز ، وكل أحد يؤخذ من قوله ويترك إلا رسول الله صلى الله عليه وسلم .

وكان ينهض بعلوم جمة ويجيد النقل ويحسن النظم والنثر وفيه دين وخير ، ومقاصده جميلة ومصنفاته مفيدة . وقد زهد في الرياسة ولزم منزله مكباً على العلم ، فلا نغلو فيه ولا نجفو عنه ، وقد أثنى عليه قبلنا الكبار :

(١) فجج : تكبر . ولعل (في) ساقطة قبل كلمة : العبارة (٢) جدعه تجديعاً : قال له : (جدعاً لك) والجدع الحبس وقطع الأنف أو الأذن أو اليد ــ القاموس

قال أبو حامد الغزالي : « وجدت في أسماء الله كتاباً ألفه أبو محمد بن حزم الأندلسي يدل على عظم حفظه وسيلان ذهنه »

وقال الإمام أبو القاسم صاعد بن أحمد : « كان ابن حزم أجمع أهل الأندلس قاطبة لعلوم الإسلام وأوسعهم معرفة مع توسعه في علم اللسان ووفور حظه [1] من البلاغة والشعر والمعرفة بالسير والأخبار . أخبرني ابنه الفضل أنه اجتمع عنده بخط أبيه أبي محمد من تواليفه أربعمائة مجلد تشتمل على قريب من ثمانين ألف ورقة [2] . »

قال أبو عبد الله الحميدي : « كان ابن حزم حافظاً للحديث وفقهه مستنبطاً للأحكام من الكتاب والسنة ، متفنناً في علوم جمة ، عاملاً بعلمه ، ما رأينا مثله فيما اجتمع له من الذكاء وسرعة الحفظ وكرم النفس والتدين . وكان له في الأدب والشعر نفس واسع وباع طويل ، وما رأيت من يقول الشعر على البديهة أسرع منه وشعره كثير جمعته على حروف المعجم . »

[تركه الوزارة وإقباله على العلم]

وقال أبو القاسم صاعد : « كان أبوه أبو عمر من وزراء المنصور محمد ابن أبي عامر مدبر دولة المؤيد بالله بن المستنصر المرواني ثم وزر للمظفر ، ووزر أبو محمد للمستظهر عبد الرحمن بن هشام ثم نبذ هذه الطريقة وأقبل على العلوم الشرعية وعني بعلم المنطق وبرع فيه ثم أعرض عنه (قلت: ما أعرض

(١) في الأصل : حفظه والتصحيح عن تذكرة الحفاظ ـ هذا ولم نجد الجملة بهذه العبارة في طبقات الأمم المطبوع لصاعد (٢) زاد صاعد : وهذا شيء ماعلمناه من أحد كان في دولة الإسلام قبله إلا لأبي جعفر بن جرير الطبري فانه أكثر أهل الإسلام تأليفاً ـ طبقات الأمم ص ١١٠ (مطبعة السعادة)

عنه حتى زرع في باطنه أموراً وانحرافاً عن السنة ، قال :) وأقبل على علوم الإسلام حتى نال من ذلك ما لم ينله أحد بالأندلس قبله . »

[حملة خصومه عليه وانصاف الذهبي له]

وقدحط أبو بكر بن العربي على أبي محمد في كتاب (القواصم والعواصم) وعلى الظاهرية فقال : « هي أمة سخيفة تسورت على مرتبة ليست لها وتكلمت بكلام لم تفهمه ، تلقفوه من إخوانهم الخوارج حين حكم علي رضي الله عنه يوم صفين فقالت : (لا حكم إلا لله) . وكان أول بدعة لقيت في رحلتي القول بالباطن فلما عدت وجدت القول بالظاهر قد ملأ به المغرب سخيف كان من بادية إشبيلية يعرف بابن حزم نشأ وتعلق بمذهب الشافعي ثم انتسب الى داود ثم خلع الكل واستقل بنفسه وزعم أنه إمام الأمة : يضع ويرفع ويحكم ويشرع ، ينسب إلى دين الله ماليس فيه ويقول عن العلماء مالم يقولوا تنفيراً للقلوب منهم ، وخرج عن طريق المشبهة في ذات الله وصفاته فجاء فيه بطوام . واتفق كونه بين[1] قوم لا بصر لهم إلا بالمسائل فإذا طالبهم بالدليل كاعوا[2] فيتضاحك مع أصحابه منهم ، وعضدته الرياسة بما كان عنده من أدب ، وبشبه كان يوردها على الملوك ، فكانوا يحملونه ويحمونه بما كان يلقي إليهم من شبه البدع والشرك . وفي حين عودي[3] من الرحلة ألفيت حضرتي منهم طافحة ، ونار ضلالهم لافحة ، فقاسيتهم مع غير أقران وفي عدم أنصار ، إلى حساد يطؤون عقبي ، تارة تذهب لهم نفسي ، وأخرى

(١) في الأصل من والتصحيح عن تذكرة الحفاظ للذهبي (٢) كاعوا : خافوا وجبنوا

(٣) في الأصل : عوده ولا يستقيم بها المعنى ، والتصحيح عن تذكرة الحفاظ .

ينكشر لهم ضرسي ، وأنا ما بين إعراض عنهم او تشغيب بهم . وقد جاءني رجل بجزء لابن حزم سماه (نكت الاسلام) فيه دواهي فجردت عليه نواهي ، وجاءني آخر برسالة (في الاعتقاد) فنقضتها بـ (رسالة العزة) والأمر أفحش من أن ينقض . يقولون : لا قول إلا ما قال الله ولا نتبع إلا رسول الله ، فإن الله لم يأمر بالاقتداء بأحد ولا بالاهتداء بهدي بشر . فيجب أن يتحققوا أنهم ليس لهم دليل وإنما هي سخافة في تهويل ، فأوصيكم بوصيتي : ألا تستدلوا عليهم وان تطالبوهم بالدليل ، فإن المبتدع إذا استدللت عليه شغب عليك وإن طالبته بالدليل لم يجد إليه سبيلاً . فأما قولهم : (لا قول إلا ما قال الله) فحق ولكن أرني ما قال ، وأما قولهم : (لا حكم إلا لله) فغير مسلم على الإطلاق ، بل من حكم الله أن يجعل الحكم لغيره فيما قاله وأخبر به . مع أن رسول الله صلى الله عليه وسلم قال : (وإذا حاصرت أهل حصن فلا تنزلهم على حكم الله لأنك لا تدري ما حكم الله ولكن أنزلهم على حكمك) وصح انه قال : (عليكم بسنتي وسنة الخلفاء ... الحديث . » اهـ

قلت : لم ينصف القاضي أبو بكر رحمه الله شيخ أبيه في العلم ، ولا تكلم فيه بالقسط ، وبالغ في الاستخفاف به ، وأبو بكر فعلى عظمته في العلم لا يبلغ رتبة أبي محمد ولا يكاد ، فرحمهما الله وغفر لهما .

[سبب طلبه العلم ، وبلوغه فيه درجة الاجتهاد] .

قال اليسع بن حزم الغافقي — وذكر أبا محمد — فقال : « أما محفوظه فبحر عجاج وماء ثجاج ، يخرج من بحره مرجان الحكم ، وينبت بثجاجه

ألفاف النعم في رياض الهمم ، لقد حفظ علوم المسلمين وأربى[1] على كل أهل دين ، وألف الملل والنحل ، وكان في صباه يلبس الحرير ولا يرضى من المكانة إلا السرير . أنشد المعتمد فأجاد وقصد بلنسية وبها المظفر احد الأطواد . وحدثني عمر بن واجب قال : بينما نحن عند أبي ببلنسية وهو يدرس المذهب إذ بأبي محمد بن حزم يسمعنا ويتعجب ، ثم سأل الحاضرين مسألة من الفقه جووب[2] فيها فاعترض في ذلك ، فقال له بعض الحضار : (هذا العلم ليس من منتحلاتك) فقام وقعد ، ودخل منزله فعكف ، ووكف منه وابل فما كف ، وما كان بعد أشهر قريبة حتى قصدنا إلى ذلك الموضع فناظر أحسن مناظرة وقال فيها : « أنا أتبع الحق وأجتهد ولا أتقيد بمذهب . »

[كلام للذهبي في الاجتهاد]

قلت : نعم من بلغ رتبة الاجتهاد وشهد له بذلك عدد من الأئمة لم يسغ له أن يقلد ، كما أن الفقيه المبتدي والعامي الذي يحفظ القرآن أو كثيراً منه لا يسوغ له الاجتهاد أبداً ؛ فكيف يجتهد ؟ وما الذي يقول ؟ وعلام يبني وكيف يطير ولما يريش . والقسم الثالث الفقيه المنتهي اليقظ الفهم المحدث الذى قد حفظ مختصراً في الفروع وكتاباً في قواعد الأصول وقرأ النحو وشارك في الفضائل مع حفظه لكتاب الله وتشاغله بتفسيره وقوة مناظرته . فهذه رتبة من بلغ الاجتهاد المقيد[3] وتأهل للنظر في دلائل الأئمة ، فمتى وضح له الحق في مسألة وثبت فيها النص وعمل بها أحد الأئمة الأعلام كأبي حنيفة

(١) في الأصل أزكى وهو تصحيف والتصحيح عن تذكرة الحفاظ (٢) هي في الأصل بواو واحدة
(٣) في الأصل : والمقيد

مثلاً أو كمالك أو الثوري أو الأوزاعي أو الشافعي وأبي عبيد وأحمد وإسحق .. فليتبع فيها الحق ولا يسلك الرخص ، وليتورع ولا يسعه فيها بعد قيام الحجة عليه تقليد . فإن خاف من تشغب عليه من الفقهاء فليتكتم بها ، ولا يتراءى بفعلها ، فربما أعجبته نفسه وأحب الظهور فيعاقب ويدخل عليه الداخل من نفسه . فكم من رجل نطق بالحق وأمر بالمعروف فيسلط الله عليه من يؤذيه لسوء قصده وحبه للرياسة الدينية ، فهذا داء خفي سار في نفوس الفقهاء ، كما أنه داء سار في نفوس المنفقين من الأغنياء وأرباب الوقوف والترب المزخرفة ، وهو داء خفي يسري في نفوس الجند والأمراء والمجاهدين: فتراهم يلتقون العدو ويصطدم الجمعان وفي نفوس المجاهدين مخبأة وكماين من الاختيال وإظهار الشجاعة ليقال .. ولبس العراقي (١) المذهبة والخوذ المزخرفة والعدد المحلاة .. على نفوس متكبرة وفرسان متجبرة . وينضاف إلى ذلك إخلال بالصلاة وظلم الرعية وشرب المسكر ، فأنى ينصرون ؟ وكيف لا يخذلون ؟ اللهم فانصر دينك ، ووفق عبادك . فمن طلب العلم للعمل كره العلم وبكى على نفسه ، ومن طلب العلم للمدارس والافتاء والفخر والرياء تحامق واختال ، وازدرى بالناس وأهلكه العجب ومقتته الأنفس قد أفلح من زكاها وقد خاب من دساها (أي دسسها بالفجور والمعصية . قلبت فيه الألف سيناً) .

ـ يتبع ـ سعيد الافغاني

(١) العرقية : مايلبس تحت العمامة والقلنسوة ، مولدة ــ التاج ، وفي الأصل: العراقل وهي تصحيف

مميزات بني أُمية (١)

سيداتي ، آنساتي ، سادتي

فضل بني أمية على قريش

لو حاول باحث ان يتحدث اليكم في موضوع مميزات بني أُميـة حتى يصورهم صورة تامة في الجملة لاحتاج الى بضع محاضرات ، ولكن مالا يدرك كله لا يترك جله . قال النسابون واصحاب السير والتراجم : إن أُمية تصغير أمة ، والأَمة المملوكة ، والنسب اليه أُموي بضم الهمزة فأما من قال أَموي بالفتح فقد أخطأ . وبنو أمية من أشرف قبائل قريش يلتقي نسبهم مع الرسول عليه الصلاة والسلام في جدهم عبد مناف . ومناف اسم صنم في الجاهلية مثل العزّى واللاّت ومناة وودّ وسواع ويغوث ويعوق ونسر ، وأميـة الاكبر هو من ولد عبد شمس بن عبد مناف وولده حرب وابو حرب وسفيان وابو سفيان وعمرو وابو عمرو ، وهؤلاء يقال لهم العنابس أي الأُسود . ومن ولده العاص وابو العاص والعيص وابو العيص ، وهؤلاء يدعونهم الأَعياص ؛ وأعياص قريش كرامهم ، يقال ما اكرم عيصه وهم آباؤه واعمامه وأخواله وأهل بيته .

وكان هاشم وعبد شمس والمطلب ونوفل أولاد عبد مناف بن قصيّ هم الذين يذهبون في التجارة الى البلاد المجاورة . يحمل هاشم الإيلاف لرؤساء القبائل ؛ والإيلاف العهد وشبه الاجازة بالخفارة ، وهو عبارة عن شيء من الربح ، ويجعل لهم مع ذلك متاعاً مع متاعه ، ويسوق اليهم إبلاً مع إبله ، ليكفيهم مؤونة الأسفار ، ويكفي قريشاً مؤونة الأعداء ، فكان المقيم رابحاً والمسافر محفوظاً . والى هذا

(١) محاضرة القاها الاستاذ محمد كرد علي في مدرّج الجامعة السورية بدمشق يوم ٣ ذي القعدة ١٣٥٨ و ١٤ كانون الأوّل ١٩٣٩ .

الإيلاف الاشارة في سورة قريش (لإيلاف قريش إيلافهم رحلة الشتاء والصيف فليعبدوا رب هذا البيت الذي أطعمهم من جوع وآمنهم من خوف) والمعنى انه تعالى منّ على قريش بما انعم عليهم من الايلاف الذي به كانوا يمتارون ويتجرون ولا يجوعون ، يرحلون رحلتين رحلة في الصيف وأخرى في الشتاء آمنين من اصحاب الفيل الذين جاءوا من الحبشة الى اليمن ليستولوا على البيت ·

وكان هاشم يرحل الى الشام ويقصد الى غزّة ، وبه سميت غزة هاشم وبها مات ، كما مات حرب بن أمية أيضاً في الشام ، وكان المطلب يرحل الى اليمن ، ونوفل الى فارس ، وعبد شمس الى أكسيوم من ارض الحبشة · فبنو أمية هم الذين هيأوا اسباب التجارة لقريش وانقذوهم من الغصوب ، أي من اخذ مال غيرهم ظلماً وعدواناً · وادخلوا مكة في طور مدني بعد ان كان عيش أهلها معقوداً بظبات السيوف وأسنة الرماح ، وبهم عُرفت قريش في ارض الروم والعجم والحبش ، وعرفوا هم العراق والشام واليمن والحبشة معرفة جيدة ، فبنو عبد مناف هم الذين كانوا اذاً يؤلفون الجوار ويجبرون قريشاً بميرهم ، وكانوا لذلك يسمون المجبرين ، والعرب تسميهم اقداح النضار لطيب أجسامهم وكرم فعالهم ·

مكانة أبي سفيان بن حرب

وكان ابو سفيان (صخر بن حرب) — والد معاوية ويزيد وزياد وعتبة وام حبيبة وجويرية — تاجراً عظيماً يجهز التجار بماله واموال قريش الى الشام وغيرها من ديار العجم ، وكان يخرج احياناً بنفسه ، وكانت اليه راية الرؤساء التي تسمى العقاب · واذا حميت الحرب اجتمعت قريش فوضعتها بيد الرئيس ، والعقاب العلم الضخم يعقد للولاة · وقاد ابو سفيان قريشاً كلها يوم أحد ولم يقدها قبل ذلك رجل واحد إلا يوم ذات نكيف ، قادها المطلب ، ويوم نكيف وقيل ذي نكيف وقعة كانت بين قريش وبني كنانة بناحية يلملم من نواحي مكة ، فهزمت قريش بني كنانة ، وكان صاحب امرها عبد المطلب او المطلب — وابو سفيان كان يوم أحد

ويوم الاحزاب رأس من حاربوا الرسول . ولما كان عائداً في تجارة قريش من الشام أمسك المسلمون عليه الطريق فأبلى بلاء حسناً حتى انقذ اموال التجار ، وكانت تقدر بخمسين الف دينار . وكان اذا ورد بلاد الروم اكرمه الأمراء والأعيان لمكانته في قومه . وكان قبل الاسلام يملك في البلقاء جنوبيّ الشام ضيعة يقال لها نقنّس . وكان في الجاهلية هو وعتبة وابو جهل أفضل الناس رأياً .

حارب ابو سفيان رسول الله يوم كان يصعب عليه ، اول الدعوة ، ان ينزل عن ارستقراطيته وامرته .

وقيل ان معاوية ويزيد اسلما قبل ابيهما ، وكتما عند اسلامهما ، وكذلك ابنته ام حبيبة واسمها رملة زوجة الرسول اسلمت قبل ابيها . وكانت تحت عبيد الله ابن جحش ، هاجرت معه الى ارض الحبشة فتنصر زوجها ، وثبتت هي على الاسلام ، فبعث الرسول عمرو بن أمية الضمري الى النجاشي ، لخطب عليه ام حبيبة فزوجها اياه ، واصدقها النجاشي من عنده عن رسول الله اربعمائة دينار . وزار ابو سفيان ابنته ام حبيبة لما قدم المدينة ليعلم الرسول ان يزيد في هدنة الحديبية ، ودخل على ابنته فأراد ان يجلس على فراش النبي فطوته دونه ، فقال : يا بنية أرغبت بهذا الفراش عني أم بي عنه ؟ فقالت : بل هو فراش رسول الله وانت امرؤ نجس مشرك فقال : يا بنية لقد أصابك بعدي شر .

وكان قبل اسلامه هو واولاده من المؤلفة قلوبهم يعطيهم الرسول من الغنائم والأموال ما يتألف به قلوبهم . وأسلم قبيل فتح مكة فقال العباس : يارسول الله انه (أي أبو سفيان) يحب الفخر فاجعل له شيئاً يكون في قومه فقال : من دخل دار ابي سفيان فهو آمن ، ومن دخل المسجد فهو آمن ومن اغلق عليه بابه فهو آمن ، ومن دخل دار حكيم بن حزام فهو آمن . فلما دخل في الاسلام دين المساواة ، حارب مع رسول الله يوم حنين والطائف ، وحارب يوم اليرموك تحت راية ابنه يزيد ، كان يقاتل ويقول يا نصر الله اقترب ، يا نصر الله اقترب . وكان يقف على الكراديس يقص أي يقف أمام سرايا العسكر ويعظ ، والقاص الداعية .

تميز نساء بني أمية

وتطور ابو سفيان لما أسلم ، واخلص في انتحال الدين الجديد ، كما كان مخلصاً من قبل في دينه القديم ، وابدى براعة حربية في الاسلام كان يبدي مثلها في الجاهلية . قال ابو سفيان للنساء اللاتي مع المسلمين يوم اليرموك – واليرموك النهر الذي كانت عنده الوقعة الفاصلة بين العرب والروم ، وبها فتح الشام كله جنوبه وشماله – وكان كثير من المهاجرات حضرن يومئذ مع أزواجهن وابنائهن وجلسن خلف صفوف المقاتلين : لا يرجع اليكن احد من المسلمين الا رميتنه بهذه الحجارة وقلتن له : من يزجركم بعد الفرار عن الاسلام واهله ، وعن النساء وهن امام العدو . ولما حمي الوطيس واستقبل النساء مُنْهَزِماً من انهزم من المسلمين أخذن يضربن وجوههن بعمد البيوت او عمد الفساطيط ويرمينهم بالحجارة ويقلن : أين أين عن الاسلام والأمهات والأزواج .

كان لنساء بني أمية وغيرهن مثل جُوَيرية ابنة ابي سفيان وكانت مع زوجها ، ومثل هند بنت عتبة أم معاوية بن أبي سفيان ومثل أُم حكيم بنت الحرث بن هشام ، وهذه قتلت سبعة من الروم في مرج الصفر بعمود الفسطاط ، وكانت عروساً ، والخلوق على جسمها تنبعث رائحته – كان لهن من البلاء العظيم يوم اليرموك ما يذكر بالفخر على وجه الدهر : قاتلن بالسيوف حتى سابقن الرجال ، وكان النساء في الجيوش العربية يعملن في طهي طعام المحاربين ، وجاب الماء اليهم ، وغسل ثيابهم ، وتضميد جراحهم ، وتمريض مرضاهم ، وغير ذلك مما تعمله اليوم أعظم نساء الغرب لرجالهم في الحرب .

ويحدثنا المؤرخون انه ما فتحت بلدة في الشام الا وجد على أسوارها وفي ارباضها كثير من رجال بني أمية صرعى ، لكثرة ما عانوا من الجهاد في فتحها . وتدرب يزيد ومعاوية من أبناء أبي سفيان في السياسة والادارة ، وكان معاوية كاتب الوحي ، وكان عمر اذا نظر اليه قال : هذا كسرى العرب . وعقد ابو بكر في خلافته

ليزيد بن ابي سفيان ، وكان يقال له يزيد الخير مع أمراء الجيوش الى الشام وقال : ان اجتمعتم في كيد فيزيد على الناس ، وان تفرقتم فمن كانت الواقعة مما يلي عسكره فهو على أصحابه ، وشيعه الصديق راجلاً وهو راكب وجعل يوصيه ، ولما مات يزيد في طاعون عمواس (سنة ١٨) ، وهو الطاعون الذي هلك به في الشام ألوف من الصحابة وغيرهم ، ضمّ عمر بن الخطاب لمعاوية ما كان من عمل أخيه يزيد ، وهو إمارة دمشق فصارت الشام لمعاوية . اما زياد ابنه الثالث فكان من أدهى العرب ، ومن أعظم رجال الادارة الذين انبغهم الاسلام ، عزله عمر بن الخطاب فقال زياد : أعن عجز عزلتني يا أمير المؤمنين ام عن خيانة ؟ فقال : لا عن ذلك ولا عن هذا ، ولكني كرهت ان احمل على العامة فضل عقلك .

منن بني أمية على العرب وتمدينهم

ولقد كان لأبي سفيان وأبيه حرب منة عظيمة على العرب في الجاهلية ، وذلك بنقلهما الخط الى جزيرة العرب من الحيرة ، وما كان الخط معروفاً في الحجاز ، فأثبتا بهذا ان بيتهما النبيل مصدر حضارة أيضاً ، ولأحد رجال بني أمية منة أخرى في الاسلام تعد عظيمة جداً في بابها ، وهي ان امير المؤمنين عثمان بن عفان جمع القرآن ، فنسخه من الصحف وارسل المصاحف التي كتبت منه الى الكوفة والبصرة ودمشق ومكة والمدينة وابقى عنده مصحفاً سموه الإمام ، ولولا عمله المجيد لضاع بعض آيات الكتاب العزيز لاعتياد العرب على الحفظ أكثر من الكتابة ، وكان بعض الصحابة يحفظون ما لا يحفظه غيرهم ، فاذا اتفق ان مات أحدهم يخشى أن يضيع ما كان يحفظه .

وكان امير المؤمنين عثمان يكرم حرملة بن المنذر الطائي ، وكان شاعراً نصرانياً يعلم بسير ملوك العجم . وأتى أمير المؤمنين معاوية بأمد بن أبد الحضرمي وبعبيد بن شرية الجرهمي من اليمن يقصان عليه اخبار ملوك العرب والعجم ، وامر بتدوين

ما كانا يوردان عليه ، فكان أول من بدأ بتدوين التاريخ في الاسلام ، واستصفى معاوية كعب الأحبار لكثرة علمه ، وكان يعطف كثيراً على الشاعر سعيد بن عريض بن عادياء أخي السموءل بن عادياء من يهود الحجاز . وحفيد معاوية خالد بن يزيد ، وكان يدعى عالم قريش ، هو الذي زهد في الخلافة كما زهد فيها أخوه معاوية الصغير من قبل وصرف وقته في ترجمة كتب الفلاسفة والنجوم والكيمياء والطب والحرب والصناعات من اللغات القبطية والسريانية واليونانية ، وهو أول من أنشأ خزانة كتب في الاسلام ، والغالب انها كانت في دمشق . وامير المؤمنين عمر ابن عبد العزيز الأموي هو الذي دوّن الحديث وأمر بترجمة كتاب في الطب لينتفع به الناس .

ولو لم يكن بنو أمية على جانب عظيم من النبوغ ومعرفة ثاقبة بحكم الناس ماوسد اليهم الرسول الولايات والأعمال العظيمة ، وقد انتقل الى جوار ربه وأكثر عماله منهم ، وما كان فيهم أحد من بني هاشم ، وما استطاع الخليفتان الأولان ابو بكر وعمر ان ينقضا ما أبرمه الرسول من ذلك . والوظائف الكبرى توسد في الدول لمن يوثق بهم ، ويعرفون روح الدولة اكثر من غيرهم ، والادارة يبرع فيها المتمرنون عليها ، وبنو أمية كانوا أمراء في الجاهلية وكانوا كذلك في الإسلام ، تناقلوا فيهم حكم الناس كابراً عن كابر .

ميزات معاوية

تولى معاوية الشام أربعين سنة ، عشرين سنة أميراً وعشرين سنة خليفة . وجاء عمر بن الخطاب الى الشام مرة فتلقاه معاوية في موكب عظيم ، فسأله عن سبب هذه الأبهة التي اصطنعها فقال : إننا في بلد لا نمتنع فيها من جواسيس العدو فلا بد لهم مما يرهبهم من هيبة السلطان فان أمرتني به أقمت عليه ، وان نهيتني عنه انتهيت ، فلم يأمره به ولم ينهه . أي أن معاوية اقنع خليفة مثل عمر بن الخطاب الذي كان لا يرى الا الخشونة لنفسه ولعماله ، بتقليد الروم في ظاهرهم . وما حاد معاوية عن

الأصول التي وضعها عمر بن الخطاب في الادارة ، بل أدخل فيها أموراً اقتضاها الزمان والمكان ، ففتح صدره لكل ما استحسنه مما كان عند الأمم المجاورة ، وكانت العرب لا تعرفه ، فأخرج الادارة بذلك من سذاجة البداوة الى بحبوحة الحضارة .

ما كان معاوية يصدر الا عن مشورة ولا يأتمن في ادارة الولايات والأعمال إلا الكفاة من أهل بيته غالباً ، ويستشير ارباب الرأي من انصار دولته ، وكان له منهم مجالس اشبه بمجالس النواب والشيوخ ، ومجالس في الولايات يدعونها مجالس الوفود . واستخدم النصارى في مصالح الدولة ، وكان عمر يمتنع من استخدامهم أو يسلموا ، فعهد الى سرجون بن منصور ثم الى ابنه منصور بن سرجون من نصارى الشام بادارة أمواله ، أي أن بني سرجون كانوا وزراء المال لمعاوية . وكان في جيشه الانباط والجراجمة والعجم وغيرهم من العناصر غير العربية وغير المسلمة ، فقام بتأسيس دولته بما تقوم به الدول ولا ينافي أصول الخلافة .

ومما يعرب عن سعة عقله وأنه عملي في جميع حالاته لا يبالي بالقشور والظواهر متى أوحى اليه العقل رأياً سديداً ما ذكره المؤرخون من أن عبد الله بن قيس غنم من صقلية أصناماً من ذهب مكللة بالجوهر فحملها معاوية من دمشق وأنفذها الى البصرة ومنها الى الهند لتباع فيها لأنه رأى بيعها قائمة أكثر لثمنها ، ولم يبال انتقاد المتزمتين من المسلمين .

توفر معاوية على تحسين آلة الحكم وادخل عليها ما ينفعها ويقويها ، وتسامح ولم يضيق على نفسه ولا على أمته في ادخال التجدد وعرض على جبلة بن الأيهم سيد بني غسان — لما هرب الى الروم لأن عمر أراد ان يقتله بمن قتله — أن يعطيه الغوطة كلها اقطاعاً على أن يعود من الروم ويرجع الى الاسلام ، يريد بذلك ان يتلافى ما وقع من عمر في ذلك ويقوي الاسلام به . وبجميل سياسته أخرج الخلافة من آل عليّ الى بني أمية وأخذها من الحسن بن عليّ بمال دفعه اليه ووعود وعده بها ، وكان بذلك عام الجماعة اي اجماع المسلمين على إمام واحد .

وابتكر معاوية أموراً رأى فيها فائدة عامة منهـا انه أول من وضع الحشم للملوك ، ورفع الحراب بين ايديهم ، ووضع المقصورة التي يصلي فيها الخليفة منفرداً عن الناس ، والشرطة على رأسه اذا سجد ، وهو أول من اتخذ حرس الليل ، وأول من غزا في البحر وأنشأ الأسطول في صناعة صور وطرابلس ، وكان كثيراً ما يطلب من الخليفة الثاني ان يأذن له بصنع الأسطول فلا يرضى بالتوسع في ذلك ، وما سمح بركوب البحر الا للمتطوعة يبحرون برضاهم غير مكرهين ولما جاء الخليفة الثالث انطلق معاوية في بناء السفن كما أراد ، وكان معه في فتح رودس وقبرص ألف وسبعمائة سفينة ، هذا عدا السفن التي أحرقت في طرابلس بأيدي أناس من صنائع الروم ، وكان روم القسطنطينية في خوف من أسطوله في البحر ، كما يحسبون الف حساب لجيشه في البر .

بعض أعمال معاوية في اصلاح الدولة

ومن أهم ما قام به تنظيم الجيش ، وادخال الإصلاحات التي تزيد في قوته ، وتجعله ابداً تحت السلاح عند الطلب ، فضاعف لذلك عطاءه وارزاقه ، ووقت اوقاتاً لتناول الرواتب ، فهو اول من نظم الجيش بهذا النظام الغريب ، وجهزه بكل مايلزمه ، وجعل الجندي لايستند في معاشه على غير رزقه من بيت المال . وكان لكل جند من اجناد الشام جيش خاص به من أهل الاقليم الذي يتألف فيه ، والجند هو مانسميه بالفرنسية Le gouvernement militaire فمن جند دمشق ، الى جند الأردن ، الى جند فلسطين ، الى جند قنسرين . وأهم ما كانوا يهتمون له المرابطة على الحدود والثغور القريبة من ارض الروم . ولطالما ادهش معاوية الروم بصدقه كما ادهشهم بوفائه ودهائه . وقد ارتهن مرة رهائن منهم وضعهم في بعلبك ، فغدر به الروم بعد مدة ، فلم يستحل قتل من في يديه من رُهنهم واخلى سبيلهم وقال : وفاء بغدر خير من غدر بغدر .

ومعاوية اول من وضع البريد ، أحضر رجالاً من دهاقين الفرس فعرفهم مايريد

فوضعوا له البريد واتخذوا له بغالاً بإكاف كان عليها سفر البريد ، وكان لا يجهز عليه الا الخليفة او صاحب الخبر أي مدير الاستخبارات . وكان لصاحب الخبر في الاسلام شأن عظيم كما له عند الدول الحديثة . وهو الذي اخترع ديوان الخاتم وحَزْم الكتب ، ولم تكن تحزم ، وجعل على كل قبيلة من قبائل مصر رجلاً يصبح كل يوم فيدور على المجالس فيقول : هل ولد الليلة فيكم مولود وهل نزل بكم نازل ؟ فيقال ولد لفلان غلام ولفلان جارية فيكتب أسماءهم ، ويقال نزل بهم رجل من اهل كذا بعياله فيسميه وعياله ، فاذا فرغ من هذا القبيل اتى الديوان حتى يثبت ذلك . وبهذا كان الخليفة يحصي السكان ولا يفوته خبر المتنقلين في ربوع بلاده .

كان لمعاوية انواع من السياسات برّز فيها حتى عدّ من أعظم ساسة العرب . كان لا يولّي الا السيد المسوّد في قومه ، ويستميل القلوب بالعطاء او بالاقناع او بالإغضاء ، فاذا لم تنجع هذه الوسائل وتوجس شراً ممن اغضى عنه وترضاه فلم يفلح عمد الى القسوة ، وكان يقول لا أضع سيفي حيث يكفيني سوطي ولا اضع سوطي حيث يكفيني لساني ، ولو ان بيني وبين الناس شعرة ما انقطعت . وكان يقول : إني لا أحول بين الناس وبين ألسنتهم ما لم يحولوا بيننا وبين سلطاننا . أي انه يطلق للناس حرياتهم فاذا لجأوا الى اظهار القوة اذاقهم بأسه الشديد . وكان يبذل الأموال العظيمة للعلويين والهاشميين فاذا لامه احد على هذا البذل اجابهم إن الحرب تستلزم نفقات اكثر من هذا العطاء . وكذلك كان ابنه وولي عهده يزيد : أعطى عبدالله بن جعفر اربعة آلاف الف فقيل له : أتعطي رجلاً واحداً هذا ؟ فقال : ويحكم إنما اعطيتها اهل المدينة اجمعين . فما يده الا عارية .

واستخدم معاوية القصاص للدعاية السياسية يقعدون في المساجد والمعسكرات يدعون لدولته وينفرون من اعدائها ، وهذه الدعاية لم تكن زمان النبي ولا زمان صاحبيه ابي بكر وعمر ، وكان القاص اذا سلم الامام من صلاة الصبح جلس فذكر الله وحده

ومجده، وصلى على نبيه، ودعا للخليفة ولأهله ولأهل بيته وجنوده، ودعا على اهل حربه . واستخدم ايضاً الشعراء للدعاية، وزين لهم الدعوة الى التفاخر بالقبيلة والأيام المشهورة، واخرج الشعر من الهجاء بعض الشيء، وكان الشعراء في الدهر الغابر كأرباب الصحف في المدنية الحديثة يفعلون في عقول الناس بشعرهم، خصوصاً اذا كان الشاعر فحلاً مفلقاً . اما الخطابة فكان جميع أهله خطباء، وقد كان قوادهم ورجالهم كذلك خطباء أبيناء . وخطب زياد وعقبة والحجاج من ابلغ ما يؤثر عن خطباء العرب .

ابداع معاوية

كان معاوية يخرّج عماله في الادارة ويعلمهم إياها بالعمل، ولا يعتمد الا على العظماء والدهاة امثال عمرو بن العاص والمغيرة . وكان من عادته اذا اراد ان يولي رجلاً من آله بني حرب ولاه الطائف، فان رأى منه خيراً ومـا يعجبه ولاه مكة معها، فان احسن الولاية وقام بما ولي قياماً حسناً جمع له معها المدينة، فكان اذا ولي الطائف رجلاً قيل هو في ابي جاد، فاذا ولاه مكة قيل هو في القرآن، فاذا ولاه المدينة قيل هو قد حذق .

وله في سياسة العناصر ضروب من الابداع منها انه رأى النصارى كثرة غامرة في الشام فما احب اجلاءهم، وما رأى من السياسة تركهم وشأنهم، لئلا يستعين بهم الروم على الفاتحين، فنقل الى الساحل قوماً من زط البصرة والسيابجة وانزل بعضهم انطاكية، ونقل قوماً من فرس بعلبك وحمص وانطاكية الى سواحل الأردن وصور، ونقل من أساورة البصرة والكوفة (الأساورة قوم من العجم بالبصرة كالأحامرة بالكوفة) وفرس بعلبك وحمص وانطاكية جماعة . واسكن حصن سفيان الذي بناه على اميال من طرابلس، جماعة كثيرة من اليهود، واسكن الشام كله جمهرة من القبائل العربية مزجهم بأهلها الأصليين، فأصبح الساحل كالداخل في هذه الديار غاصاً بالعجم والعرب وبالسود والبيض وبالمسلمين والنصارى واليهود .

رأى معاوية أن ارض الحجاز قاحلة ، يعيش اهلها في شظف من العيش ، على هذا كانوا منذ اقدم عصور التاريخ ، ولما جاء الاسلام وفتحت البلاد و كثرت الأموال فرض عمر بن الخطاب العطاء ، فأصبح الناس يعيشون من عطائهم ، وكان بعضهم يعيشون في الجاهلية من تجارتهم . وفي الاسلام دخل الممتازون في اعمال الدولة ، ولكن هذا لم يدم طويلاً ، على ما تنبأ به حكيم بن حزام لعمر ، فتركت قريش التجارة واكتفت بالعطاء ، ثم بطل العطاء وبطلت التجارة ، لما تحولت دار الملك من المدينة الى دمشق .

خشي معاوية ان يهلك الناس في الحجاز اذا اعتمدوا على الموسم موسم الحج ، أو على صدقات المسلمين ، فمن في جملة ما عني به من أعماله باصلاح الزراعة في بلاد الحجاز ، فأحيا موات الأرضين ، واحتفر الآبار للسقيا ، واقام سدوداً لخزن المياه والأمطار ، فعاشت الحجاز من ارضها قرناً لم تشهد مثله من قبل ولا من بعد . وسارت أسرته على قدمه في هذا الباب فما ابطلت عمله بل تعهدته ونمته . وتسلسل الفكر ماثل في بني أمية يتم الآخر أبداً ما بدأ به الأول ، لا ينقضه ولا يغيره .

واعظم ما فاز به معاوية ان رعيته من اهل الشام كانت تحبه محبة عظيمة ، وبهم وري زناده ووصل الى اهدافه وكتب له النصر على اعدائه .

ميزات بني أمية

ويطول بنا نفس القول اذا اردنا ان نعرض لكل خليفة من خلفاء الأمويين ، وما قام به من الأعمال العظام في السياسة والادارة ، واذا وازنا بين الرجال لا نرى من عيارهم في الدول الخالفة كثيراً ممن يدانيهم ، واين مثل مروان ، وابنه عبد الملك وابنه عبد العزيز وسليمان بن عبد الملك ، والوليد بن عبد الملك ، وهشام بن عبد الملك وعمر بن عبد العزيز ؟ ولعمر بن عبد العزيز في أمور الدولة وسياستها وتنظيم ادارتها ابداع لم يعهد مثله الا لجده لأمه امير المؤمنين عمر بن الخطاب رضي الله عنه ، وكانت له في باب التقوى والزهد اعمال تتضاءل معها سيرة الزهاد المشهورين .

قال ابن الأثير: ولقد سمعت عن عمر بن العزيز كلمة اعجبتني جداً ، وهي انه قيل له في الذي يخرجه ويطلقه من الأموال التي لا تسمح نفس بعضها فقال لهم : أنا فتحت الدكان بعد العصر ، فاتركوني اعمل الخير فكم اعيش ؟ وكذلك كان .

ومما امتازت به دولة الأمويين انها كانت دولة عربية صرفة بدمها وأخلاقها وعاداتها ومراميها ومظاهرها ، وكان ابناؤها كلهم يحرصون على التزوج من العربيات من بنات الأشراف ، ولم يكن في جميع خلفائهم من أمه أم ولد غير مروان بن محمد آخر خلفائهم في الشرق ، كانت أمه كردية ، على حين كان العباسيون كلهم ابناء إماء الا اولهم السفاح ، ولذلك جعلوه اول خلفائهم وقدموه على المنصور وهو اكبر منه سناً وعلماً وسابقة . افسد العباسيون دمهم العربي بالاقتران بالاماء ، وافسدوا عصبيتهم بما كان من زهدهم في عنصرهم واعتمادهم على ابناء خراسان وعلى الموالي والعبيد فسقطت الأصول وقامت الفروع بدلها ، وأصبح بنو العباس على طول الأيام خلاسيين وهجناء لا بالعرب ولا بالعجم . اما بنو أمية فما عهد فيهم هذا ، كان دمهم صافياً واخلاقهم متشاكلة ، ويقوم نساؤهم ورجالهم عند الحد الذي رسمته لهم الفطرة ، وقضت به احكام الشريعة .

ما سمع في دولة بني أمية ان يتدخل النساء في شؤون الدولة وقد رأينا الحرم في الدولة العباسية منذ عهد المنصور يتدخلن فيما لا يعنيهن من شؤون الرجال ، ولذلك اوصى المنصور ابنه الا يجعل للنساء سبيلاً الى الدخول في مهمات دولته . وكان من اثر تغيير الدم العباسي واتخاذ أمهات أولادهم من الفارسيات والروميات والكرجيات وغيرهن ان كثرت المؤامرات في قصور الخلفاء ، واصبح قتلهم من الأمور المعتاد وقوعها ، وكانوا — اذا استثنينا منهم المنصور والرشيد والمأمون والمعتصم واثنين او ثلاثة من المتأخرين من خلفائهم — الى ذل ليس بعده ذل ، واكثرهم أشبه بمشايخ طرق في زواياهم منهم بخلفاء يأمرون في قصورهم فلا يعصون ، ويشهرون الحرب ويعقدون الصلح ، واحكامهم نافذة في القاصية والدانية .

ربما يُعترض على هذا بأن الوليد بن يزيد من الأمويين قد قُتل أيضاً ، والغالب انّ قتله كان بسبب تخليه عن اليمانية لا لفسقه ولا للهوه كما اتهموه ، وهذه التهمة اذاعوها ليبرروا أمام الأمة مقتله ، اما سائر خلفائهم فكانوا في الغاية من السياسة والشجاعة والحزم والتقوى والعمل ليل نهار على مصالح دولتهم ومصالح الناس . وكان آخرهم مروان بن محمد على غاية العقل وحسن التدبير ، ولما نفذ القضاء سقطت الدولة بيده ، حتى ان الخليفة الذي جار عليه التاريخ — وتاريخ بني أمية كتبه اعداء دولتهم بعدهم ، كما شاءت الأهواء السياسية — ونعني به امير المؤمنين يزيد بن معاوية لم يكن باجماع ثقات المؤرخين بالدرجة التي صوره بها اعداء دولتهم ، ولا هو الذي قتل الحسين ولا امر بقتله ، ولما جاءه خبر مقتله اضطرب ولعن قاتله ، فاتخذ أعداؤه من هذه الفاجعة المؤلمة حجة على الحط من يزيد وآل يزيد .

عمران الأمويين وتأثيراتهم الدينية والمدنية

ومما امتازت به دولة بني أمية غرام رجالها بالعمران ، فقد اقام خلفاؤهم في المشرق أمثال الوليد بن عبد الملك وهشام بن عبد الملك من الجوامع والمستشفيات والخانات ودور الضيافات والقصور والطرق والجسور والسدود وتمصير الأمصار وتحضير البوادي والقفار ما هو عجيبة تلك العصور ، وما زال الجامع الأموي بدمشق وقصر الحير الذي اكتشف في البادية وجيء بنموذج منه الى متحف دمشق شاهدين على تلك العناية الفائقة وتلك المدنية الباهرة . قال احد دهاقين خراسان لعاملها من بني أمية (والدهقان رئيس الاقليم) إنكم بنيتم الايوانات في المفاوز ، فيجيء الجائي من المشرق والآخر من المغرب فلا يجدان عيباً الا ان يقولا : سبحان الله ما أحسن ما بني .

أما ماقامت به دولتهم في الغرب من الأعمال العظيمة على يد مؤسسها عبدالرحمن الداخل وآل بيته فأشاد به مجد آبائه بعد ان قضى العباسيون في الشرق على كل أموي وأموية فالكلام عليه يطول . ولا نغالي اذا قلنا ان ثلث ماتم للعرب من

حضارة تام في الأندلس بفضل بني أمية ، والثلثان الآخران تا،ا في بغداد ودمشق والعواصم الأخرى كمصر ونيسابور وشيراز والري وأصفهان وغزنة .

وبما عرف به الأمويون من مرونة سياسية وادارة حكيمة رشيدة انتشر الاسلام وانتشرت اللغة العربية في القاصية من دون ما دعاية ولا تبشير مبشرين ، وامتد ملكهم الواسع في بلاد تبلغ مساحتها نحو ثلاثة ارباع مساحة اوربا ، وقدرها بعضهم بثلاثة آلاف وسبعمائة فرسخ وذلك من سواحل الاطلنطي الى تخوم الصين ، ومن جبال القوقاز وما وراءها الى خط الاستواء وما وراءه . وفي عهدهم دخلت في الاسلام أمم كثيرة من السلالة السامية (العرب والسريان والكلدان) ومن السلالة الحامية (المصريون والنوبيون والبربر والسودان) ومن السلالة الآرية (الفرس واليونان والاسبان والأهاند) والاهاند او الهنادك رجال الهند ، ومن السلالة التورانية (الترك والتتار) وكانت تقام شعائر الاسلام ويقرأ القرآن في قرطبة وفاس كما تقام الصلوات في السند وسمرقند ، وتتلاقى العناصر المختلفة في الموسم بمكة ، وفيهم الاسود والأحمر والأصفر والابيض تجمعهم جامعة الاسلام والطاعة لبني أمية . واصبحت دمشق هذه في نظر المسلمين كرومية في نظر اهل النصرانية ، وما كانت قبل عهد الأمويين تعد شيئاً بين العواصم والحواضر ، ودك العباسيون معالم عمرانها عندما فتحوها مخافة ان ينسب للأمويين شيء من الحسنات تذكر الناس بخصومهم أمس ، وقضوا على كل اثر لهم على نحو ما فعل التتار بالعباسيين في القرن السابع لما استولوا على بغداد عاصمة ملكهم وقضوا على الخلافة العباسية

(يتبع)



اولية تدوين المعاجم
وتاريخ كتاب العين المروي
عن الخليل بن أحمد

أحاط بكتاب العين ونشأته كثير من الغموض ، وتضاربت أقوال الناس في مؤلفه تضارباً شديداً ، وكثر الطعن فيه حتى ليصعب على الباحث أن يتخذ لنفسه بشأنه رأياً خالصاً من كل شائبة ، وأين هذا من قيمة الكتاب وحسن الأثر الذي أحدثه في عالم المعاجم العربية إذ كان أولها وفيه ظهر الترتيب على حروف المعجم وعنه أخذ . وقد تعرض بعض علماء عصرنا للبحث في كتاب العين بحثاً متعاً[1] وعنوا ببعض نواحيه غير أنهم جميعاً لم يذكروا بالتفصيل تاريخ نشأته وكيفية تأليفه مع أن ذلك فصل جليل القدر من تاريخ علم اللغة العربية بل من تاريخ العلوم العربية عامة لما له من أثر في نشوء ترتيب الألفاظ على حروف المعجم ذلك الترتيب الذي اتخذه مؤلفو العرب نهجاً في التأليف اقروه واستفادوا منه وقدموه خالصاً لعلماء الغرب يجنون منه أحسن الثمر .

وسأحاول في هذا البحث أن أسد هذه الثغرة ما استطعت ، وسبيلي إلى ذلك أن أدرس أولاً أقوال العلماء في كتاب العين واحررها ثم اذكر كيف أسس بناؤه فاستطرد إلى الترتيب على حروف المعجم وأثر الخليل بن احمد في ذلك واختم البحث في صورة اتمام الكتاب بعد تأسيس بنائه .

---

(١) نذكر منهم على ترتيب تاريخ نشر أبحاثهم الاستاذ جرجي زيدان في تاريخ آداب اللغة العربية ٢ : ١٢٢ — ١٢٤ والاستاذ احمد أمين في ضحى الاسلام ٢ : ٢٦٦ — ٢٦٩ والاستاذ وليام مارسيه في درس له عن المعاجم العربية ألقاه عام ١٩٣١ (اخذ عنه مذكرات الاستاذان محمد المبارك وخلدون الكتاني وتفضلا باعارتي هذه المذكرات) والاستاذ الاب انستاس مارى الكرملي في مجلة الثقافة السنة الاولى العدد ٣٢ ص ٤٢ — ٤٥ والعدد ٧٣ ص ٣٢ — ٣٣ الى غير ذلك من الابحاث التي سنذكرها خلال دراستنا هذه .

١ — اقوال العلماء في كتاب العين وتحريرها

لم يُعرف كتاب العين في حياة مَن نُسب إليه اي الخليل بن احمد[1] نابغة العرب ومبدع علم العروض ومثقف الأنغام، ولم يرو الكتاب عنه تلميذ معروف من تلامذته بل ظهر بعد وفاته سنة ١٧٠ او ١٧٥ ورواه الليث بن المظفر بن نصر بن سيار[2] من فقهاء خراسان وظهر في كتاب العين ما يدعو اكثر من مرة إلى استنكار نسبته إلى الخليل حتى لقد قيل « اتفق علماء اللغة على كثرة الأغاليط في كتاب العين[3] » « واطبق الجمهور منهم على القدح فيه[4] » « فان فيه من التخليط والخلل والفساد مالا يجوز ان يحمل على أصغر أتباع الخليل فضلاً عن نفسه[5] » والخليل كان امة في اللغة « يُربأ به عن نسبة الخلل إليه[6] » زد إلى ذلك « ان ما وقع في الكتاب من معاني النحو انما هو على مذهب الكوفيين وبخلاف مذهب البصريين[7] » مع ان الخليل شيخ البصريين . وهنالك مآخذ أخرى على الكتاب سنراها فيما يأتي ؛ على ان كل هذه الحجج لا تستقيم في تعليل ادعاء

(١) ذكر الاستاذ ابن شنب في معلمة الاسلام الطبعة الافرنسية ٢ : ٩٤٠ والاستاذ بروكلمان في تاريخ الآداب العربية (G. A. L.) ١ : ١٠٠ وفي ذيله له ايضاً ١ : ١٠٩ المظان التي ترجم فيها للخليل بن احمد ونضيف اليها اخبار النحويين البصريين للسيرافي طبعة الأستاذ كرنكو ص ٣٨ والكامل لابن الاثير في وفيات سنة ١٦٠ ، ٦ : ١٨. وتاريخ ابن كثير ١٠ : ١٦١ في وفيات سنة ١٧٠ وغاية النهاية في طبقات القرا ١ : ٢٧٥ ومفتاح السعادة لطاشكبري ١ : ٩٥ وطبقات النحويين لابن قاضي شهبه نسخة الظاهرية تاريخ ٤٣٨ ص ٢٧٩ وتنقيح المقال للمامقاني ١ : ٤٠٢ ومنتهى المقال لابي علي ١٢٨ ورجال ميرزا محمد ١٢٢ وسرح العيون لابن نباته ص ١٤٤ ـ ١٤٧ طبعة ١٢٧٨

(٢) يترجم له الازهري في تهذيب اللغة ص ٢٧ من طبعة زترستين Zettersten وياقوت في رشاد الاريب طبعة مارجليوث ٦ : ٢٢٣ ـ ٢٢٧

(٣) النووي ، تهذيب الاسماء واللغات ص ٢٣١

(٤) المزهر مطبعة الاسماعيلية ، ١٢٨٢ ، ١ : ٣٨ و ٤٥

(٥) عن ابن جني في المزهر ، ١ : ٤٠ والبلغة لمحمد صديق حسن خان ، طبعة ١٢٩٦ ص ١٥٨

(٦) عن الزبيدي في المزهر ١ : ٤١

(٧) عن الزبيدي في المزهر ١ : ٤٢ وكشف الظنون طبعة ١٣١١ ، ٢ : ٢٩٠ .

الليث بن المظفر نسبة الكتاب الى الخليل ، والكتاب إبداع يتمنى كل عالم ان ينسب اليه . وكذلك تضاربت آراء العلماء وانقسموا الى طوائف اربع في امر نسبته الى الخليل .

نسب الى الطائفة الأولى القول بان الخليل لاعلاقة له بكتاب العين فذكر ان ابا بكر بن دريد (٢٢٣ – ٣٢١) قال : « لم يرو هذا الكتاب عن الخليل احد ولا روي في شيء من الأخبار انه عمل هذا البتة[١] » والحق ان ابن دريد لم يقل هذا فقد ورد في كتاب الجمهرة له ما يناقضه[٢] وفي الخبر مغالاة كبيرة وخطأ فقد روى ابن راهويه (–٢٣٨) الفقيه المعاصر لليث ان الخليل شرع في عمله[٣] كما سنرى ذلك ، وذكر لنا ابن فارس (–٣٩٥) انه قرأ الكتاب مرويا بسند أوصله الى بندار بن لوه الأصفهاني ومعروف بن حسان عن الليث عن الخليل[٤] » وذكر ابو محمد بن درستويه (٢٥٨ – ٣٤٧) انه سمع كتاب العين بهذا الاسناد : « قال ابو الحسن على بن مهدى الكسروي ، حدثني محمد بن منصور المعروف بالزاج المحدث قال قال الليث بن المظفر بن نصر بن سيار كنت اسير الى الخليل[٥] » الى آخر ما ذكر . ورواه ابن عبد البر الاندلسي[٦] (–٤٦٣) وابو بكر محمد بن خير بن خليفة[٧] (٥٠٢ – ٥٧٥) بسند يتصل الى ابي الحسن علي بن مهدي عن ابي معاذ عبد الجبار بن يزيد عن الليث بن المظفر بن سيار الليثي عن ابي عبد الرحمن الخليل . ولعل الناس رأوا ان كتاب العين انتقل الى علماء كثيرين دون رواية فظنوا ان لا رواية له فنسبوا الى ابن دريد مالم يقل

---

(١) في الفهرست طبعة فلوجل ص ٤٢ – ٤٣ (٢) قال في ١/٣ « وقد الف ابو عبد الرحمن الخليل بن احمد ... كتاب العين فأتعب من تصدى لغايته » (٣) التهذيب للازهري ص ٢٧ وارشاد الاريب لياقوت طبعة مارجليوث ٦ : ٢٢٢ (٤) المقاييس في اللغة نسخة مصورة في المجمع العلمي ص ١ (٥) في الفهرست ٤٣ (٦) في المزهر ١ : ٤٦ (٧) في فهرسة مارواه عن شيوخه في المكتبة الاندلسية ص ٣٦٩ .

وذكروا عن ثعلب (٢٠٠ — ٢٩١) انه قال ان « كتاب العين موجود ولا رواية له[1] » وقالوا سئل النضر بن شميل (— ٢٠٣) عنه فأنكره فقيل له: لعله ألفه بعدك، فقال: اوخرجت من البصرة حتى دفنت الخليل بن احمد[2] » ولعلهم نسوا ان النضر لو كان صاحب الكتاب لما كان نسبه الى الخليل بل تبجح به. وذكر الزبيدي في رفض الكتاب مايلي[3] « لما ورد كتاب العين من بلد خراسان في زمن ابي حاتم انكره ابو حاتم واصحابه اشد إنكار ودفعه بأبلغ الدفع، وكيف لا ينكره ابو حاتم على ان يكون بريئاً من الخلل سليماً من الزلل وقد عبر أصحاب الخليل بعد مدة طويلة لا يعرفون هذا الكتاب ولا يسمعون به منهم النضر بن شميل ومؤرج ونصر بن علي وابو الحسن الأخفش وامثالهم ... ثم ظهر الكتاب بأخَرَةٍ في زمان ابي حاتم وفي حال رياسته وذلك فيما قارب الخمسين والمائتين لأن ابا حاتم توفي سنة ٢٥٥[4] » وليس في هذا القول تحقيق فكيف لا يعرفه ابو فيض مؤرج بن عمرو السدوسي العجلي[5] وقد استدرك عليه كما يقول ابن النديم[6] واستدرك عليه النضر بن شميل[7] ايضاً واذ قد عرفه مؤرج (توفي سنة ١٩٥) والنضر بن شميل (توفي سنة ٢٠٣ او ٢٠٤) فهو قد انتقل من خراسان قبل سنة ٢٥٠ ففي هذا الخبر أغلاط تاريخية تجعلنا نشك في بقيته اذ تقول « ولم يلتفت اليه احد من العلماء، ولا استجازوا رواية حرف منه ولو صح الكتاب عن الخليل لبدر الاصمعي واليزيدي وابن الاعرابي واشباههم الى تزيين كتبهم وتحلية عملهم عن الخليل والنقل لعلمه وكذلك من بعدهم كأبي حاتم وابي عبيد ويعقوب وغيرهم من المصنفين فما علمنا احدا نقل في كتابه عن الخليل من اللغة حرفاً »، واذا

(١) الفهرست ٦٠ (٢) ارشاد ٦ : ٢٢٧ وانظر عن النضر بروكلمان ١ : ١٠٢ وذيله ١ : ١٦١ (٣) المزهر ١ : ٤٢ (٣) المزهر ١ : ٤٢ وانظر عن ابي حاتم سهل بن محمد السجستاني بروكلمان ١ : ١٠٧ وذيله ٢ : ٦٧ (٥) أنظر بروكلمان ١ : ١٠٢ (٦) الفهرست ٤٣ (٧) كشف الظنون ٢ : ٢٩١ ، نزهة الالباء للانباري ، طبعة ١٢٩٤، ص ١١١ ، وفيات الاعيان ٢ : ١١٣

قبلنا ان هؤلاء العلماء لم يستجيزوا الرواية من الكتاب فذلك لأنهم لم يثقوا براوي الكتاب والحق يقال اننا لم نتلق خبراً موثوقاً عنهم ينفي اثر الخليل من الكتاب نفياً باتاً حتى إن الزبيدي الذي يورد هذه الاعتراضات لا ينفي عن الخليل يده في الكتاب .

والطائفة الثانية تنسب الكتاب الى الخليل وعلى رأسها ابن فارس (— ٣٩٥) الذي يدعي ان « اعلا كتب اللغة كتاب ابي عبد الرحمن الخليل بن احمد المسمى كتاب العين[1] » ومنها الانباري الذي يقول ان « الخليل اول من ضبط اللغة واملي كتاب العين على الليث بن المظفر[2] » ويقول بتأليف الخليل للكتاب ابن خلدون[3] وابو بكر بن خليفة[4] ومحمد صديق حسن خان[5] وابن شنب[6]. ولعلهم حين قالوا بذلك لم ينتبهوا الى المطاعن على الكتاب ، ودليلنا على ذلك أن ابن فارس حين يذكر اخطاء كتاب العين يخشى ان ينسبه بنفسه الى الخليل فيقول « واما الكتاب المنسوب الى الخليل فان فيه من الأخلال ما لا خفاء به على علماء اللغة[7] » وكذلك يبدو ان هذه الطائفة لم توثق قولها بدليل بل القته على عواهنه بلا تحرير .

والطائفة الثالثة تدعي ان الخليل شرع بالكتاب ومات قبل ان يتمه فأتمه الليث . واول من قال بذلك على ما نعلم اسحاق بن ابراهيم الحنظلي بن راهويه الفقيه (—٢٣٨) وهو عالم خراسان تلك البلدة التي ألف فيها الكتاب فقد ثبت عنه انه قال « كان الليث بن المظفر رجلاً صالحاً ومات الخليل ولم يفرغ من كتاب العين فأحب الليث ان ينفق الكتاب كله فسمى لسانه الخليل[8] » وذُكر عنه انه قال « كان الخليل عمل منه باب العين وحده وأحب الليث ان ينفق سوق

(١) المقاييس في اللغة ص ١ (٢) نزهة الالباء ٥٥ (٣) المقدمة في باب اللغة .
(٤) فهرسة ما رواه ٣٦٩ (٥) البلغة ٢٦ (٦) معلمة الاسلام الطبعة الافرنسية ٢ : ٩٦٠
(٧) الصاحبي في فقه اللغة ٥ مط المؤيد ١٣٢٨ ، من ١٨ (٨) التهذيب ٢٧ ارشاد الاريب ٦ : ٢٢٢

الخليل فصنف باقيه[1] » وثانيهما السيرافي (—٣٦٨) فقد قال في طبقات النحاة في ترجمة الخليل « عمل اول كتاب العين المعروف المشهور[2] » وهذه العبارة كما يقول السيوطي « صريحة في ان الخليل لم يكمل كتاب العين[3] » وثالثهما الازهري (٢٨٢—٣٧٠) ويدعي « انه لم ير خلافاً بين اللغويين ان الثابت المحمل في اول كتاب العين لأبي عبد الرحمن الخليل بن احمد وان ابن المظفر اكمل الكتاب عليه بعد تلقفه اياه عن فيه[4] » ويتبع هؤلاء عدد من العلماء[5]

وقد حيكت الأقاصيص حول هذه الفكرة فروي عن الحسن بن علي المهلبي ان الخليل كافأ الليث بالكتاب فخرقته امرأة الليث نكاية بزوجها ، وكان قد حفظ نصفه فرغب الى العلماء ان يجمعوا النصف الآخر ، وكذلك خرج الكتاب غير متساوي التأليف[6] . واقوال هذه الطائفة جميعاً مردودة عند من درس الكتاب فوجد ان المآخذ عليه هي في اول الكتاب وآخره وفي باب العين وغيره من الابواب كما سنرى ، ولو انها تزيد وتنقص تبعاً للابواب .

والرأي الذي ينجو من كل اعتراض وجيه قول الطائفة التي ترى ان الخليل رسم الكتاب ولم يحشه ، اي انه وضع ابواب الكتاب ورتبها ثم حصر الابنية المستعملة والمهملة دون ان يذكر معناها واشتقاقها ونذكر في اولها احمد بن يحيى ثعلب (٢٠٠ – ٢٩١)[7] الذي يقول : « انما وقع الغلط في كتاب العين لان الخليل رسمه ولم يحشه ، ولو كان هو حشاه لما بقي فيه شيء لان الخليل رجل لم ير مثله[8] » ويأخذ بهذا الرأي ابو الطيب اللغوي (توفي بعد ٣٨١) في

(١) ارشاد الاريب ٦ : ٢٢٣ وكشف الظنون ٢ : ٢٩٠ (٢) اخبار النحويين البصريين نشره الاستاذ كرنكو بيروت ١٩٣٦ ، ص ٣٨ وعنه في بغية الوعاة ٢٤٣ (٣) المزهر ١ : ٣٨ (٤) التهذيب ٣٩ (٥) ياقوت في ارشاده ٦ : ١٨٢ ، سرح العيون ، ص ١٦٦ (٦) طبقات الشعراء في مدح الخلفاء والوزراء لابن المعتز ، طبعة عباس اقبال ، ١٩٣٩ ، ص ٣٨ – ٣٩ مفصلا وعنه ارشاد الاريب ٦ : ٢٢٣ ، المزهر ١ : ٣٩ ، بغية الوعاة ٢٤٥ (٧) انظر عنه في ذيل بروكلمان ١ : ١٨١ (٨) المزهر ١ : ٣٩ وكشف الظنون ٢ : ٢٩٠ وكل ذلك نقلا عن ابي الطيب اللغوي .

كتاب مراتب النحويين ويقول بأن الخليل « هو الذي رتب ابوابه وتوفي من قبل ان يحشوه[١] » ، وبذلك يأخذ الزبيدي (٣١٦ — ٣٧٩) ملخص كتاب العين والمستدرك عليه حين يقول « واكثر الظن فيه ان الخليل بوب اصله وثقف كلام العرب ثم هلك قبل كماله[٢] » ورأي هذه الطائفة اقرب الآراء جميعًا الى الصحة وابعدها وقوعًا في الاعتراضات التي رأيناها في صدر بحثنا ، ولكنه مقتضب يقتضي الشرح وناقص لا يفي للخليل بكل حقه من الكتاب .

(يتبع) يوسف العش



(١) المصدران السابقان (٢) المزهر ١ : ٤١ وكشف الظنون ٢ : ٢٩١ . ويتحفظ ابن جنى (— ٣٩٢) اكثر من ذلك فيقول ترجيحاً : « فان كان للخليل فيه عمل فلعله أومأ الى عمل هذا الكتاب ايماء ولم يله بنفسه » (نزهة الالباء ٥٥) ويقرب من رأي ابن جنى غير انه أوسع وأضبط رأي صاحب مقالة « كتاب العين وطبعه » في لغة العرب السنة ٤ ، الجزء الثاني آب ١٩١٤ ، ص ٥٧ اذ يقول : « أما رأينا الخاص فهو ان مدون نص العين هو الليث واما الذي يروي عنه اغلب ما جاء في النص فهو الخليل بن احمد كما انه هو الذي دفع الليث الى تدوينه بصورته المعهودة »

مخطوطات ومطبوعات

الفرزدق

أنشأ الاستاذ خليل مردم بك رسالةً أوجز فيها الكلام على الفرزدق ، فأشار الى نسبه ، وأفاض في ذكر أخباره وفي الحوادث التي كان لها أثر في حياته ، ولم يغفل شيئاً من صفاته ومن أخلاقه ومن التناقض في هذه الأخلاق ، وتعرّض لهواه السياسي ولعصبيته العربية ، ووصف شعره الذي يمثل حياة العصر الأموي اكثر من كل شاعر إسلامي ، وتكلم على ما في هذا الشعر من آثار الاسلام والعصبية العربية والقرآن ، وعلى ما تضمنه من شوارد اللغة وفُصحها ، ومن أخبار العرب وأيامهم ولم يفته ذكر ما صبغ به من صباغ بدوي ، فقد كان شعر الفرزدق سجل حياته ومرآة عصره ، وتصدّى الاستاذ للمفاضلة بين الفرزدق وجرير وذكر أقوال طائفة من الشعراء والأدباء فيها ، ثم اندفع في توضيح مواضع شتى من شعر الفرزدق مثل فخره وهجائه ومدحه ووصفه وغزله ورثائه وأدبه وحكمته ، وأرسل الكلام على كل ناحيةٍ من هذه النواحي ، وكان في كل موطن من هذه المواطن يستشهد بطائفة من شعر الفرزدق حتى يكون كلامه قريباً من الأذهان .

وختم الأستاذ خليل مردم بك رسالته بعبارةٍ دلت على تواضعه وانصافه فقد قال : هذه دراسة موجزة للفرزدق شاعر العرب في العصر الأموي ورأس الشعراء الإسلاميين لا أدعي أنها كاملة ولكن أرجو ان تكون صحيحة .

وحقيقة القول ان القارئ يفرغ من هذه الرسالة ونصب عينيه صورة للفرزدق تمثله في كل النواحي التي أتى على ذكرها الاستاذ تمثيلاً صحيح الوجوه ، ويغلب على الرسالة تهذيب البيان ، وهو عنوان تهذيب نفس واضعها ، وعنوان أدبه السامي في حياته وأحاديثه ومجالسه .

شفيق جبري

اعلام النساء

في عالمي العرب والاسلام

هذا كتاب جليل جمع فيه مؤلفه السيد عمر رضا كحالة آلافاً من أسماء النساء العربيات وسير ذوات المناقب الفضلى والمواهب الفذة منذ أيام الجاهلية حتى مشارف عصرنا الجديد ، ولقد رتب هذه الأسماء والسير ترتيباً معجمياً بدأه بالألف وأنهاه بالياء وقسم هذه الحروف على صفحات كتابه الضخم الذي جاء في ثلاثة أجزاء

ولعل التوفيق الذي ظفر به السيد كحالة في وضعه هذا المعجم الطريف قد واتاه من عمله اليومي فهو من موظفي دار الكتب الأهلية في مجامع المجمع العلمي العربي في دمشق ، كان دأبه طول ايامه الحادثة البحث والتنقير في تضاعيف الكتب المخطوطة والمطبوعة عن مشهورات النساء اللاتي خلدن آثاراً بارزة في العلم والأدب او العمران والاحسان ، فاستطاع بما أوتيه من صبر على التنقيب ورغبة صادقة في نشر مآثر العربيات والمسلمات ان يؤلف هذا السفر النفيس الذي جاء مفخرة لأمتنا العربية ، فما أحسب أمة مهما بلغت حضارتها وثقافتها في قديم الدهر وحديثه استطاعت ان تنجب امثال هاتيك النساء الفضليات .

وهذه لعمري ظاهرة شموخ ورفعة نكاثر بها على الزمان ونفاخر ففي مساجلات ليلى الاخيلية ومطارحات فضل الشاعرة ورثاء الخنساء وبطولة بنت الأزور وشمم بنت الصديق ام عبد الله بن الزبير وأدب باحثة البادية وقصائد التيمورية وأمثال ذلك كثير لا يحصيه عد في كتاب الاستاذ كحالة — ما يحفز المرأة العربية المعاصرة ويهيب بها لنهضة شماء شاملة تسير فيها على سنن الغوابر من هؤلاء النساء البواهر فتعوذ اليها أمجادها .

فأنا أكبر صنع السيد عمر رضا كحالة الذي دل مؤلفه على حسن اختيار وبراعة تنقيب وأشكر المكتبة الهاشمية التي أنفقت على طبع الكتاب في هذا الزمن العصيب الذي اشتدت فيه ازمة الطباعة والورق .

وداد سكاكيني

آراء وأنباء

تراجم الرجال

تاريخ القرن الثالث عشر — إلى رجال العلم وحملة الأقلام

لا يخفى ان اول من صنف في تراجم الرجال من علماء وادباء وامراء ووجهاء هو قاضي القضاة ابن خلكان الذي بدأ تاريخه من الهجرة النبوية وانتهى فيه الى اثناء قرنه السابع ، ثم جاء بعده الإمام الحافظ ابن حجر فوضع مصنفاً في تراجم رجال القرن الثامن من ٧٠١ — ٨٠٠ ثم تلاه العلامة الحافظ السخاوي فصنف كتاباً في تراجم رجال القرن التاسع من ٨٠١ — ٩٠٠ ثم جاء العلامة نجم الدين الغزي فألف تاريخه في رجال القرن العاشر من ٩٠١ — ١٠٠٠ ثم تلاه الأديب الكبير السيد محمد امين المحبي فوضع مؤلفاً في تراجم رجال قرنه الحادي عشر من ١٠٠١ — ١١٠٠ ثم جاء بعده مفتي دمشق الاسبق السيد محمد خليل المرادي فوضع تاريخاً لرجال قرنه الثاني عشر من ١١٠١ — ١٢٠٠ وقد طبع اكثر هذه الكتب وانتفع بها .

ولقد كان هذا العاجز منذ أربعين سنة مولعاً بإكمال هذه السلسلة التاريخية داعياً إلى وضع تاريخ لرجال القرن الثالث عشر من ١٢٠١—١٣٠٠ فجمعت في نحو سنتين نحو مائتي ترجمة بيضتها في مجموع أحفظه حتى الآن وفيه الكثير من اسر دمشق ومصر ونابلس وحمص وقليل من علماء العراق والحجاز واليمن وحلب وحماة وطرابلس ثم فترت الهمة فكنت في هذه المدة الطويلة ألحق بذلك المجموع مايقع في يدي من التراجم كلما سنحت لي فرصة ، وربما بلغ الجميع حتى الآن مايزيد على ثلاثمائة ترجمة لمشاهير القرن الثالث عشر ، واني اعتقد بان مجموعي لم يزل ناقصاً من تراجم بعض رجال ذلك القرن ، وهذا ما يدعوني إلى ان اعلن على صفحات الجرائد والمجلات العلمية رجائي من رجال العلم وحملة الأقلام بأن يتحفوني بما لديهم وما تصل اليه ايديهم من تراجم من وقعت وفاتهم في القرن المذكور من سنة ١٢٠١ — ١٣٠٠ بما يوافق نهج المحبي والمرادي المذكورين اتماماً لهذه السلسلة التاريخية البديعة فان في ذلك تخليد ذكرى الأسلاف الصالحين والأجداد .

محمد جميل الشطي

عُدى وعِدى

قرأت في الجزء الأول من المجلد السادس عشر من مجلة المجمع العلمي كلمة الزميل الاستاذ المغربي المعنونة بـ (الراديو وأثره في نشر اللغة) ولما بلغت الى تعبير (الديبلوماسيين) الجديد وتقسيمهم الناس الى محارب وحيادي او مسالم ولا محارب واقتراحه استعمال عُدى مضمومة العين للمحارب وعِدى مكسورة العين للامحارب أعجبت بما اتفق له من وقوع نظره على هاتين الكلمتين اللتين تصلحان للقيام مقام كلمتي (المحارب) و (اللامحارب) وقلت رب اتفاق خير من تعمد ورب صدفة خير من ميعاد ·

رأى هذه التفرقة بين هذين الحرفين في محيط المحيط للبستاني وفي أقرب الموارد وانه بعد مراجعة اللسان والتاج والصحاح والاساس والمصباح لم يعثر في هذه المعاجم على هذه التفرقة وبقي في نفسه شيء لعدم وقوفه على المصدر الذي اعتمده صاحبا محيط المحيط واقرب الموارد في هذه التفرقة فذكرت انني كنت قد وقفت على هذه التفرقة في عهد غير بعيد في المخصص ففي السفر الثالث عشر الصفحة ١٣٣ من المخصص: «ابن السكيت: قوم عِدى وعُدى بالكسر والضم فاذا أدخلوا الهاء ضموا أوله فقالوا: عُداة · يحيى: العُدى بالضم الأعداء الذين تقاتلهم · وبالكسر الذين لا تقاتلهم · حكاه عنه ابن جني»

التشاوس والتضارس

وفي هذه الصفحة من هذا السفر ما يقوم مقام (المحارب) و (اللامحارب) تشاوس القوم تعادوا · وتضارس القوم تعادوا وتحاربوا

سليمان ظاهر

استدراك .

وقعت في صدر الجزء الأول هفوات في أسماء اعضاء المجمع دعا اليها انقطاع المواصلات بين البلاد فدخل الاستاذان الشيخ خليل الخالدي والدكتور سعيد ابو جمرة في الراحلين وما زالا ولله الحمد في الحياة مدّ الله في عمرهما · وسقط اسم الاستاذ الشيخ محمد بهجت الاثري من بين اعضاء بغداد وهو ما زال عضواً مؤازراً وما نسي القراء ايادية البيض على الآداب ·

مجلة المجمع العلمي العربي

الجزء العاشر　　تشرين الاول سنة ١٩٤١　　شوال سنة ١٣٦٠

ابن حزم في (سير النبلاء)

٢

[مؤلفاته]

قال الشيخ عز الدين بن عبد السلام وكان احد المجتهدين : « مارأيت في كتب الإسلام من العلم مثل المحلى لابن حزم وكتاب المغني للشيخ موفق الدين .»

قلت : لقد صدق الشيخ عز الدين ، وثالثهما السنن الكبير للبيهقي ورابعهم [كذا] التمهيد لابن عبد البر . فمن حصل هذه الدواوين وكان من أذكياء المفتين ، وادمن المطالعة فيهم [كذا] ، فهو العالم حقاً .

ولابن حزم مصنفات جليلة إكبرها :

كتاب الإيصال الى فهم كتاب الخصال (خمسة عشر الف ورقة) — وكتاب الإيصال الحافظ لجمل شرائع الاسلام (مجلدان) — وكتاب المحلى بالآثار في شرح المجلى بالاختصار (ثماني مجلدات) — وكتاب حجة الوداع (مئة وعشرون ورقة) — وكتاب قسمة الخمس في الرد على إسماعيل القاضي (مجلد) — وكتاب الآثار التي ظاهرها التعارض ونفي التناقض

عنها (يكون عشرة آلاف ورقة لكن لم يتمه) — وكتاب الجامع في صحيح الحديث بلا أسانيد — وكتاب التلخيص والتخليص في المسائل النظرية — وكتاب ما انفرد به مالك او ابو حنيفة او الشافعي — ومختصر الموضح لأبي الحسن المغلس[1] الظاهري (مجلد) — وكتاب اختلاف الفقهاء الخمسة مالك وأبي حنيفة والشافعي وأحمد وداوود — وكتاب التصفح في الفقه (مجلد) — وكتاب التبيين في هد[2] علم المصطفى أعيان المنافقين (ثلاثة كراريس) — وكتاب الإملاء في شرح الموطأ (الف ورقة) — وكتاب الإملاء في قواعد الفقه (الف ورقة أيضاً) — وكتاب الإجماع (مجيلد) — وكتاب الفرايض مجلد — وكتاب الرسالة البلقا في الرد على محمد[3] عبد الحق بن محمد الصقلي (مجيليد) — وكتاب الإحكام لأصول الأحكام (مجلدان) — وكتاب الفصل في الملل والنحل (مجلدان كبيران) — وكتاب الرد على من اعترض على (الفصل) له — وكتاب اليقين في نقض تمويه المعتذرين عن إبليس وسائر المشركين (مجلد كبير) — وكتاب

(١) هو أبو الحسن عبد الله بن أحمد بن محمد بن المغلس الداوودي الظاهري البغدادي الفقيه أحد علماء الظاهر وإليه انتهت رياسة الداووديين في وقته . ولم ير مثله فيما بعد وكان فاضلاً عالماً نبيلاً صادقاً ثقة مقدماً عند جميع الناس . ومنزله ببغداد على نهر مهدى يقصده العالم من جميع البلدان. توفي سنة ٣٢٤ وله كتاب الموضح (جوابات) الذي اختصره ابن حزم — الفهرست ص ٣٠٦ (سنة ١٣٤٨ هـ) وشذرات الذهب

(٢) كذا في الأصل ولعلها زائدة أو محرفة عن (هل)

(٣) كذا ولم نهتد إلى معرفته فيما بين أيدينا من المظان ، وقد أدرنا الاسم على كل الوجوه التي نقدر أنه مصحف عنها : فتشنا عن محمد بن عبد الحق ، وأبي محمد بن عبد الحق ، وأبي محمد عبد الحق فلم نجد من يمكن أن يكون مقصوداً ولو بإهمال اسم الأب غير أبي محمد عبد الحق بن هرون الفقيه الصقلي احد المشايخ الكبار ، رحل إلى المشرق وأخذ عنه كثيرون منهم سليمان بن يحيي بن عثمان بن أبي الدنيا أحد العدول بقرطبة ، وخلف بن إبراهيم المقري المعروف بابن الحصار الخطيب بالمسجد الجامع بقرطبة فقد رحل إلى صقلية وجالس فيها عبد الحق هذا — انظر (المكتبة الصقلية المطبوعة سنة ١٨٨٧ ليبزيغ) : الذيول ص ٢٦ ، ٢٨ .

الرد على ابن زكريا الرازي (مئة ورقة) — وكتاب الترشيد في الرد على كتاب الفريد لابن الراوندي في اعتراضه على النبوات (مجلد) — وكتاب الرد على من كفر المتأولين من المسلمين (مجلد) — وكتاب مختصر في علل الحديث (مجلد) — وكتاب التقريب لحد المنطق بالألفاظ العامية (مجلد) — وكتاب الاستجلاب (مجلد) — وكتاب نسب البربر (مجلد) — وكتاب نقط العروس (مجيليد) ... وغير ذلك .

ومما له في جزء أو كراس :

مراقبة أحوال الإمام[1] من ترك الصلاة عمداً — ورسالة المعارضة —[1] قصر الصلاة — ورسالة التأكيد —[1] ماوقع بين الظاهرية وأصحاب القياس — وفضائل الأندلس — والعتاب على أبي مروان الخولاني — ورسالة في معنى الفقه والزهد — ومراتب العلماء وتواليفهم — والتلخيص في أعمال العباد — والإظهار لما شنع به على الظاهرية وزجر الغاوي (جزءان) — والنبذ الكافية — والنكت الموجزة في نفي الرأي والقياس والتعليل والتقليد (مجلد صغير) — والرسالة اللازمة لأولي الأمر — ومختصر الملل والنحل (مجلد) — والدرة فيما يلزم المسلم (جزءان) — ومسألة في الروح — والرد على إسماعيل اليهودي الذي ألف في تناقض آيات النصائح المنجية — والرسالة الصمادحية في الوعد والوعيد — ومسألة الإيمان — ومراتب العلوم — وبيان غلط عثمان بن سعيد الأعور في المسند والمرسل — وترتيب سؤالات عثمان الدارمي لابن معين — وعدد

(١) لعل إسقاط الواو هنا من سهو الناسخ .

مالكي صاحب في مسند بقي — [1] تسمية شيوخ مالك — [1] السير والأخلاق (جزءان) — وبيان الفصاحة والبلاغة [2] رسالة في ذلك لابن حفصون — ومسألة هل السواد لون أو لا - والحد والرسم - وتسمية الشعراء الوافدين على ابن أبي عامر — وشيء في العروض — ومؤلف في الظاء والضاد — والتعقب على الاقليلي في شرحه لديوان المتنبي — وغزوات المنصور بن أبي عامر — وتأليف في الرد على أناجيل النصارى ... وأشياء سوى ذلك .

ولابن حزم رسالة في الطب النبوي ذكر فيها أسماء كتب له في الطب منها :

مقالة السعادة — ومقالة في شفاء الضد بالضد — وشرح فصول بقراط - وكتاب بلغة الحكيم — وكتاب حد الطب — وكتاب اختصار كلام جالينوس في الأمراض الحادة — وكتاب في الأدوية المفردة — ومقالة في المحاكمة بين التمر والزبيب — ومقالة النحل .

[شيء من ابتلائه بالناس]

وقد امتحن لتطويل لسانه في العلماء وشرد عن وطنه فنزل بقرية له وجرت [3] له أمور ، وقام عليه جماعة من المالكية وجرت بينه وبين أبي الوليد الباجي مناظرات ومنافرات ، ونفروا منه ملوك الناحية فأقصته الدولة وأحرقت مجلدات من كتبه ، وتحول إلى بادية لبلة في قريته .

قال ابو الخطاب بن دحية : كان ابن حزم قد برص من أكل اللبان

(١) لعل إسقاط الواو هنا من سهو الناسخ أيضاً (٢) لعل هنا نقصاً (٣) في الأصل : وجردت

وأصابه زمانة وعاش ثنتين وسبعين سنة غير شهر . قلت : وكذلك كان الشافعي رحمه الله يستعمل اللبان لقوة الحفظ فولد له رمي الدم .

قال ابو العباس بن[1] العريف : « كان لسان ابن حزم وسيف الحجاج شقيقين . »

[عود إلى سبب طلبه العلم]

وقال أبو بكر محمد بن[2] طرخان التركي : قال لي الإمام ابو محمد عبد الله ابن محمد يعني والد أبي بكر بن العربي : « أخبرني أبو محمد بن حزم : أن سبب تعلمه الفقه أنه شهد جنازة فدخل المسجد فجلس ولم يركع ، فقال له رجل: قم فصلّ تحية المسجد — وكان قد بلغ ستاً وعشرين سنة — . قال : فقمت فركعت فلما رجعنا من الصلاة على الجنازة دخلت المسجد فبادرت بالركوع فقيل لي : اجلس ليس ذا وقت صلاة ، وكان بعد العصر . قال: فانصرفت وقد خزيت وقلت للأستاذ الذي رباني : دلني على دار الفقيه أبي عبد الله بن دحون ، قال ، فقصدته وأعلمته بما جرى فدلني على موطأ مالك ، فبدأت به عليه ، وتتابعت قراءتي عليه وعلى غيره نحواً من ثلاثة أعوام وبدأت بالمناظرة . »

[سماع ابن العربي عليه]

قال أبو بكر : ثم قال لي ابن العربي : « صحبت ابن حزم سبعة أعوام وسمعت منه جميع مصنفاته سوى المجلد الأخير من كتاب الفصل وهو من ستة مجلدات. وقرأنا عليه من كتاب الإيصال أربع مجلدات في سنة ست

(١) كلمة ابن ساقطة من الأصل والتصحيح عن تذكرة الحفاظ للذهبي

(٢) في الأصل : محمد طرخان ، والتصويب عن إرشاد الأريب (٥:٨٨) طبع (أوروبا)

وخمسين وأربعمائة ، وهو أربعة وعشرون مجلداً ، ولي منه إجازة غير مرة .»

[علمه وبلواه بالناس]

قال أبو مروان بن حيان : « كان ابن حزم رحمه الله حامل فنون من حديث وفقه وجدل ونسب وما يتعلق بأذيال الأدب مع المشاركة في أنواع التعاليم القديمة من المنطق والفلسفة ، وله كتب كثيرة لم يخل فيها من غلط لجرأته في التسور على الفنون لاسيما المنطق ، فإنهم زعموا انه زل هنالك ، وضل في سلوك المسالك ، وخالف ارسطاطاليس واضع الفن مخالفة من لم يفهم غرضه ولا ارتاض ، ومال أولاً إلى النظر على رأي الشافعي وناضل عن مذهبه حتى وسم به ، فاستهدف بذلك لكثير من الفقهاء ، وعيب بالشذوذ ، ثم عاد إلى قول[1] أصحاب الظاهر فنقحه وجادل عنه وثبت عليه إلى أن مات . وكان يحمل علمه ويجادل عنه من خالفه ، على استرسال في طباعه وبذل بأسراره ، واستناد إلى العهد الذي أخذه الله على العلماء : « لَيبيننُّهُ لِلناسِ ولا يَكتمونَه[2] » فلم يك يلطف صدعه بما عنده بتعريض ولا بتدريج ، بل يصك به من عارضه صك الجندل ، وينشقه إنشاق الخردل ، فتنفر عنه القلوب ، وتوقع به الندوب حتى استهدف لفقهاء وقته فتمالؤوا[3] عليه وأجمعوا على تضليله وشنعوا عليه وحذروا سلاطينهم من فتنته ونهوا عوامهم عن الدنو منه ؛ فطفق الملوك يقصونه عن قربهم ويسيرونه عن

(١) في الأصل : حول ، والصواب ما أثبتناه مراعين السياق وما في المصادر

(٢) أثبتنا ياء التية في الفعلين كما هي في الأصل لأنها قراءة أبي عمرو بن العلاء وابن كثير وشعبة ، وإن كانت قراءتنا اليوم للآية بتاء الخطاب كما قرأها حمزة والكسائي ونافع والبقية ، انظر ص ١١٧ (على الهامش) وص ٢١٧ من شرح ابن القاصح على الشاطبية (طبع سنة ١٢٩٣ هـ)

(٣) في الأصل : فتالوا ولا معنى لها والتصحيح عن تذكرة الحفاظ

بلادهم إلى أن انتهوا به منقطع أثره : بلدة من بادية لبلة ، وهو في ذلك غير مرتدع ولا راجع ، يبث علمه فيمن ينتابه من بادية بلده من عامة المتبسين من أصاغر الطلبة الذين لا يخشون فيه الملامة : يحدثهم ويفقههم ويدارسهم ؛ كل من[1] مصنفاته وقر بعير لم يعد أكثرها [عتبة][2] باديته لزهد الفقهاء فيها حتى لأحرق بعضها بإشبيلية ومزقت علانية ، وأكثر معايبه - زعموا - عند المنصف[3] جهله بسياسة العلم التي هي أعوص [من إتقانه[4]] وتخلفه عن ذلك على قوة سبحه في غماره . وعلى ذلك فلم يكن بالسليم[5] من اضطراب رأيه ومغيب شاهد علمه عنه عند لقائه ، إلى أن يحرك بالسؤال فينفجر منه بحر علم لا تكدره الدلاء . وكان مما يزيد في شنئه تشيعه لأمراء بني أمية ماضيهم وباقيهم واعتقاده لصحة إمامتهم ، حتى لنسب إلى النصب ».

[عود إلى مؤلفاته]

قلت : ومن تواليفه كتاب تبديل اليهود والنصارى للتوراة والإنجيل . وقد أخذ المنطق - أبعده الله من علم - عن محمد بن الحسن المذحجي وأمعن فيه فزلزله في أشياء .

[رأي الذهبي فيه]

ولي أنا ميل إلى أبي محمد لمحبته في الحديث الصحيح ومعرفته به وإن كنت لا أوافقه في كثير مما يقوله في الرجال والعلل والمسائل البشعة في

---

(١) في الأصل : من كل وهي تحريف وإن كان لها وجه متكلف إلا أن كلمة ابن حيان هذه هي على ما أثبته كما في المصادر وكما في تذكرة الحفاظ للمؤلف نفسه. (٢) الزيادة عن تذكرة الحفاظ.

(٣) في الأصل وفي تذكرة الحفاظ : المصنف والتصحيح عن إرشاد الأريب

(٤) محل هاتين الكلمتين بياض في الأصل الأم ، أكملنا النص من إرشاد الأريب

(٥) في الأصل : بالتسليم والتصحيح من إرشاد الأريب .

الأصول والفروع . وأقطع بخطئه في غير ما مسألة ؛ ولكن لا أكفره ولا أضلله وأرجو له العفو والمسامحة وللمسلمين ، وأخضع لفرط ذكائه وسعة علومه. ورأيته قد ذكر قول من يقول : أجل المصنفات الموطأ فقال :

« بل أولى الكتب بالتعظيم صحيحا البخاري ومسلم وصحيح ابن السكن ومنتقى ابن الجارود والمنتقى لقاسم بن أصبغ ومصنف أبي جعفر الطحاوي . (قلت : ماذكر سنن ابن ماجه ولا جامع أبي عيسى فإنه ما رآهما ولا أدخلا إلى الأندلس إلا بعد موته .) ثم قال : ومسند البزار ومسند ابن أبي شيبة ومسند احمد بن حنبل ومسند إسحق ومسند الطيالسي ومسند الحسن بن سفيان ومسند ابن سنجر (١) ومسند عبد الله بن محمد المسندي ومسند يعقوب ابن شيبة ومسند علي بن المديني ومسند ابن أبي غرزة وما جرى مجرى هذه الكتب التي أفردت لكلام رسول الله صلى الله عليه وسلم صرفاً .

ثم الكتب التي فيها كلامه وكلام غيره مثل مصنف عبد الرزاق ومصنف أبي بكر بن أبي شيبة ومصنف بقي بن مخلد ، وكتاب محمد بن نصر المروزي وكتاب ابن المنذر الأكبر والأصغر ، ثم مصنف حماد بن سلمة وموطأ مالك بن أنس وموطأ ابن أبي ذيب وموطأ ابن وهب ومصنف وكيع ومصنف محمد بن يوسف الفريابي ومصنف سعيد بن منصور ومسائل أحمد بن حنبل ، وفقه أبي عبيد وفقه أبي ثور . »

قلت : ما أنصف ابن حزم ، بل رتبة الموطأ أن يذكر تلو الصحيحين مع سنن أبي داوود والنسائي ، لكنه تأدب وقدم المسندات النبوية الصرف ؛ وإن للموطأ لموقعاً في النفوس ومهابة في القلوب لايوازيها شيء .

(١) في الأصل : ابن شجر وهو تصحيف والتصحيح من الرسالة المستطرفة للكتاني

[مرويات الذهبي بالسند إلى ابن حزم]

كتب إلينا المعمر العالم أبو محمد عبد الله بن محمد بن هارون من مدينة تونس[١] عام سبعمائة عن أبي القاسم أحمد بن يزيد القاضي عن شريح بن محمد الرعيني : أنبأنا ان أبا محمد بن حزم كتب إليه قال :

أنبأنا يحيى بن عبد الرحمن بن مسعود أن[٢] قاسم بن أصبغ أخبرنا إبراهيم ابن عبد الله : أخبرنا وكيع عن الأعمش عن أبي صالح عن أبي هريرة قال : قال رسول الله صلى الله عليه وسلم : « الصوم جُنة » أخرجه مسلم عن أبي سعيد الأشج عن وكيع . وبه[٣] قال ابن حزم : أخبرنا أحمد بن محمد الجسور ، أخبرنا محمد بن عبد الله بن أبي دليم[٤] : أخبرنا محمد بن وضاح : أخبرنا أبو بكر بن أبي شيبة : أخبرنا يزيد بن هرون : أخبرنا حميد عن بكر بن عبد الله المزني عن ابن عمر[٥] قال : « إنما أهل رسول الله صلى الله عليه وسلم بالحج وأهللنا به معه ، فلما قدم قال : (من لم يكن معه هدي فليحلل) فأحل الناس إلا من كان معه هدي ، وكان مع رسول الله صلى الله عليه وسلم هدي ولم يحل . »

وبه قال ابن حزم : حدثني أحمد بن عمر العذري : أخبرنا عبد الله بن الحسين بن عقاب : أخبرنا عبيد الله بن محمد السقطي : اخبرنا أحمد بن جعفر ابن سلم : أخبرنا عمر بن محمد الجوهري : أخبرنا أحمد بن محمد الأثرم :

(١) في تذكرة الحفاظ ٣ : ٣٢٩ أبو محمد بن هارون بن يونس ، وهو تصحيف .
(٢) في تذكرة الحفاظ : أنبأنا قاسم ..
(٣) أي بالسند المتقدم وهو اصطلاح لعلماء الحديث . وسيمر بك مرتين أخريين
(٤) في الأصل : بن وليم ، والتصويب عن الصلة لابن بشكوال ج ١ ص ٣٤
(٥) في الأصل أبي عمر وهو خطأ لأن المزني — كما في تهذيب التهذيب — روى عن ابن عمر

أخبرنا أحمد بن حنبل : أخبرنا هشيم : أنبأنا حميد : أخبرنا بكر بن عبد الله : سمعت أنس بن مالك قال : «سمعت رسول الله صلى الله عليه وسلم يلبي بالحج والعمرة جميعاً . قال بكر : فحدثت بذلك ابن عمر فقال : « لبى بالحج وحده ».»

وقع لنا هذا في مسند أحمد ، فأنا وابن حزم فيه سواء .

[من شعره]

وبه قال ابن حزم فيما أحرق له المعتضد بن عباد من الكتب يقول :

فإن تحرقوا القرطاس لا تحرقوا الذي ... تضمنه القرطاس بل هو في صدري
يسير معي حيث استقلت ركائبي ... وينزل إن أنزل ويدفن في قبري
دعوني من إحراق رق[1] وكاغد ... وقولوا بعلم كي يرى الناس من يدري
وإلا فعودوا في المكاتب بدأة ... فكم دون ما تبغون لله من ستر
* كذاك النصارى يحرقون – إذا علت ... أكفهم – القرآن في مدن الثغر

ولابن حزم :

* أشهد الله والملائك أني ... لا أرى الرأي والمقايس دينا
* حاش لله أن أقول سوى ما ... جاء في النص والهدى مستبينا
* كيف يخفى على البصائر هذا ... وهو كالشمس شهرة ويقينا

فقلت مجيباً له :

* لو سلمتم من العموم الذي نعـ ... ـلم قطعاً تخصيصه ويقينا
* وترطبتم فكنتم يبتسم[2] ... لرأينا لكم شفوفاً مبينا

---

(١) في الأصل : ورق ، والتصحيح عن إرشاد الأريب وغيره .

(*) الأبيات المصحوبة بهذه العلامة تفردت بها هذه الرسالة ولم أجدها في مصدر آخر مما كنت اطلعت عليه حين دراستي ابن حزم ، وهي مزية جديرة بالتنبيه عليها ، إذ بقية المصادر تعد أمهات في هذا الموضوع (٢) كذا في الأصل ، ولم نهتد إلى الصواب فيه ولا وجدنا البيتين في مصدر من المصادر .

ولابن حزم :

مناي من الدنيا علوم أبثها ... وأنشرها في كل باد وحاضر
دعاء إلى القرآن والسنن التي ... تناسى رجال ذكرها في المحاضر
* وألزم أطراف الثغور مجاهداً ... إذا هيعة ثارت فأول نافر
* لألقى حمامي مقبلاً غير مدبر ... بسمر العوالي والرقاق البواتر
* كفاحاً مع الكفار في حومة الوغى ... فأكرم موت للفتى قتل كافر
* فيا رب لا تعجل حمامي بغيرها ... ولا تجعلني من قطين المقابر[1]

ومن شعره رحمه الله :

هل الدهر إلاّ ما عرفنا وأدركنا ... فجائعه تبقى ولذاته تفنى
إذا أمكنت فيه مسرة ساعة ... تولت كمر الطرف واستخلفت حزنا
إلى تبعات في المعاد وموقف ... نودّ لديه أننا لم نكن كنا
حنين لما ولى وشغل لما أتى ... وهمّ بما نخشى فعيشك لا يهنا
حصلنا على هم وإثم وحسرة ... وفات الذي كنا نلذ به عنا
كأن الذي كنا نسر بكونه ... إذا حققته النفس لفظ بلا معنى

وله على سبيل الدعابة وهو يماشي أبا عمر بن عبد البر وقد رأى شاباً مليحاً فأعجب ابن حزم فقال أبو عمر : « لعل ما تحت الثياب ليس هناك » فقال :

وذي عذل فيمن سباني حسنه[2] ... يطيل ملامي في الهوى ويقول :
أمن حسن وجه لاح لم تر غيره ... ولم تدر كيف الجسم، انت قتيل؟

(١) في الأصل : المتابر ولا معنى لها ولعل (تعجل) في أول البيت أصلها (تجعل) (٢) في الأصل : فيما سباني حبه ، ولم نرتضها لضعفها ولترجح تصحيفها لدينا فأثبتنا الرواية المجمع عليها في المصادر كافة

فقلت له أسرفت في اللوم فاتئد   فعندي رد لو أشاء طويل
ألم تر أني ظاهري وأنني   على ما بدا حتى يقوم دليل

وأنشد أبو الفهم بن أحمد السلمي : أنشدنا ابن قدامة : أنشدنا ابن البطي : أنشدنا ابو عبد الله الحميدي : أنشدنا ابو محمد علي بن أحمد لنفسه :

لا يشمتن حاسدي إن نكبة عرضت   فالدهر ليس على حال بمترك
ذو الفضل كالتبر طوراً تحت ميقعة   وتارة في ذرى تاج على ملك

وشعره فحل كما ترى ، وكان ينظم على البديهة[1] ومن شعره :

أنا الشمس في جو العلوم منيرة   ولكن عيبي أن مطلعي الغرب
ولو أنني من جانب الشرق طالع   لجد على ما ضاع من ذكري النهب
ولي نحو أكناف العراق صبابة   ولا غرو أن يستوحش الكلف الصب
فإن ينزل الرحمن رحلي بينهم   فحينئذ يبدو التأسف والكرب
هنالك يدرى أن للبعد قصة   وأن كساد العلم آفته القرب

وله :

* أنائم انت عن كتب الحديث وما   أتى عن المصطفى فيها من الدين
* كمسلم والبخاري اللذين هما   شدا عرى الدين من نقل وتبيين
* أولى بأجر وتعظيم ومحمدة   من كل قول أتى من رأي سحنون[2]
* يا من هدى بهما اجعلني كمثلهما   في نصر دينك محضاً غير مفتون

---

(١) في الأصل : البديه، ولم أرها في كتب اللغة . (٢) سحنون — على ما في قاموس الأعلام — هو عبد السلام بن سعيد بن حبيب التنوخي الملقب بسحنون ؛ قاض ، فقيه ، انتهت إليه الرياسة في العلم بالمغرب . كان زاهداً لا يهاب سلطاناً في حق يقوله . أصله شامي من حمص ، ومولده في القيروان وولي القضاء سنة ٢٣٤هـ فاستمر إلى أن مات . كان رفيع القدر حنبلاً أي النفس مات سنة ٢٤٠هـ وله ثمانون سنة .

[من كلامه]

قال ابن حزم في تراجم أبواب صحيح البخاري : «منها ماهو مقصور على آية إذ لا يصح في الباب غيرها ، ومنها ما يبنه بتبويبه على أن في الباب حديثاً يجب الوقوف عليه ، لكنه ليس من شرط ما ألف عليه كتابه ، ومنها ما يبوب عليه ويذكر نبذة من حديث قد سطره في موضع آخر ، ومنها أبواب تقع بلفظ حديث ليس من شرطه ويذكر في الباب ماهو في معناه.»

وقال في أول الإحكام[1]: «أما بعد فإن الله ركب في النفس الإنسانية قوى مختلفة ، فمنها عدل يزين لها الانصاف ويحبب إليها موافقة الحق ، قال تعالى : «إِنَّ ٱللَّهَ يَأْمُرُ بِٱلْعَدْلِ [وَٱلْإِحْسَانِ]» وقال : «[يَا أَيُّهَا ٱلَّذِينَ آمنوا] كُونُوا قَوَّامِينَ بِٱلْقِسْطِ شُهَدَاءَ لِلَّهِ [وَلَوْ عَلَىٰ أَنْفُسِكُمْ أَوِ ٱلْوَالِدَيْنِ وَٱلْأَقْرَبِينَ » ومنها غضب وشهوة يزينان لها الجور ويعميانها عن طريق الرشد] وقال [تعالى] : «وَإِذَا قِيلَ لَهُ ٱتَّقِ ٱللَّهَ أَخَذَتْهُ ٱلْعِزَّةُ بِٱلْإِثْمِ [فَحَسْبُهُ جَهَنَّمُ] وقال [تعالى] : «كُلُّ حِزْبٍ بِمَا لَدَيْهِمْ فَرِحُونَ» فالفاضل يسر[2] لمعرفته [بمقدار مامنحه الله تعالى] والجاهل يسر لما[3] لا يدري حقيقة وجهه ولما[3] فيه وباله ، [في أخراه وهلاكه في معاده] ومنها فهم يليح لها[4] الحق من قريب وينير [لها في] ظلمات المشكلات فيرى به[5] الصواب ظاهراً جلياً ، ومنها جهل يطمس[6] عليها الطرق[7] ويساوي عندها [بين] السبل فتبقى

(١) النقل الآتي كثير التحريف وقد أصلحناه وأكملنا نصه من مقدمة الإحكام ص ٤ - ٥ [مطبعة السعادة سنة ١٣٤٥] وما بين معقوفتين هو ما نقص في نسختنا . (٢) في الأصل : يسير به . (٣) في الأصل : وبما . (٤) في الأصل : له . (٥) في الأصل : بها (٦) في الأصل : يطمئن ولا معنى لها . (٧) في الأصل : الطريق .

النفس في[1] حيرة تتردد وفي ريب تتلدد ويهجم بها على احد الطرق المجانبة للحق [المنكبة عن الصواب] تهوراً وإقداماً [او جبناً او إحجاماً او إلفا وسوء اختيار]، قال تعالى: «هَلْ يَسْتَوِي ٱلَّذِينَ يَعْلَمُونَ وَٱلَّذِينَ لا يَعْلَمُونَ» [وقال تعالى: إِنَّمَا يَخْشَى ٱللَّهَ مِنْ عِبَادِهِ ٱلْعُلَمَاءُ] ومنها قوة التمييز التي سماها الأوائل المنطق، فجعل لها خالقها بهذه القوة سبيلاً إلى فهم خطابه [عز وجل] وإلى معرفة الأشياء على ماهي عليه، وإلى إمكان التفهم [الذي به ترتقي درجة الفهم ويتخلص من ظلمة الجهل] فبها تكون معرفة الحق من الباطل، [قال تعالى: «فَبَشِّرْ عِبَادِ ٱلَّذِينَ يَسْتَمِعُونَ ٱلْقَوْلَ فَيَتَّبِعُونَ أَحْسَنَهُ أُولَٰئِكَ ٱلَّذِينَ هَدَاهُمُ ٱللَّهُ وَأُولَٰئِكَ هُمْ أُولُو ٱلْأَلْبَابِ»] ومنها قوة العقل التي تعين النفس المميزة على نصرة العدل [وعلى إيثار ما دلت عليه صحة الفهم وعلى اعتقاد ذلك علماً وعلى إظهار باللسان وحركات الجسم فعلا؛ وبهذه القوة التي هي العقل تتأيد النفس الموفقة لطاعته على كراهية الحود عن الحق وعلى رفض ماقاد إليه الجهل والشهوة والغضب المولد للعصبية وحمية الجاهلية] فمن[2] اتبع ما أناره له العقل الصحيح نجا وفاز، ومن عاج عنه هلك [وربما أهلك]. قال تعالى: «إِنَّ فِي ذَٰلِكَ لَذِكْرَىٰ لِمَن كَانَ لَهُ قَلْبٌ أَوْ أَلْقَى ٱلسَّمْعَ وَهُوَ شَهِيدٌ» فأراد بذلك العقل. أما المضغة المسماة قلباً[3] فهي لكل أحد، [متذكر وغير متذكر ولكن لما لم ينتفع] غير العامل [بقلبه صار] كمن لا قلب له.»

وكلام ابن حزم كثير ولو أخذت في إيراد طرفه وماشذ به لطال الأمر.

(١) في الأصل: في النفس حيرة. (٢) في الأصل: فتى . (٣) في الأصل: أما مضغة القلب

[عود إلى مولده]

قال ابو القاسم بن بشكوال الحافظ في الصلة له: قال القاضي صاعد ابن أحمد: «كتب إليّ ابن حزم بخطه يقول: ولدت بقرطبة في الجانب الشرقي في ربض منية المغيرة قبل طلوع الشمس آخر ليلة الأربعاء آخر يوم من رمضان سنة أربع وثمانين وثلثمائة بطالع العقرب، وهو اليوم السابع من نوبر.»

[وفاته]

قال صاعد: «ونقلت من خط ابنه أبي رافع: أن أباه توفي عشية يوم الأحد لليلتين بقيتا من شعبان سنة ست وخمسين واربعمائة فكان عمره إحدى وسبعين سنة وأشهراً رحمه الله تعالى»

[عود إلى شعره]

ومن نظم أبي محمد بن حزم:

* لم أشك صداً ولم أذعن بهجران ولا شعرت مدى دهري بسلوان
* أسماء لم أدر معناها ولا خطرت يوماً عليّ ولا جالت بميداني
* لكنما دائي الأدوى[1] الذي عصفت عليّ أرواحه قدماً فأعياني
* تفرق لم تزل تسري طوارقه إلى مجامع أحبابي وخلاني
* كأنما البين بي يأتم حيث رأى لي مذهباً فهو يتلوني ويغشاني
* وكنت أحسب عندي للنوى جلداً إذا عتا[2] في فؤادي شجوها العاني
* فقابلتني بألوان غدوت بها مقابلا من صباباتي بألوان

(١) في الأصل: داي الأدواء التي.
(٢) في الأصل: عنى. وليست هذه الأبيات في مصدر آخر فنقابلها به فأثبتنا ما رجحناه

[من مات في سنة وفاته]

وممن مات مع ابن حزم في السنة : الحافظ أبو الوليد الحسن بن محمد الدربندي[١]، والفقيه ابو القاسم سراج بن عبد الله بن محمد بن سراج قاضي الجماعة بقرطبة ، والحافظ عبد العزيز محمد بن محمد بن عاصم النخشبي[٢]، وشيخ العربية أبو القاسم عبد الواحد بن علي بن برهان ببغداد ، ومسند الوقت أبو الحسين محمد بن أحمد بن محمد بن [أحمد بن[٣]] حسنون النرسي، والمحدث أبو سعيد محمد بن علي بن محمد الخشاب النيسابوري، والوزير عميد الملك محمد بن منصور الكندري .

[عود إلى شعره]

ولابن حزم

قالوا تحفظ فإن الناس قد كثرت ... أقوالهم وأقاويل الورى[٤] محن
فقلت هل عيبهم لي غير أني لا ... أقول بالرأي إذ في رأيهم فتن[٤]
وأنني مولع بالنص لست إلى ... سواه أنحو ولا في نصره أهن
لا أنثني لمقاييس[٤] أقول بها ... في الدين بل حسبي القرآن والسنن
يابرد ذا[٥] القول في قلبي وفي كبدي ... ويا سروري به لو أنهم فطنوا
دعهم يعضوا على صم الحصى كمداً ... من مات من قوله عندي له كفن

« تمت الرسالة »

(١) في الأصل : ابن الوليد الحسن بن محمد الدزندي والتصويب عن تذكرة الحفاظ ٣ : ٣٢٩
(٢) في الأصل البخشي والتصويب عن شذرات الذهب (٣) الزيادة عن تذكرة الحفاظ ٣ : ٣٢٩
(٤) انظر هذه القصيدة كاملة في كتابي (ابن حزم الأندلسي ورسالته في المفاضلة بين الصحابة) ص ١٦١ . وفيها هناك بدل الورى : المدى ، وبدل فتن : أفن (ص ٦٧)، وبدل لمقاييس أقول : نحو آراء يقال . (٥) في الأصل : ذي . والتصحيح عن المصدر السابق .

من سمع هذه الرسالة على الذهبي

نص السماعين اللذين ختمت بهما هذه الرسالة

١ — قال الذهبي : سمع من لفظي هذه الترجمة المولى العلامة قاضي القضاة حسام الدين حسن بن رمضان القرمي ، وفتاه سيف الدين بهادر ، والشيخ عماد الدين ابو بكر ابن أحمد بن أبي الفتح بن السراج ، والشيخ أمين الدين محمد بن علي بن حسن الأنفي[1] المالكي : في شعبان سنة أربع وثلاثين وسبعمائة . و كتب مؤلفها محمد بن عثمان بن الذهبي عفا الله عنه هـ »

٢ — مكتوب على هامش الأم ما لفظه :

سمع ترجمة ابن حزم رحمه الله على الشيخ شمس الدين الذهبي صاحب التاريخ : الشيخ الإمام العالم شمس الدين محمد بن عبد الله بن المحب والفقيه الفاضل علاء الدين علي بن عبد المؤمن بن علي المغربي . وكل الأسماع بقراءته في جمادى الأولى سنة إحدى وأربعين وسبعمائة بدمشق ، ولها[2] ولنا جميع التاريخ . ولله الحمد وصلى الله على سيدنا محمد وآله . و كتب إبراهيم بن عبد الرحيم بن محمد بن جماعة * .

سعيد الافغاني

---

(١) في الأصل : أمير الدين ... الألفي ، والتصويب عن شذرات الذهب ٦ : ٢٩٢ وذيول تذكرة الحفاظ ص ١٦٨ والمحدث المذكور مات سنة ٧٨٦

(٢) نرجح أن (ولها ولنا) مصحفة عن (وأجاز لنا) . والمقصود بقوله (جميع التاريخ) : تاريخ الاسلام الكبير للذهبي ومنه أجزاء في المكتبة الأحمدية بحلب

(*) عثرنا بعد طبع الرسالة على اسم كتابين للذهبي فآثرنا التنبيه عليهما هنا تذييلاً للفصل الخاص بمؤلفاته: في المكتبة الصقلية (Alla Biblioteca Arabo - Sicula) (ليبزغ ١٨٨٧ م) ص م ٦٤ : أن للذهبي مختصر كتاب (إنباه الرواة على أنباه النحاة) تأليف أبي الحسن علي بن يوسف الشيباني .

وفي ص ٤ من مقدمة (كتاب المغني والشرح الكبير — مطبعة المنار سنة ١٣٤١ هـ) : ان الذهبي أفرد بالتأليف سيرة الشيخ موفق الدين صاحب (المغني) أحد الكتب الأربعة الجليلة التي لا غنى للمجتهد ولا للمتفقه عنها — على ما مر بك من رأي الذهبي عند أول الكلام على مؤلفات ابن حزم . وأرجح أن هذه السيرة مما ضمنه أيضاً كتابه الجليل (سير النبلاء) .

مميزات بني أمية

٣

خصائص قواد الأمويين وعمالهم

وما كان خلفاء بني أمية فقط ممتازين بأمور تفردوا بها على من سواهم بل كان رجالهم وقوادهم وعمالهم لا يشبهون في هذا المعنى عمال بني العباس . فان عمال العباسيين كانوا يشتغلون لأنفسهم على الغالب ، وعمال الأمويين يشتغلون لدولتهم ، فقد رأينا الحجاج بن يوسف الثقفي مثلاً يعمل كل ما يجب ان يعمل لدولته ورأينا احمد بن طولون في الدور العباسي الثاني يعمل لنفسه اولاً ثم لدولته ، وكان عمله لنفسه عظيماً جداً لم يؤثر بعضه عن عامل من عمال بني أمية . وعلى ماظهر من تعصب الأمويين ، وكانوا لا يوسدون الولايات الا للعرب ، ولا يأمنون على سياستهم الا العرب ، كنت تراهم في المسائل الأخرى أعجوبة في تساهلهم . آخذ بعضهم عبيد الله بن زياد لاعتماده على الفرس في مسائل الأموال فقال مدافعاً عن نفسه : كنت اذا استعملت العربي كسر الخراج ، فان أغرمت عشيرته أو طالبته اوغرت صدورهم ، وان تركته تركت مال الله وانا أعرف مكانه ، فوجدت الدهاقين ابصر بالجباية ، وأوفى بالأمانة ، واهون بالمطالبة منكم ، مع أني قد جعلتكم أمناء عليهم لئلا يظلموا احداً .

وما كان يخلو قائد من قواد الأمويين من مزايا غريبة تدهشك في جملة ما تدهش من سيرته ، فقد اشتهر الحجاج مثلاً على عظيم سياسته بأمور لا يخطر بالبال ان مثله يفكر فيها ، اشتهر باصلاح الموازين والخراج والزراعة ، ووضع الحركات والاعجام في المصاحف ، لئلا يلتبس شيء من الآيات على من لا يعلم القرآن واتخذ دار الضرب لسك النقود فكان يضرب المال للسلطان مما يجتمع له من

التبر وخلاصة الزيوف والستوقة والبهرجة ، ثم اذن للتجار وغيرهم في ان تضرب لهم الأوراق ، واستغلها من فضول ما كان يؤخذ من الاجرة للصناع والطباعين وختم ايدي الطباعين . وهو أول من أجرى في البحر السفن المقيّرة المسمرة غير المخرزة والمدهونة وغير ذوات الجآجئ (واحدها جؤجؤ وهو الصدر او عظامه شبهوا به مقدم السفينة) وكان اول من عمل المحامل ولم يرض عن عمله هذا بعض الرجاز الأكرياء فقال :

أول عبدٍ عمل المحاملا أخزاه ربي عاجلاً وآجلا

وكان من زياد بن ابي سفيان مثل ما كان من الحجاج : بنى في البصرة دوراً واحياء ومساجد وحفر ترعاً وانهاراً وكل ما بنى فيها او صنع فانه نسب الى غيره . قال عمر بن عبد العزيز : قاتل الله زياداً جمع لهم كما تجمع الذرة ، وحاطهم كما تحوط الأم البرة ، واصلح العراق بأهل العراق ، وترك اهل الشام في شامهم ، وجبى العراق مائة الف الف وثمانية عشر الف الف . وهذا عتبة بن أبي سفيان اخو معاوية واخطب رجل في بني أمية كان يطفئ الفتن ببلاغته اكثر مما يطفئها بجيش دولته . وهذا موسى بن نصير فاتح الاندلس ما التوى له علم منذ خرج من مصر في جيش ضئيل حتى وصل الى الاندلس ففتحها ، واذا قرأتم ترجمته بإمعان تقولون معي ان الولادة ماولدت اعظم منه ولا أعقل .

ومن المتعذر في ساعة ضيقة كهذه ان نتناول الكلام على رجال القوم ونذكر بعض مالهم من المزايا النادرة ، ونحن لذلك نكتفي بالاشارة الى واحد منهم ، وكل واحد من رجالهم يحتاج الى دراسة خاصة مشبعة ، ونعني به مسلمة بن عبد الملك . فقد كان على جانب عظيم من العقل والسياسة والعلم والادب . غزا الروم غير مرة واثخن فيهم . وفتح الامهات من مدائنهم ، وتولى الاعمال الجليلة ومنها العراقان وارمينيـة ، فأبان في كل مكان عن كفاءة منقطعة النظير . وعن حب للخير غريب في بابه ، واوصى بجزء من ماله عظيم لأهل الأدب قائلاً انهم اهل صناعة مجفوة . ولولا

انه ابن أمة لكان من المحتم ان يجلس على عرش الخلافة الأموية كسائر اخوته الأجلاء الذين بيضوا وجه التاريخ الأموي والاسلامي باعمالهم الجليلة .

التنظير بين الأمويين والعباسيين

حكم الأمويون في الشرق الف شهر ، وحكموا في الغرب نحو ثلاثة قرون ، وكانوا في الشرق والغرب يتحرون جداً في الأموال لا يأخذ الخليفة مالا يحلُّ . وكان مما جرت به عادة خلفائهم اذا جاءتهم جبايات الأمصار ان يأتيهم مع كل جباية عشرة رجال واحياناً اربعون رجلاً قساماً من وجوه الناس واجنادها فلا يدخل بيت المال من الجباية دينار ولا درهم حتى يحلف الوفد مافيها دينار ولا درهم الا أخذ بحقه وانه فضل أعطيات اهل البلد من المقاتلة والذرية ، بعد ان اخذ كل ذي حق حقه ، اي فضل أعطيات الاجناد وفرائض الناس . وكانوا لا ينقلون مالاً من بلد الى بلد حتى تسد ثغوره وخصاصة اهله بما يغنيهم ، فما فضل منه نقلوه الى البلد الآخر الذي يليه .

اما جباية العباسيين فكان فيها الطاهر وغير الطاهر ، وانواع ضرائبهم كثيرة ، لذلك كان ينكسر الخراج ويكثر عيث العمال وعبثهم بها . وما عهد عند الأمويين نزول خليفة عن اقليم او عن قطر لعامل من عماله ، يجبيه على هواه لحسابه الخاص ، ويعهد الى من يريد بتوليته عليه ، ويكتفي الخليفة حفظه الله بالخطبة له والدعاء لدولته وبوضع اسمه على السكة وكانت هذه الطريقة مبدأ تمزيق دولتهم وفض عرى كلمتهم وفي ايام بني العباس كثرت المصادرات ، وكان يصادر العمال كما تصادر الرعية ، ويصادر كل من عرفت له ثروة بلا رحمة ، ومنهم من كانوا يعذبون انواع التعذيب ليسلبوهم نعمتهم ، ومنهم من هلكوا في العذاب ، ومثل هذا الجور قلما عهد في دولة بني أمية ، ذلك لأن عمالهم طبقة مختارة يكونون من أصحاب الشرف وارباب البيوتات من العرب . وقل أن عهدت السرقة في شريف . وما ذكر التاريخ ان قائداً أموياً او وزيراً أموياً صودر على مال ، كما كان يصادر قواد العباسيين وولاتهم

ووزراؤهم ؛ ولا سيما في الدور العباسي الثاني ، والسبب في ذلك انتظام طرق الجباية وقلة انواعها عند الأمويين . وكان هشام بن عبد الملك في تنظيم ميزانية الدولة المثل الأعلى وموازنته خير موازنة عرفت . ثم الى هذا كانت الأخلاق على العموم في العصر الأموي أرقى مما آلت اليه في العصر العباسي ، كان في عمال الأمويين الصحابة والتابعون وتابعو التابعين ، وكلهم غاية في فهم روح الدين ، والبعد عن الصغائر والسفاسف . ودخل في عمال العباسيين أخلاط الزمر ، ومنهم من لا يعرف ابوه ولا أمه ، اوصلته المصادفات الى المراتب العالية ، ومنهم من اظهر الاسلام وابطن خلافه، كبعض الاتراك والفرس ظلوا في باطنهم على عبادة الكواكب او عبادة النيران .

سر تفوق الأمويين

الذكاء يورث وينتقل بالدم ، والعلم لا يورث لأنه خاص بدارسه ، وابن الذكي على الأغلب ذكي ، وابن البليد بليد على الاكثر . كذلك كان الناس في كل زمان يجعلون للرجل المنسوب الى جد كان له شأن عظيم في الحياة مالا يجعلون مثله لرجل عادي كان لأحد اسلافه شيء من المكانة ، والدم الطاهر ينم عن صاحبه ولا يكذب رائده . وكان البشر منذ القديم يقول بالوراثة عرفها من طريق عملي لا من طريق علمي ، وكان للعرب في باب تخير البنات الأصيلات غرام شديد منذ ابعد ازمنة تاريخهم وما زالوا على ذلك الى اليوم ، حتى كادت الأمة العربية تعد في هذا المعنى ارستقراطية مع ان اعمالها كلها تدل على تأصل الديموقراطية في دمها . ولذلك رأينا بعض مؤلفي التراجم يحرصون على وضع نسب المترجم له من جهة أهل ابيه وأمه ، وبهذا ساغ لنا ان نستنتج بأن بني أمية لم يظهر ما ظهر منهم من الصفات الغر في الجاهلية والاسلام إلا بدم نقي انتقل من الأجداد الى الأحفاد ، وتسلسل العقل والذكاء في رجالهم ونسائهم ، وانتقلت الشجاعة والنجدة في بنيهم وبناتهم . وفي الحديث : الناس معادن خيارهم في الجاهلية خيارهم في الإسلام إذا فقهوا

الاسباب الداعية الى التنويه بالأمويين

لا أريد أن اودعكم الآن قبل ان أفاتحكم بأمر طالما لغط به بعضهم وما اجتمعوا عليه ، ذلك ان بعض المنحرفين عن بني أمية يتهمني بالتشيع لهم ، وأني أنوه في كل فرصة بحسناتهم ، واغض الطرف عما يتخيله المتخيلون سيئات ، واني أنحي على من ظلموهم وما رحموهم ؛ وما حبي الأمويين ، علم الله ، الا حب من انعم النظر فيما قيل فيهم ولهم ، ووازن بين اعمالهم واعمال غيرهم ، وايقن بعد الدرس الطويل والتفكير العميق أنهم مغبونون في الحكم عليهم . سوّد خصومهم من العباسيين والعلويين صحيفتهم في الدهر الغابر لأجل السياسة حتى صار بغضهم الى اليوم مذهباً يدين به من يدين . ويبلغني عن العراق في نهضته الحديثة انهم قلما يقرؤون في المدارس تاريخ بني أمية لبغض بعض الطوائف لهم ، وهذا من اغرب ما يسجل في تجاهل المعروف ، وعدم الاقرار بالأمر الواقع .

ان حكمي على الأمويين حكم التاريخ فقط ، ارغب في ان أنصف دولة احسنت ولم يبق في الأرض انسان ينسب اليها حتى اقرب من قلبه بما أدون ، ولو كانت المسألة مسألة حظ نفس كان الأولى بي ان أصانع مبغضيهم وهم ملايين اليوم منتشرون في اقطار العالم ولهم حَوْل وطَوْل . فالمسألة اذاً ليست مسألة حب وبغض بل مسألة حق وباطل وأقبحْ بالتاريخ يكتب بعوامل مذهبية وشهوات نفسية واهواء شخصية .

رثاء شوقي للأمويين

ورحم الله صديقي شوقي يذكر الأمويين في قصيدته الخالدة في دمشق بقوله :

بنو أمية للأنباء ما فتحوا ... وللأحاديث ما سادوا وما دانوا
كانوا ملوكاً سرير الشرق تحتهم ... فهل سألت سرير الغرب ما كانوا
عالين كالشمس في اطراف دولتها ... في كل ناحية ملك وسلطان
يا ويح قلبي مهما انتاب ارسمهم ... سرى به الهمُّ او عادته اشجان
بالأمس قمت على (الزهراء) اندبهم ... واليوم دمعي على (الفيحاء) هتان

في الأرض منهم سماوات وألوية | ونيرات وأنواء وعقبان
معادن العز قد مال الرّغام بهم | لو هان في تربه الابريز ما هانوا
لولا دمشق لما كانت طليطلة | ولا زهت ببني العباس بغدان
مررت بالمسجد المحزون اسأله | هل في المصلى او المحراب مروان
تغير المسجد المحزون واختلفت | على المنابر احرار وعبدان
فلا الأذان أذان في منارته | إذا تعالى ولا الآذان آذان

الجمع بين الآيات التي يقتضي ظاهرها التناقض

وتفسير المشكلات

وقفت على مجموع خطي تضم دفتاه كتابين : الكتاب الأول نزهة القلوب لأبي بكر محمد بن عزيز السجستاني المتوفى سنة ٣٣٠

الكتاب الثاني وهو المسمى بـ

(الجمع بين الآيات التي يقتضي ظاهرها التناقض وتفسير المشكلات)

اما الكتاب الأول فلا اعرض للتعريف به لشهرته ولنشره بالطبع ، واما الثاني وهو ما احسب انه غير مطبوع وغير متداول ولم أجد له ذكراً في كشف الظنون ولم يذكر في النسخة التي وقفت عليها اسم مؤلفها ولعل ما أجهل من ذلك مما قد علمه غيري (وفوق كل ذي علم عليم) وها أنا ذا أعرض على قراء مجلة المجمع المفيدة الأعلام وصف نسخته المخطوطة والتعريف بالكتاب .

وصف نسخته الخطية

في ٤٥ صفحة بقطع الربع ورقها عبادي صقيل وخطها من نوع النسخ طول الصفحة ٢٢ س بعرض ١٢ سطور الصفحة ١٩ وكلمات كل سطر من ١١ الى ١٣ تاريخ كتابتها ضحى أربعاء اليوم الثالث من ربيع الآخر سنة ٩٨٥ هـ والناسخ هو مقلد بن قسم الله

التعريف بالكتاب

موضوعه — يفهم من اسمه

مفتتحه — أما بعد حمد الله كما هو أهله ، والصلاة على رسوله سيدنا محمد وآله وصحبه فهذا كتاب أودعته عشرة أنواع من تفسير مشكلات القرآن ومتشابهه يضطر اليها العلماء ، ويحتاج اليها أرباب الكراسي والعظماء ؛ واختصرته بحسب الطاقة ،

ولخصته وأدمجت فيه ما ذكر مقاتل بن سليمان وتكلمت بما دلني عليه البرهان ، واتضح لي بالأدلة العقلية وبان .

ترتيبه — مرتب على مقدمة وفصول عشرة ، أما المقدمة فهي تتلخص بذكر حديث عن النبي صلى الله عليه وآله وسلم : لا يفقه الرجل كل الفقه حتى يرى للقرآن وجوهاً كثيرة وحديث عن علي رضي الله عنه : لا يكون الرجل فقيهاً كل الفقه حتى يعرف للقرآن وجوهاً كثيرة

وأما الفصول فالفصل الأول في تفسير كلمات مشتركة تفسر على معنيين أو اكثر وأورد من ذلك ما استغرق خمس صفحات ، والفصل الثاني في تفسير ما يتفق من القرآن وهذا نموذج منه : اعلم ان كل موضع في القرآن وجلت قلوبهم . أو قلوبهم وجلة فمعناه الخوف . وكل ما فيه مردفين . وتترى . ومدرارا . وأبابيل فمعناه التتابع وأورد كل ماجاء من هذا الباب في سبع صفحات

والفصل الثالث في تفسير اشتباه التقديم في الكلام . ونموذج هذا الفصل : قوله تعالى : خلق السموات والأرض في ستة ايام وكان عرشه على الماء . وقال في آية أخرى : في ستة أيام ثم استوى على العرش . هاتان الآيتان توقعان في نفس من لا يفهم — التناقض — وليس كذلك فان تفسيرهما مشتبه في وجوه تقديم الكلام . اما تفسير قوله تعالى : خلق السموات والأرض في ستة أيام ثم استوى على العرش استواء ربانياً لا جسمانياً بل منزهاً عن الاستقرار والجلوس متقدساً عما يخطر بأوهام النفوس استوى على العرش قبل خلق السموات وذلك قوله تعالى : وكان عرشه على الماء يعني قبل خلق الأرض (بيانه) ان يفصل بين قوله (ثم) وبين قوله (استوى) وتقديره استوى على العرش ثم خلق السموات والأرض في ستة أيام بدليل الآية الأخرى وقد استغرق هذا الفصل خمس صفحات

والفصل الرابع في تفسير وجوه اختلاف المكي والمدني وهو في صفحة ونصف صفحة .

والفصل الخامس في تفسير وجوه اشتباه الحالات قوله تعالى : ربنا أمتنا اثنتين

واحييتنا اثنتين وقال في آية أخرى : لا يذوقون فيها الموت الا الموتة الأولى وهذا يشعر بالتناقض عند من لا يعرف التفسير ولا تناقض فيه من قبل اشتباه تفسيرهما في وجوه الحالات ٠ اما قوله سبحانه : ربنا أمتنا اثنتين الآية معناه كنا نطفاً ميتة لا روح فيها ولا حس لها فخلقتنا من تلك النطفة وجعل فيها أرواحاً فهذه موتة وهذه حياة ٠ وشاهد ذلك قوله تعالى للكفار : وكنتم أمواتاً فأحياكم معناه يقول : كيف تكفرون بمن خلقكم وجعل فيكم الأرواح بعد ان كنتم نطفاً ميتة لا حياة فيكم ، ولا ارواح لكم ٠ ثم قال : (ثم يميتكم) يعني عند انتهاء آجالكم في الدنيا ثم يحييكم يوم القيامة للبعث الى الحساب فهاتان موتتان وحياتان ٠ واما قوله سبحانه : لا يذوقون فيها الموت الا الموتة الأولى ٠ يعني الموت الذي أماتهم في الدنيا بعد ما خلقهم من النطف فليس بعد ان خلقهم من النطف موت غير هذه الموتة الواحدة وهذا الفصل يدخل في صفحتين ونصف صفحة

والفصل السادس في تفسير اشتباه صلات الكلام في القرآن وهو في ثلاث صفحات

والفصل السابع في تفسير وجوه خواص المواطن وهو في نحو سبع صفحات

والفصل الثامن في تفسير اختلاف وجوه المواضع وهو في بعض صفحة

والفصل التاسع في تفسير اختلاف وجوه الحروف وهذا نموذج منه ٠ قوله سبحانه وتعالى : ومن يهدي الله فما له من مضل ٠ وقال في آية أخرى : وأما ثمود فهديناهم فاستحبوا العما على الهدى ٠ اما الأولى فيعني من يهدي الله الى الايمان من الضلالة فينور قلبه بالتصديق وشرحه بالمعرفة ، فلا يستطيع أحد ان يضله ويرده الى الكفر كما قال تعالى : فمن يرد الله ان يهديه يشرح صدره للاسلام فهذا هدى الايمان بالقلب ٠ وأما قوله تعالى : وأما ثمود فهديناهم فهو هدى البيان لا هدى الإيمان ٠ يعني أما ثمود فهديناهم ، أي بينا لهم سبيل الكفر والايمان على لسان نبيهم صالح صلى الله عليه فاستحبوا العما على الهدى ٠ أي آثروا الضلال الذي كانوا عليه على الإيمان الذي بينه لهم ودعاهم اليه وتفسيرها بين يتضح بقوله سبحانه : وما أرسلنا من رسول الا بلسان قومه ليبين لهم فيضل الله من يشاء ويهدي من يشاء ٠ وكذا قوله

سبحانه وتعالى: انا هديناه السبيل اي بينا للانسان سبيل الخير وسبيل الشر . وهذا الفصل يستغرق سبع صفحات ونصف صفحة .

وأما الفصل العاشر وبه تتمة الكتاب ففي النسخة بياض نحو نصف صفحة وهو يحتوي على ما في القرآن المجيد من لغات القبائل العربية لغة عُمان . ولغة حمير . ولغة طيئ . ولغة أزد . ولغة نهد . ولغة هذيل . ولغة بني نصر بن معاوية . ولغة قيس . ولغة ثقيف . وما يتفق ولغات الأعاجم لغة النبط . اللغة السريانية . واللغة العبرانية ولغة السوادات ؟ ولغة الزنج . ولغة الروم . وختم هذا الفصل بقوله : وانما أنزل الله كتابه العزيز على نبيه صلى الله عليه وسلم وذكر هذه اللغات ليعلموا ان ذلك ليس من الرسول لأنه صلى الله عليه وسلم لم يسافر الى بلاد أرباب هذه اللغات فتعلمها منهم فلما ذكرها عرف أن الله سبحانه هو الذي عرفه اياها وأنزلها اليه على قلبه كما قال سبحانه : نزل به الروح الأمين على قلبك الآية وقال سبحانه : وما كنت تتلو من قبله من كتاب ولا تخطه بيمينك

ومن هذا النموذج الذي استخلصناه تعرف قيمة الكتاب الذي لا أظن انها كتبت عليه آية الحجاب وارجو ان لا يكون ومؤلفه مجهولين عند من يعني بموضوعه القيم من أعلام الأمة

النبطية — جبل عامل :

سليمان ظاهر



اولية تدوين المعاجم

وتاريخ كتاب العين المروي

عن الخليل بن أحمد

— ٢ —

٢ — كيف أسس بناء كتاب العين

إن استقصاء أثر الخليل في الكتاب يدعونا إلى دراسة مراحل تأليفه وكيفية وضعه ، وإذا فعلنا فإنا نرى اول عصر العباسيين حافلاً بتأليف الكتب الجامعة للعلوم : من الحديث يجمعه ابن جريج ، الى القراءات يدونها ابو عمرو بن العلاء ، الى الفقه يقيد مادته وأحكامه مالك والشافعي وابو يوسف ومحمد ، إلى التاريخ يبسطه الواقدي وتلاميذه ، إلى الشعر يجمعه السكرى وغيره ، إلى النحو يفصل قواعده الخليل بن أحمد . كل ذلك دون أن نرى لغوياً يحفل بجمع ألفاظ اللغة العربية جمعاء ، وإذا كان اللغويون شرعوا يؤلفون في نوادر اللغة في أبوابها المختلفة وفي معاني اللغة في باب منها خاص[1]، وإذا كان أبو عمرو بن العلاء ما زال يلتقط عن الأعراب لغاتهم[2] والخليل بن احمد سماعاته عنهم[3] في أسفاط عديدة من الصحف ومن الكتب ، فأين كل هذا من حصر ألفاظ اللغة . زد إلى ذلك أن جمع اللغة على هذه الطريقة لا يستنفد مادتها أبداً ، فهنالك ألفاظ كثيرة لا تخطر ببال ، واللغة واسعة لا مقيد لها في الفكر والذاكرة وشعر الخليل بما حباه الله به من نظر وذكاء ومعرفة بالحاجة إلى تدوين اللغة أولاً وبوجوب البحث عن نهج واف بالحاجة ثانياً ، فأعمل فكره في ذلك وكد

(١) انظر الفصل الممتع الذي كتبه الاستاذ أحمد أمين بك في ضحى الاسلام ٢ : ٢٦٤—٢٦٥

(٢) وفيات الأعيان ١ : ٣٨٦ ، مرآة الجنان لليافعي ، حيدر آباد ١٣٣٧ ، ١ : ٣٢٥

(٣) جمع منها عشرين رطلاً كما يقول سيبويه في تهذيب التهذيب ٣ : ١٦٤

قريحته وناهيك بقريحته ، فقد كان فريداً في ذلك ، لم يبلغ شأوه أحد فيما روى المؤرخون.
وكان أسلوبه في الإبداع أن يرجع إلى اصول الأشياء الأولية وقوانينها العامة يستنتج منها تفاصيلها ، وكان يرى أن لكل علم ضابطاً ، إن شئت فقل حسابياً او لا فقل أصولياً .

وبعدُ فهل يصعب على من كان هذا شأنه أن يرى أن ضابط اللغة والألفاظ هي الحروف تؤلفها بامتزاجها بعضها مع بعض ، او هل يعسر على من حصر بحور العرب وعروضها بضروب من المفاعيل عجيبة أن يجد — وهو يضع أبنية الأفعال والأسماء او مصادرها ويقسمها إلى ثنائية وثلاثية ورباعية وخماسية[1] — أن الألفاظ الثنائية المكونة من حرفين سهلة الحصر ، فما اسهل من أخذ كل حرف من حروف العربية وجمعه مع غيره من الحروف بتقديمه تارة وتأخيره أخرى ، فالباء مثلاً تؤلف مع التاء بت تب ومع الثاء بث و ثب ومع غير ذلك من الحروف شبيها بهذا البناء ، فحصر تراكيبها سهل إذن ، وقل ذلك عن تراكيب غيرها من الحروف حتى تبلغ ٢٨ حرفاً ، وإذا بالخليل يجد التراكيب الثنائية ثم يرى بنظره الثاقب ان الحصول على تراكيب الثلاثي يكون بأخذ مختلف ضروب تركيب حرف مع حرفين آخرين ثم مع أحدهما وحرف آخر وثالث الى آخر الحروف مع إعادة ذلك لكل حرف من الحروف دون الالتفات الى تركيبه مع الحرف ، الذي اخذت تراكيبه آنفاً . وتراكيب الرباعي ثم الخماسي أكثر عدداً ، إلا أن أسلوب الحصر السابق يشملها.

يجد الخليل طريقه واضحاً .فيسر به إلى تلميذه الليث بن المظفر . ويحدثنا بذلك ابن المظفر فيقول : «كنت اسير إلى الخليل بن أحمد ، فقال لي يوماً : لو أن إنساناً قصد وألّف ألف وباء وتاء وثاء على ما امثله لاستوعب في ذلك

[1] وقال الخليل بن أحمد : كلام العرب مبني على أربعة أصناف : على الثنائي والثلاثي والرباعي والخماسي ، فأما الثنائي فما كان على حرفين نحو : قد ، بل ، هل ، ومثلها من الأدوات ، قال والثلاثي نحو قولك : ضرب ، خرج ، مبني على ثلاثة أحرف والرباعي نحو قولك : دحرج ، هملج ، قرطس ، مبني على أربعة أحرف ... قال والخماسي نحو : سفرجل ، وشمرول وكنهبل وقبعثر وما اشبهها قال الليث قال الخليل : ليس للعرب بناء في الأسماء ولا في الأفعال اكثر من خمسة أحرف فمها وجدت زيادة على خمسة أحرف في فعل او اسم فاعلم انها زائدة على البناء نحو : قرعبلانة إنما هو قرعبل... » التهذيب للأزهري ٣٩

جميع كلام العرب ، وتهيأ له اصل لا يخرج عنه شي منه بتة . قال فقلت له وكيف يكون ذلك ، قال : يؤلفه على الثنائي والثلاثي والرباعي والخماسي ، وانه ليس يعرف للعرب كلام أكثر منه . قال الليث فجعلت أستفهمه ويصف لي ، ولا أقف على ما يصف ، فاختلفت إليه في هذا المعنى اياماً ، ثم اعتل وحججت ؛ فما زلت مشفقاً عليه، وخشيت ان يموت في علته فيبطل ما كان يشرحه لي »[1] ولكن الخليل استمر بالتفكير باختراعه العظيم[2]، واعمل فكره فيه ، فلم يمكنه ان يبتدئ من اول ا ب ت ث لأن الالف حرف معتل لا يبقى في الكلمة على شكله بل يتغير ويغيرها ، وما أفسد الابتداء بما يصعب ضبطه ولا تستوي طريقه « فلما فاته أول الحروف كره أن يجعل الثاني أولاً — وهو الباء — إلا بحجة[3] » لأن رفع الألف أخل بترتيب الألفباء ، فلم يعدم من حاجة لأخذ الباء . ثم لما اغفل ترتيب الألفباء جعل يدير اسلوباً لترتيب الحروف تتم منه الفائدة في العمل الذي أنشأه ، فانتقل به الفكر إلى مخارج الحروف مما كان اوعاه في دروسه في النحو ، فوجد انه إن رتب الحروف حسب مخارجها في الفم قربت الحروف المتشابهة من حيث طريقة نطقها بعضها من بعض ، فأصبحت الحاء قرب الهاء قرب الخاء قرب الغين .

ولا بد أنه وجد لذلك فوائد جليلة ، تخيل منها — مستأنسين بنصوص وردت عفواً في كتاب العين — ان الحروف المتشابهة بالمخارج لا يمتزج بعضها مع بعض في تكوين الألفاظ إلا نادراً[4] ، وهي إن ضرب بعضها ببعض أخرجت تراكيب مهملة لم يستعملها العرب ، وما أحسن ان يجتمع المهمل بعضه قرب بعض في الكتاب فلا يتفرق ، وما أحسن ان يقال في كتاب العين : «العين والحاء لا يأتلفان في كلمة واحدة اصلية الحروف لقرب مخرجيهما[5]» ثم يهمل

---

(١) الفهرست ٤٣ وارشاد الأريب ٦ : ٢٢٧ (٢) التهذيب للازهري ٣٩ ، لسان العرب ٩ : ٣٦٩ ، تاج العروس ٥ : ٢٦٨ (٣) المصادر السابقة (٤) ذكر ابن منظور في لسان العرب ١ : ٨ سر تقارب الحروف وما يكثر استعماله من الحروف وما يقل وهو بحث استقصاه واحسن فيه فانظره وفي سر صناعة الاعراب لابن جني نسخة الظاهرية عام ١٥ آخر الكتاب « فصل في مذاهب العرب من مزج الحروف بعضها ببعض وما يجوز من ذلك وما يمتنع وما يحسن منه وما يقبح »

(٥) في التهذيب للأزهري ص ٥٠

بعدهما مباشرة العين مع الهاء ثم العين مع الفاء[1]» . وليس ذلك فحسب بل ان الراء واللام والنون والفاء والباء والميم وهي التي سميت ذُلقًا وشفوية « لما ذلقت وبذل بين اللسان وسهلت في النطق كثرت في أبنية الكلام ، فليس شيء من بناء الخماسي التام يعرى منها او من بعضها ، فإن ورد عليك خماسي معرى من الحروف الذلق او الشفوية فاعلم انه مولد وليس من صحيح كلام العرب[2]» « أما الرباعي المنبسط فان الجمهور الأكثر منه لا يعرى من بعض الحروف الذلق » « ومهما جاء من بناء اسم رباعي منبسط معرى من حروف الذلق والشفوية فإنه لا يعرى من أحد حرفي الطلاقة او كليهما ومن السين والدال او احديهما[3]» ويبدو من ذلك واضحًا ان ضروب الحروف بعضها ببعض في الرباعي والخماسي مهمل إلا ما دخل فيه الحروف الذلق والشفوية وبذلك فهمل الرباعي والخماسي يأتي متقاربًا في الكتاب بعد ترتيب الحروف على مخارجها . ولهذا الترتيب فائدة أخرى جليلة ، وهي أن الحروف المتشابهة قد تحل الواحدة منها مكان الأخرى في كلمة واحدة دون ان يتغير معناها ، وذلك مايسمى بالإبدال . وهكذا يفهمنا الخليل أن كل صاد تسبق القاف إن شئت جعلتها سينًا لا تبالي متصلة كانت بالقاف او منفصلة بعد ان تكون كلمة واحدة[4].

وجد الخليل هذه الفوائد التي تجعل ترتيب الكتاب علميًا منطقيًا سهلاً قريبًا من الحفظ لا تتداخل فيه الأشياء وتمتزج دون صلة أو تشابه ؛ فرغب في ترتيب الحروف على المخارج ، فأقبل على الحروف ، ووضع مخارجها ، وألفها تأليفًا يتفق مع غاية الكتاب ونهجه وما يتوخاه منه « فنظر إلى الحروف كلها ، فوجد مخرج الكلام كله من الحلق ، فصير اولاها بالابتداء به ادخلها في الحلق . وكان ذوقه اياها أنه كان إذا أراد أن يذوق الحرف فتح فاه بالألف ثم أظهر الحرف اب ات اج اخ . . . فوجد العين أقصاها في الحلق

(١) في التهذيب للازهري ص ٥٠ (٢) من الخليل في التهذيب ص

(٣) التهذيب ٤٣ وعن غير ابن المظفر قال الخليل : « وأما المصمته فانها تسعة عشر حرفاً صحيحاً . . . وإذا عريت من حروف الذلاقة قلت في البنا فلست واجداً في جميع كلام العرب خماسياً بناؤه بالحروف المصمتة خاصة ولا كلاماً رباعياً كذلك غير المبنية » التهذيب ٤٧

(٤) من كتاب العين ص ١٠٥ عن دروس الاستاذ مارسيه ٢٤ كانون الثاني ١٩٣٦

وأدخلها فجعل أول الكتاب العين ، ثم ما قرب مخرجه منها بعد العين الأرفع فالأرفع حتى أتى على آخر الحروف[1] ... وهذا تأليفه : ع ح هـ خ غ ق ك ج ش ض ص س ز ط د ت ظ ذ ث ر ل ن ف ب م و ا ي[2] »

ويجعل بعض اللغويين من هذا الترتيب المخالف لترتيب البصريين سبيلاً للطعن في الكتاب وفي نسبته إلى الخليل شيخ البصريين : فيقول المفضل بن سلمة الكوفي (توفي نحو ٢٥٠) : « ذكر صاحب العين أنه بدأ كتابه بحرف العين لأنها أقصى الحروف مخرجاً ، والذي ذكره سيبويه ان الهمزة أقصى الحروف مخرجاً[3] » ؛ ونسي ابو طالب المفضل أن الخليل اسقط الهمزة لأنها حرف يعتريه التغيير . ثم يعترض الزبيدي على تقديم العين على الهاء ويرى ان ذلك ينقض نسبة الكتاب الى الخليل ، ولكن الليث ليس الوحيد الذي نقل هذا الترتيب عن الخليل لنشك في نسبته اياه للخليل بل نقله غيره عنه بحذافيره[4] زد إلى ذلك ان محمد بن احمد بن إبراهيم النحوي البصري (— ٢٩٩) يروي عن الخليل نصاً يعتذر فيه عن عدم الابتداء بالهاء حيث يقول : « انه لم يبدأ بالهاء لأنها مهموسة خفيفة لا صوت لها ... وليس العلم بتقديم شيء على شيء لأنه كله مما يحتاج إلى معرفته ... وأولاها

(١) في التهذيب ٣٩ — ٤٠ ولسان العرب ٩ : ٣٦٩ تاج العروس ٥ : ٣٦٨

(٢) تهذيب ٤٠ وذكر الازهري في محل آخر ص ٤٤ — ٤٥ ولسان العرب ١ : ٧ احياز ومدارج الحروف قالا قال الخليل بن احمد « اقصى الحروف كلها العين وارفع منها الحاء ولولا بحة في الحاء لاشبهت العين لقرب مخرج الحاء من مخرج العين ثم الهاء ولولا هتة في الهاء وقال همة في الهاء لأشبهت الحاء لقرب مخرج الهاء من الحاء فهذه الثلاثة في حيز واحد ، ثم الخاء والغين في حيز واحد ثم القاف والكاف في حيز واحد ثم الجيم والشين والضاد ثلاثة في حيز واحد ثم الصاد والسين والزاي ثلاثة في حيز واحد ثم الفاء والباء والميم ثلاثة في حيز واحد ثم الواو والياء والألف ثلاثة في الهواء ولم يكن لها حيز تنسب إلى غيره » وقد وضع ابو الفرج بن عبد الله بن دلان المعافري الجزيري ترتيب حروف الخليل في أبيات منظومة فانظرها في المزهر ١ : ٤٥ وكشف الظنون ٢ : ٢٩١ والبلغة ١٦٠ وانظر عن ترتيب الحروف واحيازها بالتفصيل في التهذيب ٤١ و ٤٥ و ٤٧ .

(٣) في المزهر ١ : ٤٥ وكشف الظنون ٢ : ٢٩١ ويستطرد المفضل قائلا « ولو قال بدأت بالعين لأنها أكثر الكلام واشد اختلاطاً بالحروف لكان اولى » . وكلامه هذا صحيح الا انه ورد عن الخليل مايشابهه برواية ابن كيسان في المزهر ١ : ٤٦ (٤) كما ذكر ذلك الازهري في التهذيب ص ٤٧

بالتقديم اكثرها تصرفاً[1] » . ويري الزبيدي ان ترتيب الخليل يختلف عن مذهب البصريين حتى « بتقديم غير ذلك من الحروف وتأخيرها[2] » . والحق أن هنالك اختلافاً ما في التقديم والتأخير بين ترتيب الخليل وترتيب سيبويه في كتابه الذي أخذ معظمه عن الخليل[3] ولكني أرى هذا الاختلاف دواعي عملية اقتضاها تأليف الكتاب والسهولة المتوخاة منه ، فقد وردت الضاد في ترتيب سيبويه مع الحروف النواقية ، ولم يدخلها الخليل فيها لأنها قليلة الاستعمال ، وقد قلنا إن الخليل قصد بالذولقية ما يدخل من الحروف المستعملة في الكلمة ليحسنها . وهكذا جعل الضاد مع الصاد ، وفي نطق الحرفين تقارب ؛ وقد وافقه على ذلك الفيلسوف ابن سينا في كتابه « أسباب حدوث الحروف » فجعل الضاد قبل الصاد[4] واختلاف آخر بين سيبويه والخليل في الياء ، فقد أوردها سيبويه مع الجيم والشين ، وعدها الخليل في آخر الحروف مع المعتلات لغاية عملية خالصة وهي إفراد المعتلات . وهذا هو كل الاختلاف الذي يجدر الانتباه إليه خاصة وتعليله ، اما ان يذكر سيبويه الزاي قبل السين ثم الصاد ، ويذكر الخليل الصاد قبل السين قبل الزاي فليس بالاختلاف الكبير ، فهي أحرف متقاربة متشابهة ، لا فارق كبير يميزها ، على أن ابن سينا وافق الخليل وخالف سيبويه في ذلك . وقل مثل ذلك في عد سيبويه (ل ن ر) والخليل (ر ن ل) ، ويظهر لي أن هذين الاختلافين الذين لا كبير شأن لهما[5] حدثا بعد أن تغير مكان الضاد في ترتيب الخليل . وكذلك فإن كان اختلاف بين سيبويه والخليل فليس ذلك « خطلاً واضطراباً » في كتاب العين كما يقول ابن جني[6] ، وإنما هو نتيجة عملية من توخي السهولة والاحكام في التأليف .

---

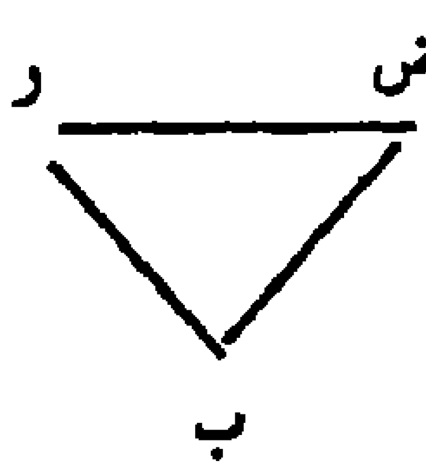
(١) في المزهر ١ : ٤٦ (٢) المزهر ١ : ٤٣ وكشف الظنون ٢ : ٢٩٠

(٣) الكتاب ٢ : ٤٠٥ ويقول الاستاذ مارسيه إن ترتيب سيبويه في كتابه لم يأخذه عن الخليل ولم يذكر انه رواه عن الخليل وان ترتيب كتاب العين هو عمل الخليل (٤) طبعة القاهرة ، سنة ١٣٣٢ ص ٩ (٥) فان ابن جني الذي يأخذ على كتاب العين ترتيبه ويقر ترتيب سيبويه لم ينج من مخالفته بتقديم او تأخير . كذا (سر صناعة الاعراب نسخة الظاهرية عام ١٥٠ ، و : ٢١٩)

(٦) النص السابق .

بعد أن وضع الخليل ترتيب الحروف على مخارجها بأسلوبه الذي ذكرناه انتقل منه إلى غايته الأصلية من كتابه ألا وهي حصر أبنية اللغة العربية وتمييز المستعمل من المهمل مما يتركب من ضرب الحروف بعضها ببعض[1]، ولنتخيل كيف فعل مستأنسين بنص من مقدمة كتاب العين[2] : عمد إلى حصر أبنية الثنائي أولاً مبتدئاً بالعين يؤلفه مع الحرف الذي يتبعه وهو الحاء قائلاً : ان الحرفين لا يأتلفان فتركيبهما مهمل ؛ وكذلك العين مع الهاء والعين مع الخاء ثم مع الغاء[3]. ثم يأخذ العين مع القاف ، فيستخرج من ذلك (عقّ ، قعّ) بتقديم العين تارة وتأخيرها أخرى . ثم يأخذ العين مع الكاف بتقديمها أولاً ثم بتأخيرها ثانياً ، وهكذا حتى ينتهي إلى آخر الحروف ويعود إلى الحرف التالي وهو الحاء فيركبها مع ما يليها ويغفل ما يسبقها لأنه فعل ذلك آنفاً . ويفعل ذلك بكل حرف حتى ينتهي إلى الألف — وهو الحرف الذي يسبق آخر حرف — فيضربه بآخر حرف فقط ضربين ، ومن ثم ينتقل إلى الأبنية الثلاثية فيضرب الحرفين الأولين (ع ، ح) بالحرف الثالث ثم بالرابع والخامس إلى آخر الحروف ، ثم يعمد إلى العين مع الخاء ويضربهما بما يلي الخاء وهلمجرا .

ولفهم طريقه إلى تأليف حرف مع حرفين[4] خذ مثلثاً ، ووقع على كل رأس من رؤوسه حرفاً ، ولنفرض أن الحروف الثلاثة هي : (ض ، ر ، ب) اجمع الحرف الأول مع الثاني مع الثالث تحصل على (ضرب) ، ثم اجمعه مع الثالث والثاني تحصل على (ضبر) ، ثم اجمع الثاني مع الثالث والأول تحصل على (ربض) ، ثم اجمع الثاني مع الأول والثالث تحصل على (رضب) ، ثم خذ الثالث واضربه بالثاني والأول تحصل على (برض) ثم بالأول فالثاني تحصل على (بضر) : فتلك ستة أوجه . ولا شك أن هذه الطريقة



(١) ذكر احمد امين طريقة ذلك في ضحى الاسلام ٢ : ٢٦٨ — ٢٦٩ ولخص تلك الطريقة ابن خلدون في المقدمة في باب اللغة ونقل عنه محمد حسن صديق خان في ابجد العلوم ٦١٤ — ٦١٥

(٢) في التهذيب ص ٤٥ (٣) في التهذيب للازهري ص ٥٥ وما يتبعها

(٤) تجد طريقة الشرح هذه في الجمهرة لابن دريد ٣ : ٥١٢ ونقلها عنه المزهر ١ : ٣٦ اما الحروف التي فرضناها فهي نفسها التي اخذها الخليل مثالا (تهذيب ٤٥)

تقتضي كما في الثنائي ان لا يضرب حرف من الحروف حين الوصول إليه بما يسبقه من الحروف . حتى إذا انتهى من الثلاثي أخذ الرباعي وابتدأ بالحروف الثلاثة الأول ، يضربها بالتتابع مع كل حرف من الحروف التي تليها . ولفهم طريقة تأليف ضروب الحروف الأربعة ارسم مربعاً ، ووقع على كل رأس من رؤوسه حرفاً فإذا كانت الحروف الأربعة (ع ب ق ر) اضرب العين بالأوجه الستة التي تتكون من (ب ق ر) تحصل على عبقر ، عبرق ، عقرب ، عقبر ، عربق ، عرقب ، ثم اضرب الباء بالأوجه الستة التي تتكون من (ع ر ق) تحصل على بعقر ، بعرق ، بقرع ، بقعر ، برعق ، برقع . وافعل كذلك بالقاف ثم بالراء يتكون مجموع ما تحصل عليه أربعة وعشرين وجهاً ، أكثرها مهمل . قال الخليل[1] « والكلمة الخماسية تتصرف على مائة وعشرين وجهاً : وذلك أن حروفها ضربت وهي خمسة احرف في وجوه الرباعي وهي أربعة وعشرون وجهاً » وحصر الخماسي كالثلاثي والرباعي ، الا انه يؤخذ فيه أربعة أحرف تضرب بما يتبعها من حروف العربية .

ع	ب
ر	ق

ولما انتهى الخليل من هذا الحساب والضرب كتب عنه الليث في أول كتابه : « هذا ما ألفه الخليل بن أحمد من حروف ا ب ت ث التي عليها مدار كلام العرب وألفاظها ، ولا يخرج شيء منها عنه أراد أن يعرف بذلك جميع ما تكلمت به العرب في أشعارها وأمثالها ، ولا يشذ عنه منها شيء[2] » فغاية الكتاب الأولى حصر الأبنية المستعملة والمهملة بطريقة حسابية لا تخطىء كما مر معنا .

ولم يفهم تلك الغاية كثيرون ممن رجعوا إلى كتابه فظنوا انه أراد أن يذكر في كتابه كل الألفاظ التي استعملها العرب لا الأبنية ، فأخذ عليه أحمد البشتي ان كتابه اشتمل على ضعفي كتاب الخليل ، ويهزأ الأزهري فيقول : « ولما قرأت هذا النص من كتاب البشتي استدللت به على عقله وقلة فطنته وضعف فهمه ، واستيقنت أنه لم يفهم من الخليل ما أراده ولم يفطن للذي قصده[3] » واتخذ ابن فارس من معنى ما ذكر الخليل طريقة لنفي الكلام عنه فقال : « فأما الكتاب

(١) في التهذيب ٥ ء (٢) في التهذيب للازهري ص ٢٩ (٣) في المصدر السابق .

المنسوب إلى الخليل وماقي ختمته من قوله : هذا آخر كلام العرب ، فقد كان الخليل أورع وأتقى لله جل ثناؤه من أن يقول ذلك [1] » وإذ قد فهمت ما أراد الخليل فليس ما يمس تقاه وورعه من هذا الكلام . بل إنك تفهم انه يستطيع ان يحسب عدد الأبنية التي أخذ العرب منها ألفاظهم ، وذلك ما فعل بطريقة رياضية لا تخطىء فقد عرف أن للثنائي وجهين ، وللثلاثي ستة أوجه ، وللرباعي أربعة وعشرين وجهاً ، وللخماسي مائة وعشرين وجهاً ، وعرف عدد حروف العربية فكان حساب عدد الأبنية التي تخرج من كل منها ممكناً ، وجمع الحاصل أسهل [2] . وهاك عدد أبنية العرب المستعملة والمهملة بعد الحساب وإسقاط المكرر :

الثنائي	٧٥٦
الثلاثي	١٩٦٥٦
الرباعي	٤٩١٤٠٠
الخماسي	١١٧٩٣٦٠٠
المجموع	١٢٣٠٥٤١٢

ويتفق حسابنا هذا في جميع تفاصيله مع ما ذكره حمزة الأصفهاني [3] عن الخليل ، اللهم الا في الثلاثي ، فقد ذكر أن عدد ابنيته (١٩٦٥٠) . ولاشك ان هذا خطأ من الناسخين .

(يتبع) يوسف العش

---

(١) الصاحبي ١٨ (٢) ورد هذا الحساب والتعداد مروياً عن حمزة الأصفهاني عن الخليل في المزهر ١ : ٣٧ وبغية الوعاة ٢٤٣ وكشف الظنون ٢ : ٢٩١ وحسب هذا الحساب ابو بكر محمد بن حسن الزبيدي في مختصر كتاب العين فيما نقله عنه المزهر ١ : ٣٧ . وورد الحساب أيضاً في الجمهرة لابن دريد ٣ : ٥١٢ . ونقل ذلك المزهر ١ : ٣٦ — ٣٧ وروى جرجي زيدان ذلك في تاريخ آداب اللغة العربية ٢ : ١٢٤ ولكن هذه الحسابات تختلف الواحدة عن الاخرى اختلافاً بيناً : فاذا ذكر الزبيدي ان مجموع المهمل والمستعمل من الأبنيه (٦٦٠٩٤٠٠) (وفي الأصل ٦٦٥٩٤٠٠ وهو غلط إن شئت سمه مطبعياً) فان حمزة يذكر (١٢٣١٠٤١٢) كما في النسخة المطبوعة من البغية أو (١٢٣٠٥٤٠٦) كما يظهره حاصل جمع التفاصيل وما في المزهر واذا ذكر هذان المؤلفان ان ضروب الثلاثي (١٩٦٥٠) ذكر ابن دريد أن ضروبه ١٥٦٢٠) ولا شك في أن كلا منهم أغفل من الحروف مالم يغفله الآخر ومن المعتل او المكرر ماعده الآخر ، وبذلك ظهر الاختلاف فيما بينهم . ويجدر الاشارة أيضاً إلى ان خطأ الطابعين او النساخ يزيد الاختلاف بينهم إلى هذا الحد .

(٥) في المزهر ١ : ٣٧ وتعداده أقرب المصادر الى الصحة وفي بغية الوعاة ٢٤٣ وكشف الظنون ٢ : ٢٩١

عشائر الشام

- ١ -

من الموضوعات التي أولع بها أدباء العربية قديمًا وأطالوا البحث عنها والكتابة وقصر اخلافهم الحاضرون في ذلك موضوع عشائر الأعراب او البدو[1] وإذا كان بعض الفضلاء في العراق وفي مصر وفي جنوبي الشام « فلسطين وشرقي الأردن » ممن سنذكر أسماءهم قاموا اخيرًا بقسط محمود من ذلك فإن امثالهم في شمالي الشام لم يحفلوا به حتى الآن ٠

على حين ان هؤلاء البدو هم مابين ظهرانينا اوعلى مقربة منا ، ولهم فوق صلات الجنس واللغة والدين والتاريخ التي تربطنا وإياهم مكانة في أمورنا الاقتصادية والقومية ٠ فكل سمونا واكثر لحومنا التي نأكلها والأصواف التي ننسجها والمطايا التي نركبها منهم ٠ وقسم كبير من سكان الحواضر عندنا كدمشق وحمص وحماة وحلب ودير الزور يعتمد في تجارته ومرتزقه من الماشية ومنتوجها على شركائه وعشرائه من هؤلاء البدو ٠

وقد كتب لي ان اتجول في املاك دولة الشام ، وهي على سيف البادية وجل فلاحيها وكل الضاربين في براريها من البدو ، وان اغشى منازل هؤلاء فانظر واسأل وادون واقارن ذلك بما اجده في الكتب العربية والافرنجية الباحثة عنهم حتى اجتمع لي طائفة من اخبارهم ٠ على انني اعترف بقلة مانهلت من هذا البحر ومادونت لصعوبة الاتصال بالبدو وعسرة استقراء الحقائق منهم مما يتيسر لرواد الافرنج ومستشرقيهم ولاسيما لعمال دوائر الانتداب منهم اكثر منا ٠ لأجل هذا فقد قصرت هذه العجالة على ذكر مقدمات وجيزة عن تقسيم عشائر البدو في عهدنا الى طبقات وعن تاريخهم القديم والحديث ثم وصفت البادية

(١) الأعراب بالفتح اهل البادية من العرب والواحد أعرابي بالفتح ايضاً وهو الذي يكون صاحب نجعة وارتياد للكلأ ، وقيل من نزل البادية وجاور البادين وظعن بظعنهم فهم اعراب ومن نزل بلاد الريف واستوطن المدن والقرى العربية وغيرهما ممن ينتمي الى العرب فهم عرب وان لم يكونوا فصحاء (عن المصباح المنير للمقري الفيومي) ، وقد اصطلح الشاميون على تسمية الاعرابي بالبدوي وعلى تسمية الريفي بالفلاح ويجمعونه على فلاحين وفلاليح كما يجمعون العربي على عربان ٠

وخصائصها ، ثم انتقلت الى البحث الأصلي وهو : تعداد العشائر وتعريف منابتهم ومنازلهم وفرقهم ومبلغهم من العدد والقوة ، وتركت البحث عن عاداتهم وتقاليدهم واخبارهم الماضية والحاضرة الى فرصة اخرى .

ما أُلف عن البدو

من الباحثين عن أنساب البدو واحوالهم بين أدباء العرب القدماء وجدت ابن عبد ربه الاندلسي المتوفى في سنة ٣٢٨ في كتابه العقد الفريد ، وابي الفرج الاصفهاني المتوفى في سنة ٣٥٦ في كتابه الأغاني ، وابي عبيد البكري المتوفى في سنة ٤٨٧ في مقدمة كتابه معجم ما استعجم ، وابن خلدون المتوفى في سنة ٨٠٨ في المجلد السادس من تاريخه الكبير المسمى العبر ، والقلقشندي المتوفى في سنة ٨٢١ في المجلد الرابع من صبح الأعشى، في كتابه الثاني المسمى نهاية الأرب في معرفة قبائل العرب المطبوع في بغداد وفي كتابه الثالث المسمى قلائد الجمان في التعريف بقبائل عرب الزمان وهو من مخطوطات دار الكتب المصرية يبحث في قبائل مصر في زمنه - وقيل ان في احد الأجزاء التي لم تطبع بعد من مسالك الأبصار لابن فضل الله العمري المتوفى في سنة ٧٤٨ ذكراً لمنازل العرب كما كانت في مصر على عهده ، وقيل ايضاً ان لابن حزم الظاهري المتوفى في سنة ٤٥٦ كتاباً اسمه « جمهرة النسب في معرفة قبائل العرب » وهو من مخطوطات دار الكتب المصرية ولم يتسن لي بعد الاطلاع على المخطوطات المذكورة ، وإن كانت تشمل العصور والأماكن البعيدة عن موضوعي وبحثي .

ومن الباحثين المتأخرين ابو الفوز السويدي البغدادي في رسالته « سبائك الذهب في معرفة قبائل العرب » المطبوعة على الحجر في الهند سنة ١٢٩٦ لكن ابحاثها قديمة ومقتبسة عن نهاية الأرب للقلقشندي وترتيبها غير موفٍ بالغرض ، والسيد شكري الالوسي في كتابه « بلوغ الأرب في احوال العرب » المطبوع في بغداد سنة ١٣١٤ في ثلاث مجلدات خصها بشرح اخبار عرب الجاهلية وعاداتهم وآدابهم مما هو بعيد عن مطلوبنا واحسن الكتب العربية الحديثة كتاب « خمسة اعوام في شرقي الاردن » المطبوع في حريصا

(لبنان) سنة ١٣٤٥ للارشمندريت بولس سليمان بسط فيه آداب بدو شرقي الاردن في عيدنا وقضائهم ودياناتهم وعشائرهم ، وكتاب « القضاء بين البدو » المطبوع في القدس سنة ١٣٥٢ للسيد عارف العارف قائم مقام بئر السبع بسط فيه اخبار بدو بئر السبع في عيدنا ايضاً وطبائعهم وعاداتهم في القضاء والقتل والسرقة والمرأة والحيوان والرحيل والتجارة والطب والعقيدة ، وكتاب « تاريخ شرقي الأردن وقبائلها » للفتنت كولونل ج - بيك الانكليزي وقد عربه السيد بهاء الدين طوقان وطبعه في القدس سنة ١٣٥٤ ، وكتاب « قلب جزيرة العرب » لفؤاد حمزة طبع في مصر سنة ١٣٥٢ ، وكتاب « قبائل العرب في مصر » لأحمد لطفي السيد طبع في مصر سنة ١٣٥٤ ، وكتاب « عشائر العراق » للسيد عباس العزاوي المطبوع في بغداد سنة ١٣٥٦

ووجدت من الافرنج الباحثين عن البدو الرحالة بركهارت السويسري[1] صاحب كتاب « رحلة في بلاد العرب » وقد وافى هذه البلاد في سنة ١٢٢٤ هـ وعد في كتابه ما صادفه في تلك الحقبة من عشائر البدو في الشام والحجاز وأحصى نفوسها وذكر أطوارها وأساليب معيشتها ومناطق رعيها وكل ما يتعلق بها بتدقيق واف . وللمستشرق موزيل التشيكوسلوفاكي[2] كتب بالألمانية عن بادية العرب بحث فيها عن عشائر عنزة ولاسيما عن الرولة وتقاليدهم ، وكان أقام بينهم سنيناً عديدة وكانوا يدعونه الشيخ موسى الرويلي وللسائحة الانكليزية اللادي آن . بلونت[3] كتاب في مجلدين عن « عشائر البادية الفراتية » طبع في لندن سنة ١٨٧٩ كما أن لها كتاباً آخر اسمه « رحلة إلى نجد » ترجم الى الافرنسية ، وللكابتين رينو[4] الافرنسي رسالة صغيرة عن « بدو البلاد التابعة حكومة دمشق » طبعت في سنة ١٩٢١ وللكومندان مولر[5] كتاب اسمه « في بلاد الشام مع البدو » طبع في سنة ١٩٣١ ، وهذان الضابطان كانا من مدراء الإدارة الافرنسية الخاصة

(1) Jean - Louis Burkhardt, Voyages en Arabie. (2) Aloes Musil, Arabia deserta, 1927. (3) Lady Anne Blunt, Bédouin tribes of the Euphrates, Murray, 1879. (4) Capitain Renaud, Les Bédouins de mouvence du gouvernement de Damas, 1921 (5) Victor Muller, En Syrie avec les Bédouins, 1931

بمراقبة العشائر . وثمة كتابان افرنسيان للأب جوسن الدومينيكي[1] احدهما عن عادات البدو في بلاد موآب وثانيهما عن عشيرة الفقرا احدى العشائر الكبيرة في تلك الأنحاء ، وللمسيو آلبر بوشمان[2] كتاب اسمه « امتعة المعيشة البدوية » فيه وصف ألبسة البدو وفرشهم وأوانيهم ومضاربهم . واحدث الكتب الاوربية وأكملها عن عشائر الشام هو ما نشره أخيراً المستشرق البارون فون اوبنهايم[3] المطبوع في ليبزيغ سنة ١٩٣٩ ، ولعل هنالك كتباً أخرى لم أطلع عليها فاكتفيت بذكر ما علمت .

طبقات البدو

لنا أن نقسم بدو زماننا في شمالي الشام حسب عراقتهم بالبداوة واطوارها وبعدهم عن عن الحضارة ومنازلها الى ثلاث طبقات :

الطبقة الاولى : أعراب البادية او البدو الأقحاح ويوصفون في اصطلاح الافرنج بالبدو الاصليين او بالبدو الرحل ، وهم اهل الوبر ، أصحاب المضارب او الخيام او بيوت الشعر لسكناهم والخيل لركوبهم والابل لمعاشهم . فالابل مراكبهم التي يحملون عليها احمالهم وينقلون اثقالهم ويأكلون لحومها ويقتاتون بألبانها ويكتسون وينسجون بيوتهم من أوبارها ويقايضون عليها في المبايعات ويعطون منها في سائر الغرامات والديات والمراضات ومهر الزوجات ، فهي في الجملة مصدر غناءهم ومبعث هناءهم ، كما انهم سبب معاشها ووجودها ، لا يدرون أهي خلقت لهم وقبلهم ام هم خلقوا لها وقبلها ، ولا يدفعون للدولة عنها سوى ضريبة تدعى « الودي » ، دأبهم الظعن بين قفار البادية وارياف الحاضرة فراراً من حمارة القيظ تارةً وصبارة البرد اخرى وارتياداً لمواقع القطر وانتجاعاً لمنابت الكلأ والمراعي الصالحة للابل فيخيمون هنالك ما ساعدهم الخصب وامكنهم الرعي ثم يتوجهون لطلب الكلأ وابتغاء المياه والدفء في اماكن اخرى فلا يزالون في حل وترحال يقطعون

(1) P. Jaussen, Coutumes des Arabes en pays de Moab. Coutumes des Fuquaras, 1920. (2) Alber Bouchman, Les meubles de la vie Bédouine. (3). Die Beduinen, Max Vonoppenheim . Leipzig. 193)

٥٠٠ و ٦٠٠ واحياناً ٧٠٠ — ٨٠٠ كيلو متر فيصلون في الشرق الى بوادي العراق او في الجنوب الى فيافي نجد ثم يعودون الى مشارف الشام او الى ما يقاربها ٠

وهواهم في البادية وفيافيها الشاسعة وآفاقها الواسعة وحريتها المطلقة ووحشتها الرهيبة ونباتاتها وحيواناتها الغريبة ولا يزالون يمدحون البوادي وشظف عيشها في منظوم كلامهم ومنثوره ٠ وهم يحتقرون اهل الطبقة الثانية ويدعونهم « رعية » و « شاوية » او « شوايا » لاقتنائهم — الشياه والمعز ، يعدّون ذلك من اكبر العار اذ تمنعهم عن الايغال في البيداء ومدافعة الاعداء — ويتجنبون اهل الحضر والقرى ويدعونهم « الفلاليح » لانهم ساكنون بيوت الحجر ومعتادون على الرفه وحماية الدولة ، ومتكلون على الحرث والكرث وهم دائماً يحملون السلاح ويتلفتون في الطرق ويتجافون عن الهجوع الا غراراً في المجالس وعلى الرحال وفوق الاقتاب ، ويتفردون في الصحراء وثقتهم بأنفسهم كثيرة حتى صار البأس لهم خلقاً ٠ ولذلك كان أكثر البدو توغلاً في القفر اشدهم بأساً واجرأهم على تحمل المشاق ٠وهؤلاء البدو الشعث الغبر الجفاة لا يغشون للقرى والمدن الا للضرورة في سني المحل والظمأ او لابتياع حاجاتهم وبيع الذكور من إبلهم ، وبيع اصوافهم ، وهم لجفوتهم وقسوتهم وجهلهم حق الغير في تعبه ونشبه كثيراً ما يلحق اهل الضياع والمزارع حين مرورهم بها مضرات من افسادهم السابلة ورعيهم الزرع مخضراً او انتهابه قائماً وحصيداً ، ويتفاقم ضررهم حينما يرون من فوضى الأحكام ومسامحة ذوي السلطان فرصة ٠ وهؤلاء في بلادنا عشائر شمر في بوادي الجزيرة الفراتية ، وعشائر عنزة في بوادي الشامية ٠ وسيأتي ذكر فروع كل منها ٠

الطبقة الثانية : اعراب الحاضرة الذين يسمون في انحاء حلب وحماة وحمص ودمشق « عربان الديرة » او « الرعية » وفي انحاء دير الزور والجزيرة « شوايا » ٠ وهؤلاء ايضاً اهل وبر وخيل ، لكنهم قسمان : قسم لا يرتزق الا بالضرع اي بارعاء الماشية من الغنم والمعز فقط ٠ وهذه الماشية اما ان تكون لهم وحدهم ، واما ان تكون لأهل مدن حلب وحماة وحمص ودمشق ودير الزور وغيرها يشاركونهم في تربيتها والمتاجرة بصوفها وسمنها التي تدر عليهم وعلى شركائهم في سني الخصب ثروة غير يسيرة ٠ ويسمي الافرنج

هذا القسم من الأعراب بالغنامة او النصف رحل او النصف حضر . وهؤلاء يقطنون بيوت الشعر دون غيرها ليتمكنوا من الظعن وراء الماشية . والقسم الثاني يضم الى الضرع امتلاك الضياع والارضين واستثمارها بالحرث والزرع ، فهم يقبلون من جهة على الزرع خوفاً من ان تقضي أعوام الصقيع على الماشية او ينقض عليها غزو ينهبها او مرض يهلكها ، ويظلون متعلقين بأهداب الضرع اما لصغر مساحة الأرض التي يملكونها او لكثرة ما ينتاب الزروع من الآفات كالجراد والمحل وعيث البادية وغير ذلك ، ولأنهم لم يتجردوا بعد عن أطوار البداوة وهوى الحل والترحال . وهم بعد ان ينتهوا من بذر الزروع الشتوية يرحلون في أواخر الخريف الى البادية انتجاعاً لمرعى غنمهم ودفئهم ويعودون في أواخر الربيع الى منازلهم وضياعهم ليلحقوا اعمال الحصاد والرجاد والدراس للزروع الشتوية والبذر والري والتعهد للزروع الصيفية . وهؤلاء يقطنون بيوت الشعر او قباب اللبن في أنحاء حلب او السبايط المبنية من أعواد الطرفاء وأغصان عرق السوس في أنحاء سقي الفرات والخابور وغيرهما من انهار الجزيرة . وليس للتقسيم المذكور حد محدود ، فالعشيرة الواحدة قد تكون من القسم الاول او الثاني وحدهما او من القسمين كليهما :

وسبب تسمية اهل هذه الطبقة بعربان الديرة لأنهم مرتبطون بديار خاصة في أطراف الحاضرة ومستقرون ولاسيما اهل القسم الثاني فيها ، ولأنهم حينما يظعنون في الشتاء لا يوغلون في البادية أكثر من ٣٠٠ — ٤٠٠ كيلومتر مراعاة لمقدرة الغنم ولقرب المناهل والآبار الصالحة لورودها . فأعراب حمص وحماة مثلاً لا يتعدون الخبرات والقعرة « شرقي تدمر » وكثيراً ما يشتون حول جبل البلعاس وجبل العنور ، كما ان أعراب سقي الفرات يشتون حول جبل البشري ، واعراب أنحاء دمشق يشتون في ديرة التلول وحول جبل التنف ، واعراب الجزيرة الفراتية حول جبل عبد العزيز .

واهل هذه الطبقة يشبهون في الجملة الطبقة الاولى في طباع البداوة والجلفة والشعوثة وانتهاك حمى الطبقة الثالثة وفلاحي الحاضرة عند سنوح الغفلة وضعف الدولة . ويختلفون بأنهم لا يعاملون في عرف البادية معاملة اهل الطبقة الاولى فلا يشهر عليهم الحرب ولا يحفظ لهم صخب اي لا يجار الملتجىء اليهم ، بل لما كانوا « رعية » و« شوايا » يؤكلون

ولا بأكلون . فكأن الطبقة الاولى كالدول المستقلة تمام الاستقلال من الاوربيين تعامل بجميع قواعد حقوق الدول ، والطبقة الثانية كالدول المستقلة من الشرقيين يحافظ على عهودها وتحترم ذمتها بحسب قوتها ومنعتها ، والطبقة الثالثة كالدول التي لم يصادق على استقلالها او كالامارات المحمية - ويختلفون ايضاً بان لهم استعداداً بارزاً للتحضر فقد صار بعضهم اهل مدر اي اصحاب قرى وضياع يقطنون فيها ويستثمرون أرضها ، ولآخرين منهم علائق جمة مع تجار الماشية او التجار السوقة في المدن والحواضر يشاركونهم في تربية الغنم او زراعة الحبوب ، وهم يؤدون للدولة عدا ضريبة الأغنام العشر عن الزروع والخراج عن الأرضين .

والطبقة الثالثة أيضاً قسمان : قسم يشبه أهل القسم الاول الذي ذكرناه في بحث الطبقة الثانية بأن فيه أهل ضرع ووبر يربون الماشية ويقطنون بيوت الشعر ويرتزقون من مشاركة صغار السوقة في المدن او الزراع في القرى ومراكز الاقضية ويدعون « شكّارة » بتشديد الكاف على أنهم يختلفون عن أولئك بأنهم لا يؤلفون عشائر ذات شأن بل أحياء صغيرة منفردة ضعيفة الحول والطول ، قليلة العدد والقوة ، وضيعة الارومة والمكانة ، وبأنهم لا يظعنون الى البادية بل يتنقلون حسب الفصول ووجود المرعى في الهضاب والاودية الخالية والبراري والحقول البائرة الممتدة قرب منازلهم او ضمن حدودها او حدود مواطن شركائهم . ولا يخلو قضاء من أقضية بلاد الشام في ساحلها وداخلها من هؤلاء الاعراب الرعاة . وقسم فيه الاعراب الفلاحون « الفلاليح » الذين تركوا الحل والترحال وشن الغارات وايقنوا ان العيش الثابت خير من المتنقل ، وأن من يلجأ لحمى الدولة أهنأ بالاً ممن يتكل في حمايته على نفسه وعصبيته فعمروا الخرب الدائرة ، وهجروا بيوت الشعر الا قليلا وصاروا أهل مدر اي انهم قطنوا ببيوت الحجر او القباب وتوفروا على الحرث والزرع أكثر من تربية الماشية .

من هؤلاء في شمالي الشام القاطنون في قرى « املاك الدولة » في أقضية منبج والباب وجبل الاحص ومطخ قنسرين وسهل العمق وسهل الروج وسهل الغاب وفي أنحاء ادلب

ومعرمين و كورة العلا وفي أقضية حماه وسلمية وحمص والنبك والقنيطرة والزوية وحوران وجبل الدروز وغوطة دمشق ومرجها ... ممن تعددت اسماؤهم واتضعت أنسابهم وأحسابهم .
وأهل هذه الطبقة أيضاً وان كانوا يغشون دائماً المدن والقرى ويشار كون أهلها ويعاشرونهم ويتصلون بمرافقها ومرانعها لكنهم مابرحوا محتفظين بقسم غير يسير من خصال البادية كالخشونة والرعونة فهم يتمسكون بالقشافة المدقعة والجهالة المطبقة ويتوانون عن العمل الصالح في الزرع والحرث ولاسيا في الغرس .

(يتبع) وصفي زكريا

——ooo——

مخطوطات ومطبوعات

الامير جمال الدين عبد الله التنوخي

تأليف تلميذه الشيخ ابي علي مرعي البستاني وآداب الشيخ الفاضل الشيخ محمد ابي هلال
تأليف الشيخ ابي علي عبد الملك بن الحاج يوسف الحلبي الشافعي

أجاد ناشر هذه الرسالة الاستاذ عجاج نويهض مترجم « حاضر العالم الاسلامي » وغيره من الكتب النافعة بنشرها على طريقة عصرية مقبولة وبإتباعه لها بلمحة تاريخية مطولة تشتمل على ترجمة « للأمير سعيد » و « الشيخ الفاضل » وصفوة تاريخ الأمراء آل تنوخ في لبنان من اولهم الى انقطاع سلالتهم قبل منتصف القرن الحادي عشر ووصف امارتهم وامارة آل معن حتى نهاية الامير فخر الدين المعني الثاني الكبير .

وفي الحق ! أن الشخصيتين اللتين يدور عليهما الكتاب وهما : الأمير جمال الدين عبد الله التنوخي دفين قرية عبيه ، والأمير فخر الدين المعني الثاني الكبير دفين الآستانة من أهم الشخصيات التي يفاخر بها العرب والمسلمون في الدين والسياسة . فالامير السيد كله خير وتقوى كان لأمته خير مثال يقتدي به المقتدون والامير فخر الدين كان نابغة العرب في العصور الأخيرة بما رزقه من طبع سياسي واداري براق .

وقد أعجبني رأي الاستاذ نويهض في تعليل اخفاق الامير فخر الدين اذ قال : (ص ه ٦١) : « ولو قيض لحكم اقطاعي ، مهما كان ضخماً مترامي الأطراف ، ان يعيش ويبقى في العصور الأخيرة ، في وجه نظام الدولة الحديث ، في الشرق أو في الغرب ، لكان حكم فخر الدين الثاني أولى الأحكام الاقطاعية بأن يعيش ، ولو كان مقدوراً للبناء المشمخر الذي رفعه سليل ربيعة بين الكرمل وانطاكية بدهائه وقوة يمينه ، ان تتلاقى حنايا قناطره فتتماسك جوانبه ويشد بعضه بعضاً فيقوى على الأعاصير وترتد عنه الصدمات خاسرة ، ويرقى به صاحبه من دور الاقطاع الكبير الى الملكية الثابتة القرار ، مع تكثيف الجيش وتقوية آلات الحرب وتنمية موارد الثروة العامة ، ونشر العلم الذي كان ينتقل وتشذ من أوضاعه القديمة إلى أوضاعه الجديدة ، لأمكن فخر الدين ان

يشيد للعرب في سورية الغربية ملكاً عربياً متين الجوانب وفيه اليوم ملايين من السكان . ولكن اذا كان بنو ربيعة الاولون في الجزيرة لم يطيقوا ابوياً جد المعنيين وهو واحد منهم ، لبأسه وكثرة غارته وإيقاعه ، وما زالوا به حتى أكرهوه على الرحيل فرحل ، اتطيق الدولة التركية العثمانية حفيد معن وهو يؤسس امارة قد تفضي الى ملك في بلاد سورية ، فيقطع من سلطنتهم ويهدم منها ليبني له مملكة ؟ »

وقال المؤلف في تأثير الشعر في العرب وتغاليهم في روايته : « الشعر عنصر من عناصر الغذاء في حياة الامارات الاقطاعية عند كل الامم المتحضرة ، يماشي الفروسية ، وتنعكس عليه ابهتها ، ويكون وشياً لطرازها ، وشدو غنائها ، هذا على الجملة ، وأما كون نزعة الشعر في الاصل جزءاً من طبيعة العربي على الخصوص ، وهي من غرائزه النامية ، جاهلية واسلاماً ، بادية وحاضرة ، فلا يحتاج الى دليل . قل — اذا كانت الفروسية عند العرب ، وهي عندهم على غير انقطاع ، كان الشعر ، وكان منشده وسامعه وراويه ، وهذا في كل الاقاليم التي سكنها العرب قديماً وحديثاً ، وكما كنا ولا نبرح نطرب لذكر المنحنى والعقيق واللوى والرياض التي قال ياقوت انه كان في الجزيرة لا اقل من مئة وستة وثلاثين موضعاً يسمى بالروضة او الروضتين ، فكذلك نطرب لترنم الشعراء بذكر المستجد من الاسماء للاماكن التي نزلها العرب بعد الفتوح في سواحل الشام وثغور البحر الابيض وجبال بيروت ومقاطعات الغرب وجبل بني معن ، وكما يشتاقك وصف مراتع الظباء في نجد والحجاز وأوديتهما المختلفة ، فكذلك يجتذبك ذكر صنين وجبل الشيخ ، ووصف تساقط الثلوج عليهما ، وكما كان الشعراء يفدون على الملوك والامراء في الجزيرة والحيرة وديار غسان قبل الإسلام فكذلك تراهم عند التنوخيين اللخميين في لبنان . وسنظل نقرأ الشعر العربي اينما كان العرب ونزلوا ، وفي اي جبل او سهل حلوا . »

وفي بعض هذه الرسائل القديمة كتبت الصاد بالسين على عادة القوم في كتبهم الروحية فرد عليها المؤلف رداً لطيفاً بقوله : « وردت كلمة « الصادق » و « التصديق » في سيرة الامير السيد بالسين بدل الصاد احياناً . وصوابها بالصاد ، ولم يرد في العربية فعل (صدق) بالسين . » والمأمول مع الزمن ان تزول السين من هذا الرسم وتبقى الصاد ليتوحد الاملاء كما تتوحد الآراء .

محمد كرد علي

تذكرة الشعراء

او

شعراء بغداد وكتابها في أيام داود باشا والي بغداد

لعبد القادر الخطيي الشهراباني

في هذا الكتاب تراجم مختصرة لثلاثة وخمسين رجلاً (ليس فيهم شاعر يذكر) من أهل النصف الأول من القرن الثالث عشر للهجرة في بغداد . عني بنشره ووضع فهارسه العلامة اللغوي الاب انستاس ماري الكرملي . والكتاب = على مافيه من لغة رديئة وأسلوب عامي وخطة مضطربة = يصور لنا نموذجاً من ثقافة ذلك العصر . ولذلك تولى الاستاذ الكرملي نشره كما هو وأضاف اليه فهارس ومعجما للألفاظ العامية والأعجمية مع خاتمة دلـــ بها على فائدة الكتاب .

مراثي مسعود

هي مجموعة الكلمات والقصائد التي ألقيت في حفلة تأبين محمد مسعود بك احد أعلام النهضة الأدبية في مصر . كان عالماً مدققاً واديباً كبيراً وصحافياً مفتناً ومؤلفاً موفقاً معروفاً بحسن الخلق والاستقامة . وقد تولى الذين ابنوه شرح هذه النواحي ونوهوا بمكارم اخلاقه وعظيم مآثره رحمه الله واحسن عزاء الامة .

آراء وأنباء

استدراك

أشير هنا — مستدركاً سهواً في ص ٣٧٥ سطر ٧ من المجلد السادس عشر لهذه المجلة — الى ان كلمة (شعوذة) صحيحة فصيحة مثل (شعبذة) . وأن سنة ٢٤٢ (ص ٣٣٥ سطر ١٧) صوابها : ٣٩٢

الأفغاني

وفاة علماء عاملين

فقدت الامة ثلاثة من أعلام العلماء العاملين : الشيخ محمد الحسيني صاحب التفسير والشيخ اسماعيل الحافظ مصحح الجامع الصحيح لمسلم ، وهما من علماء طرابلس الشام . اما الثالث فالشيخ عبد الوهاب النجار من علماء مصر وصاحب كتاب قصص الانبياء وغيره . رحمهم الله رحمة واسعة وعزى الفضائل والعلوم فيهم .

مجلة المجمع العلمي العربي

أنشئت سنة ١٣٣٩ هـ الموافقة لسنة ١٩٢١ م
تنشر في دمشق مرة في الشهر

تشرين الثاني وكانون الأول سنة ١٩٤١ م
ذو القعدة وذو الحجة سنة ١٣٦٠ هـ

دمشق
المجمع العلمي العربي

قيمة الاشتراك السنوي الدفع مقدماً { في سورية ولبنان ٣٠٠ قرش سوري
وفي جميع الاقطار ٤٠٠ 〃 〃

مطبعة الترقي بدمشق

شيطان الظهيرة

هذا عنوان رمزي لا حقيقة للشياطين فيه . وقديماً ادخلوا الشياطين في الطب واسكنوها صدور المغلوبين على أعصابهم ، ضيوفاً غير محتشمة ، فكانوا يعتقدون ان المصابين بداء الفزع او الهستريا «مشيطنون» ويأولون شفاءهم بطرد الشيطان بغريب الوسائل والطرق .

جاء في المزمور التسعين للنبي داود : لا تخش من هول الليل ، ولا من سهم يطير في النهار ، ولا من أمر يدبر تحت جنح الظلام ، ولا من شيطان الظهيرة . وقد فسر الشراح شيطان الظهيرة بالذي يغري الانسان بالفساد ويحمله على الفسق عقيب الافراط من ملذات المائدة . واستعاره الروائي بول بورجه للحب الذي يستولي على الانسان بعد الاربعين او الخمسين لانه حب عنيد أعمى لا يعرف سلطة الواجب ولا حداً للعاطفة .

في هذا الدور من العمر بعد أن يبلغ الانسان ذروة القوة ويشرف على منحدر الهرم ، يصيب الوظائف التناسلية تغيرات لا عهد بها ، ويستولي عليها انحطاط تدريجي كثيراً ما يرافقه يقظة الشهوة وهيجان الحواس .

وقد استهزأ موليير في روايته « مدرسة النساء » بالرجل الذى يعشق في هذا الدور الا ان الشاعر العربي تدارك ذلك فقال :

وماذا تبتغي الشعراء مني ... وقد جاوزت حد الأربعين

على أن التاريخ يقدم لنا شواهد كثيرة عن هذا الحب الذي يصح أن نسميه بالحب الرجعي . فقيصر الرومان بعد أن وصل ما وراء الغاية من المجد وتمتع ما شاء بالحب والانتصار واعجاب الناس قصد الى مصر وهو في السادسة والخمسين من العمر ليخضع العصاة فاذا بكليوباترا الملكة الشابة تسلبه اللب وتخضعه ، ولولا الحاح قواده رجاء وتهديداً لما رضي بالرجوع الى بلاده . وأراد أن تشترك كليوباترا في عيد

تمجيده فأرسل في طلبها وأسكنها أنخم قصوره وأقام لها تمثالاً من الذهب في هيكل آلهة الحب .

وهنري الرابع في عامه السابع والخمسين علق بحب شارلوت موغرامي وهي لم تشهد ستة عشر ربيعاً ، وأضاع فيها رشده حتى أفضى به الأمر الى التخفي في زي سائس الخيل ليتمكن من رؤيتها بعد أن هجرت القصر الملكي هرباً منه .

ومثل من ذكرنا الشاعر روشار ، وشاتوبريان ، ووا كنر ، والفرد دوڤيني ، وفيكتور هيكو ، واوكست كنت ، وبوفون ، وغيرهم كثير .

وأغرب حب من هذا النوع هو الذي اشتهر به برليذر الموسيقي فقد احب فتاة في صباه ، ثم بعد أن بلغ السبعين ونقل فؤاده حيث شاء من الهوى عاد إلى الحبيب الاول واخذ يراسل الفتاة وقد صارت عجوزاً وجدة ، ويعرض عليها قلبه المتيم فنصحته بالكف عن ملاحقتها بعد ان بلغت من العمر عتياً .

ومن قرأ رسائله ورأى ما فيها من بلاغة التعبير وقوة الاقناع وصدق العاطفة تولاه الدهش من هذا القلب البشري وما يمكنه أن يحمل من غرائب الأسرار او يتقلب فيه من عجائب الأطوار .

هذا الحب في الكهولة يمتاز بانه لا ينحصر في اللذة الجسدية بل يتناول شعوراً آخر هو نصف الحب بل أشرف مافيه وانقى وأبقى وهو الصداقة . والى جانب الصداقة عواطف كثيرة مختلفة من خوف وغيره وحياء وفضول وشدة تأثر وغير ذلك يديرها خيال خصب يصور الحياة بألوان زاهية الإشراق ساحرة الآفاق .

ولا حاجة الى جمال فائق ليوحي هذا الحب فلا سلطان هنا للحظ الساحر ، والخد الاسيل والقد الرشيق وحسب المرأة قليل من الجاذب لتأخذ سبيلاً الى القلب . ثم نجد من اختلاف الميول والأذواق مالا يقل عن اختلاف الوجوه ؛ فنهم من يتعشق المرأة لبساطة ما فيها ومنهم رغبةً بالمفاداة ومنهم من يستهويه الجمود والبرودة ويلذ له ان يحب ليبعث الحياة في هذا الجماد الى آخر ما هنالك . ولا يعني هذا تساهلا من جانب الكهول في اختيار من يحبون فقد يكونون كالنهم المترف

لا يرضيه شيء من الطعام مهما تفنن الطاهي في علاجه ، او بالعكس كالذي يأكل كل ما يصيب ويفترسه افتراساً وربما اختنق به ، والغالب ان الذين يختنقون هم القلة وأكثر الكهول يحاولون الحصول على أفضل ما يمكن ، اعتداداً بالنفس ولسان حالهم يقول :

لا يرعك المشيب يا ابنة عبـ ـد الله فالشيب حلةٌ ووقار
إنما تحسن الرياض إذا ما ضحكت في خلالها الأنوار

والمعروف أن السواد الأعظم من هؤلاء ان لم نقل كلهم يضيعون قوة الاشراف على حركاتهم وتضعف الارادة فيهم الى درجة ينسون معها الواجب نحو ازواجهم وبنيهم . ولا يردهم عن غيهم نصح أو تأنيب ولا يشفيهم من دائهم كاهن ولا طبيب . فهم كما قال الشاعر :

ولما أبى الا جماحاً لحبه ولم يسلُ عن ليلى بمال ولا أهل
تسلىّ بأخرى غيرها فإذا التي تسلى بها تغرى بليلى ولا تسلي

أما الحب الروحاني المجرد عن شوق الجسد ولذة المادة فلا أثر له فيهم . واذا تظاهروا به فاستدراجاً للمرأة وتوصلاً الى الحب الآخر . وقد عرفت المرأة هذا فأصبحت لا تؤمن ولا تصدق . ولا غرو فان الذي يستميل الرجل للوهلة الأولى ويحرك فيه عاطفة الهوى هو الجاذب او جمال الصورة قبل ان يتبين ما وراء ذلك من حسن الخلال وعذوبة الأخلاق . لذلك ترى الشعر وهو المعبر عن العواطف سواء أكان الغزل فيه حقيقة ام خيالا لا يذكر الحب الا مقروناً بالوصال .

قال المتنبي :

زودينا من حسن وجهك ما دا م فحسن الوجوه حال تحول
وصلينا نصلك في هذه الدنـ ـيا فإن المقام فيها قليل

وقال الحمداني :

معللتي بالوصل والموت دونه اذا متّ عطشاناً فلا نزل القطر

وقال غيره :

صلي واغنمي اجراً فما وردة الربى تدوم على حال ولا وردة الخد

الى آخر ماهنالك مما لا يقع تحت حصر .

وقلما تجد من الشعراء من اكتفى بالروح كقول الواحد :

اني أحبك، حباً لا لفاحشة والحب ليس به في الله من باس

او قول الآخر :

أحبك ياليلى على غير ريبة وما خير حب لا تعف سرائره

والذى يجعل الكهل اكثر استعداداً من غيره وميلاً للذة الجسدية قوة تصوره وسرعة تهوره وسهولة تأثر جهازه العصبي والخبرة الواسعة التي اكتسبها فيما مضى، فتراه يتفنن في الطرق التي تجلب له هذه اللذة وقد لا يحجم من أجلها عن ارتكاب الموبقات ما لم يكن منه له زاجر .

واذا عدنا الى الماضي وجدنا سعي الانسان وراء ملذات الجسد لم يخل منها زمان ولا مكان . فقد كان التهتك عادة في الطبقات العليا من الشعب، والزواج المحرم حلالا . وقد شرع الحكيم سولون شرعة للبغاء وضعها تحت حماية الآلهة وكانت بلاد الاغريق سدوماً ثانية ، ومدارس الفلاسفة مجتمعاً للفساد مما ضج له المشترعون ورجال القانون فجعلوا الحرق بالنار عقاباً لكل من جار في الحب عن قصد السبيل .

وشيطان الظهيرة يزور الرجال أكثر من النساء لان الانحطاط اسرع الى جسم المرأة فلا يدع لها مجالاً لاستقباله . على انه لا ينكر ان اقتراب زمن اليأس يوقظ حاسة الجنس في المرأة ويسبب لها أعراضاً مرضية وأحلاماً مزعجة كانوا يعتقدون فيما مضى أنها من عمل السحرة او الأبالسة . وقد فسر « فرود » هذه الاعراض حسب طريقته المعروفة فهو يعتقد أن الجاذب الجنسي هو المحور الذي تدور عليه كل حركاتنا وأعمالنا وان الحياة البشرية جمعاء معلقة بهياج تناسلي او رغبة أطلق عليها اسم Cibido وهذه الرغبة التناسلية موجودة في كل أدوار العمر من

الطفل الرضيع الى الشيخ المنحني تحت أثقال السنين . وان اكثر الأعراض العصبية والدماغية ان لم نقل كلها ناتجة عن تأثرات جنسية كامنة في العقل الباطن ، مردودة او مكبوتة أو متنوعة من الظهور . وبناء على هذا الاعتقاد أوجد طريقته المشهورة اي المعالجة بالتحليل النفساني Psychanalyse وهي أن يستلقي المريض على ظهره ويأخذ بسرد حوادث ماضيه فيصغي الطبيب اليه وهو يحاول ان يقع منها على أثر قديم يمكن الرجوع اليه في تعليل الداء الحاضر . وهذه الطريقة قديمة معروفة فهي لا تختلف عن الاعتراف عند النصارى بل ربما كانت دونه في الجدوى لان فكرة الغريزة الجنسية والاعتقاد بها مقدما تؤثر في حكم الطبيب فتضلله وتضلل المريض معاً .

على أنه لاحاجة لسر العقل الباطن لتعليل التبدلات التي تحدث في زمن اليأس فالسبب فيسولوجي أكثر مما هو بسيكولوجي لان الهرم يصيب الغدد النسائية فيقل افرازها الضروري للتغذية العمومية وللوظائف العصبية . وقلة الافراز تحدث اختلالا يفضي إلى هذا الانقلاب الى ان يتعود الجسم ويعتاض عن هذه الغدد بغيرها من الغدد الصماء التي تعطي الجسم ما قصر عنه المبيض وتعيد اليه النظام .

وللحب حول الخمسين فائدته الصحية اذا قرن بالزواج فقد دلت الاحصاءات أن الجرائم في هذا الدور من العمر اقل عند المتزوجين منها عند العازبين والأرامل وكذلك الوفيات .

لا أقصد بذلك الى وجوب الزواج على كل من بلغ هذه السن فالذي ينفق شبابه في الملاهي وينهك عقله وبدنه ثم يختار فتاة في مقتبل العمر لترافقه فيما بقي من طريق الحياة مجرم في نظري وخير له أن يردد مع الشاعر :

سلام على الدنيا ولذة عيشها   سلام غدو أو رواح الى الرمس

واذا كان للحب في الكهولة هذه الفائدة الصحية المحصورة في دائرتها الضيقة فإن اضراره كثيرة لان الافراط في هذا الدور خطر عظيم وعندي أن الأكل بدون جوع او الشرب بلا ظمأ لأخف ضرراً من التهيج الذي لا داعي له . فالجسد

كالمصباح الكهربائي الذي تحمله في جيبك لينير سبيلك في دجى الليل اذا لم تقتصد في استعماله انطفأ قبل حينه ولم يخدمك نوره الى آخر الطريق ·

وبعض الناس أكثر تعرضاً لهذا الخطر من سواهم كالمحامين والأطباء والسياسيين وكل ذي نفوذ مالي أو اجتماعي بما تعودهم عليه سهولة الحصول على مايريدون من التراخي في مدافعة شهواتهم فتراهم أسرع من غيرهم للخروج من دائرة الاعتدال في الحب · وقد قالت الحكماء : خير الأمور الوسط · الوسط في الثروة وفي الشهوة وفي الصحة وفي الذكاء وفي الغذاء وفي المزاج وفي المناخ فمن عرف الوقوف عند هذا الحد فقد اهتدى الى سر إطالة الحياة على الأرض والله أعلم ·

هذا ما عن لي ذكره عن شيطان الظهيرة · فهو في الغالب يحمل الى الجسم فوق عبء الأيام عبء الآلام · وقد يكون من الملائكة الساقطين فيذكر السماء حيناً بعد حين ·

الدكتور

نقولا فياض

أذيعت في راديو الشرق في ١٢ ايلول سنة ١٩٤١



أبو العلاء والزندقة

ما سمعت في الأمم الغابرة ولا رأيت في الأجيال الحاضرة رجلاً من العلماء الافذاذ مُني بمثل ما مني به أبو العلاء المعري فقد قضى من العمر ستاً وثمانين سنة صاحبه فيها من المهد الى اللحد ضروب من البؤس والشقاء والمرض والفاقة . وصاحبه فيها صنوف مختلفة من كيد الكائدين وحسد الحاسدين .

ولشدّ ما عرضوه بوشاياتهم الى موارد الهلكة وحرفوا كلمه عن مواضعه ليجعلوه عرضة للأذى والبطش ، وحاولوا أن يطفئوا بأفواههم نور الله الذي أذكاه فيه ، فأبى الله الا أن يتم نوره على الرغم من أنوفهم .

ثم فارق الحياة ولكن الشقوة لم تفارقه في عصر ولا مصر ولا ذنب له الا ذنب صُحر[1] ولا عيب فيه الا سوء حظه أو حظ هذه الأمة ولقد صدق في قوله

تعد ذنوبي عند قوم كثيرة ولا ذنب لي الا العلى والفواضل

وقوله :

لابد للحسناء من ذام ولا ذام لنفسي غير مي ء بحتها

ترك هذا المسكين للناس دنياهم وأعرض عما فيها من المتع والملاذ وسجن نفسه في كسر بيته وقضى حياته الطويلة في الدراسة والتعليم ، حتى أتى من ضروب العبقرية بما لم تستطعه الأوائل ولم تدرك شأوه فيه الاواخر .

ثم ماذا كان جزاؤه من هذه الامة التي لم تعدم في كل عصر فئة من رجالها تخنق كل فضيلة بيدها وتئد كل عبقرية في مهدها ؟ كان جزاؤه أن قيض الله له فريقاً من العلماء الذين يتخذون من الدين سلاحاً لمحاربة كل نابغ ، ومطاردة

(١) صُحر بنت لقمان العادي خرج هو وابنه لقيم في اغارة فأصابا ابلاً وسبق لقيم فأتى منزله فنحرت اخته صحر جزوراً من غنيمته وصنعت منه طعاماً تتحف به أباها اذا قدم فلما قدم لقمان قدمت له الطعام وكان يحسد ابنه لقيما فلطمها ولم يكن لها ذنب . وقد ضرب بها المثل فقيل لا ذنب له الا ذنب صحر . وهذا المثل يضرب لمن عوقب على الاحسان

كل تابه فأخذوا يكفرونه بالشبهة ، ويرمونه بالالحاد والزندقة . بالظن والتوهم ؛ ويؤولون كلامه على ما يوافق أهواءهم وان كان صريحاً في غير ذلك .

ومن أغرب ما رأيته في هذا الباب : وصمه بالمزدكية . ولعل اول من رماه بها الذهبي فانه قال فيه : هو صاحب التصانيف المشهورة ، والزندقة المأثورة ، له رسالة الغفران قد احتوت على مزدكة واستخفاف .

ذكر ذلك الذهبي ولم يفسر لنا المزدكة ولا بين موضعها في رسالة الغفران ثم جاء الدكتور طه حسين فتمسك بهذه الكلمة واوضحها وبنى عليها أحكاماً جائرة على أبي العلاء فقال في تجديد الذكرى (ص ٣٠٠) من الطبيعي اذا اعرض أبو العلاء عن النسل ان يعرض عن الزواج لانه سبيله ولأن فيه شروراً أخرى ذكرها غير مرة في اللزوميات ... على انه قد نهى عن الزواج نصاً فقال :

فان انت لم تملك وشيك فراقها فعف ولا تنكح عواناً ولا بكراً

وذلك جاءه من سوء ظنه بالنساء واعتقاده أن العفة والاحصان فيهن نادرة ولعل هذا الرأي هو المزدكية التي أشار إليها الذهبي .. ونسب شيئاً منها الى رسالة الغفران لاشتمال هذه الرسالة على ألوان من إباحة القرامطة يرويها رواية الساخط عليها . وفي اللزوميات مايؤيد ميل أبي العلاء في بعض أطواره الى الاشتراكية في النساء .. وسترى أن مذهب ابي العلاء في الاخلاق لا ينافي هذا الرأي .. ثم قال في مبحث الاخلاق (ص ٣٠٣) ابو العلاء يرى رأي ايقور [في اللذة] ثم قال : فليس من الغريب بعد ذلك ان يشير ابو العلاء بالاشتراكية في النساء . الى آخر كلامه .

هذا ما فسر به المزدكية التي الصقها بأبي العلاء ولقد رجعنا الى ابن النديم المتوفى نحو سنة ٣٧٨ فرأيناه يقول في الفهرست (ص ٤٧٩) ان مزدك القديم مجوسي في الأصل من الخرمية المعروفين. بالقطة أمر اصحابه بتناول اللذات والعكوف على بلوغ الشهوات والاكل والشرب والمواساة والاختلاط وترك الاستبداد بعضهم على بعض ولهم مشاركة في الحرم والأهل لا يمتنع الواحد منهم من حرمة الآخر ولا يمنعه ومع

هذه الحال يرون افعال الخير وترك القتل وادخال الآلام على النفوس ولم مذهب في الضيافات ليس لأحد من الأمم اذا أضافوا الإنسان لم يمنعوه من شيء يلتمسه كائنًا ما كان . وعلى هذا المذهب مزدك الأخير الذي ظهر في أيام قباذ بن فيروز وقتله انوشروان وقتل أصحابه وخبره مشهور معروف . ونظرنا في كتاب الملل والنحل لمحمد ابن عبد الكريم الشهرستاني المتوفى سنة ٥٤٨ فاذا هو يقول (ص ٨٦) على هامش الفصل ج ٢ . مزدك الذي ظهر في أيام قباذ والد انوشروان .. وكان مزدك ينهى الناس عن المخالفة والمباغضة والقتال ولما كان أكثر ذلك انما يقع بسبب النساء والاموال أحل النساء وأباح الاموال وجعل الناس شركة فيها كاشتراكهم في الماء والنار والكلأ وحكي انه كان أمر بقتل الانفس ليخلصها من الشر ...

ورأينا ابن حزم يقول في الفصل في الملل والأهواء والنحل (ج ٢ ص ١١٦) وكان مزدك يقول بوجوب تأسي الناس في النساء والأموال .

ورأينا ابن الاثير يقول في الكامل ج ١ ص ١٨٢ في أيام قباذ بن فيروز ظهر مزدك وابتدع ووافق زرادشت واستحل المحارم والمنكرات وسوى بين الناس في الاموال والأملاك والنساء والعبيد والإماء حتى لا يكون لأحد على أحد فضل في شيء البتة . فكان يأخذ امرأة هذا فيسلمها الى الآخر وكذا في الأموال والعبيد والإماء وغيرها من الضياع والعقار وحرم ذبح الحيوان وقال : يكفي في طعام الانسان ما تنبته الارض وما يتولد من الحيوان كالبيض واللبن والسمن والجبن وذكر انه طلب امرأة قباذ ليقضي وطره منها فأجابه الى ذلك فقام ابنها انوشروان وقبل رجلي مزدك وشفع اليه حتى لا يتعرض لامه وله حكمه في سائر ملكه ، فتركها .

هذا ما قاله العلماء في مزدك واذا قايسنا ما عرفناه من احوال ابي العلاء الى ما عرفناه في مزدك تبين لنا ان ابا العلاء يخالفه في تناول اللذات والعكوف على الشهوات وأكل ما يتولد من الحيوان وادخال الآلام على النفوس وقتلها لتخليصها من الشر ، والاشتراك في الاموال الا بقدر معين في الشرع ونحو ذلك ، ولم يوافقه الا في فعل الخير وترك القتل والنهي عن المباغضة . وهذا مما جاءت به الشريعة الاسلامية بل الشرائع السماوية كلها .

وقد ذكرنا أن الذهبي لم يفسر المزدكة وان الدكتور فسرها بالاشتراك في النساء والاباحة ، وهذا تقوّل على أبي العلاء ومن استقصى كلامه في اللزوم وغيره يتضح له منزلة هذ القول من الحقيقة ويتبين له أن ابا العلاء أشد الناس غيرة على المرأة ، وأكثرهم تشدداً عليها وأوفرهم حرصاً على ابعادها عن مواطن الريبة وان افراطه في الغيرة عليها ، والحرص على عفافها حمله على الخروج عن آداب الشريعة الاسلامية والاسراف في الارتياب فيها ، فهو لا يريد أن تتعلم المرأة القراءة والكتابة

علّموهن الغزل والنسج والرد ن وخلوا كتابة وقراءة

فصلاة الفتاة بالحمد والاخ لاص تغني عن يونس وبراءة

وانما نهى عن تعليمها ذلك غيرة عليها لأنها :

تهتك الستر بالجلوس أمام الـ تر ان غنت القيان وراءه

وهو يعتقد أن المرأة في طبيعتها كالسهم القاتل والتعليم كالسم لها لانه يبصرها بما لم تكن تراه ويدلها على مالم تكن تعلم من أنواع الشر والفتن

ولا تحمد حسانك ان توافت بأيد للسطور مقومات

فحمل مغازل النسوان أولى بهن من اليراع مقلمات

سهام ان عرفن كتاب لسن رجعن بما يسوء مسممات

واذا لم يكن بد من تعليمهن فليقتصر على تلاوة القرآن على عجوز تقية فان عيب اللحن اهون من عار الفتنة .

ليأخذن التلاوة عن عجوز من اللائي فغرن[1] مهتات

يسبحن المليك بكل جنح ويركعن الضحى متـأثمات

فما عيب على الفتيات لحن إذا قلن المراد مترجمات

وأما الرجال فلا يسوغ الاقتراب منهم الا اذا كان الرجل هرماً ضعفت منته وخارت قوته ، وأمنت فتنته ، ولو كان أعمى فان الشهوة بصيرة

ولا يدنين من رجل ضرير يلقنهن آياً محكمات

سوى من كان مرتعشاً يداه ولمتـه من المتغفات

(١) كذا في الأصل ولعله ثرن .

ويرى الصلاة في بيتها افضل من المسجد خشية عليها من الفتنة

اذا ما رامت الصلوات خود   فيكنْ البيت افضل مسجديها

ولا يرى الحج فرضاً عليها حذراً من الاشرار عليها وسواء في ذلك الصغيرة والكبيرة فان لكل ساقطة لاقطة

أقيمي لا أعد الحج فرضاً   على عجز النساء ولا العذارى

ففي بطحاء مكة شر قوم   وليسوا بالحماة ولا الغيارى

وربما كانت تقيم الشعائر والغواة ينصبون لها الحبائل

ولكن جاءت الجمرات ترمي   وأبصار الغواة الى يديها

وليس محمد فيما اتته   ولا الله القدير بحمديها

وليس الرجل في اعتقاد ابي العلاء باحسن حالاً من المرأة بل هما فرسا رهان يتباريان في الشر والفتنة فهو يخاف على المرأة من الرجل بقدر ما يخاف على الرجل منها لأن الجبلة واحدة والطبع واحد ؟ فربما اغوته ان لم يغوها وعلى هذه القاعدة لا يأتمن اخا الرجل على حرمه

اذا امنت على مال اخا ثقة   فاحذر اخاك ولا تأمن على الحرم

فالطبع في كل جيل طبع ملأمة   وليس في الناس مجبول على الكرم

ولا يأمن الوليد عليهن مخافة ان يغوينه او يغويهن

إذا بلغ الوليد لديك عشراً   فلا يدخل على الحرم الوليد

فان خالفتني وعصيت نصحي   فأنت وان رزقت حجى بليد

الا ان النساء حبال غي   بهن يضيّع الشرف التليد

وقد اشتد في النهي عن خروجها الى الحمام

أعوذ بالله من ورهاء[1] قائلة   للزوج اني الى الحمام احتاج

لأنها قد تخدعه بذلك

وهمها في امور لو يطاوعها   كسرى عليها لشين الملك والتاج

وامر بضربها اذا خرجت الى العراق او النجم وبمواثبتها اذا ابدت زينة يديها وبفراقها اذا كشفت عن ساقها .

(١) حمقاء .

اذا ابتكرت الى العراف فاعرف   مكأن عصا تعك به قَراها[1]
وساورها[2] اذا ابدت سواراً   وبارِثها[3] متى كشفت بُراها[4]
وحذرها المنجم فهو ذئب   تشوقه الضوائن[5] ان يراها
فان شيء لم تجيء الى قبيح   تحلبها المنافع وامتراها

ونهاها عن مجالسة ابن الزوج والختن

لا تجلسن حرة موفقة   مع ابن زوج لها ولا ختن[6]
فذاك خير لها واسلم للاذ   سان ان الفتى مع الفتن
ودم على غيرة الصبا ابداً   ولا تعد في الشراب ثم تني

كما نهى عن شهودها الأعراس

نصحتك يا ام البنات فحاذري   وساوس ولاج الاساود خناس
ولا تلبسي الحجلين بنتك والبرى   لتشهد عرساً واشغليها بعرناس[7]

وعن محاورة الجارة

فنزه ناظريك عن الغواني   واكرم جارتيك عن الحوار

وعن النظر اليها

اذا قصر الجدار فلا تشرف   لتنظر ما تستر في الجدار

والى الغاديات الى الكنائس

فلا تعرض في طريقك ناظراً   نساء النصارى غاديات الى الكنس

وعد الرجل الذي يجمع في بيته الندامى والمغنين غير حازم اذ قد يترتب على عمله فتنة

لعمرك ما زوج الفتاة بحازم   اذا ما الندامى في محلته غنّوا
أتى بيته بالراح أ والشَّرْب لاهياً   فاما رنوا[8] نحو الظعينة او زنّوا[9]

(١) ظهرها (٢) واثبها او تناول رأسها (٣) فارقها او سالمها على الفراق
(٤) جمع بُرَة : الخلخال (٥) جمع ضائنة : الشاة من الغنم يريد بها المرأة
(٦) جاء الختن لمعان منها : زوج البنت وكل من كان من قبل المرأة كالأب والاخ
(٧) العرناس : مومنع مبائخ قطن المرأة والسبيحة قطعة من القطن تسبغ بعد الندف اي تلف لتنزل (٨) رنا اليه : أدام النظر (٩) زنّ تزنية بمعنى زنى .

وعد المرأة التي لا تقتصر على زوج شرعي شر النساء لانها مضيعة للأولاد

شر النساء مشاعات غدون سدى ... كالارض يحملن اولاداً مشاعينا
والامر لله كم أودى فتى ومضى ... عنا وخلف اولاداً مضاعينا

واعتد النكاح بغير مهر [السفاح] من اضمحلال الدين

قد اصبح الدين مضمحلا ... وغيرت آيه الدهور
فلا زكاة ولا صيام ... ولا صلاة ولا طهور
واعتاض حل النكاح قوم ... بنسوة ما لها مهور

ومن انقلاب الزمان طلب المرأة الزوج وبذل المهر منها

قلب الزمان فرب خود تبتغي ... زوجاً وتبذل غالياً من مهره

وجعل خير النساء من تصون نفسها من العار

وخير النساء الحاميات نفوسها ... من العار قبل الخيل تحمي ذمارها

هذا قلٌّ من كثر من كلام ابي العلاء يمثل لنا غيرته على المرأة وارتيابه فيها وحرصه على عفافها وطهارتها ؛ فأين المزدكية أوالاباحة التي زعمها الذهبي والدكتور؟ بل كيف تتأتى نسبة ذلك اليه وهو على مارأيته من تشدد واسراف في الحفظ على كرامتها ؟

أما القرامطة فقد بين ان غرضهم خدع وتعليل وتوصل الى المملكة وتضليل ولعن بعض رؤسائهم وكفره في ص ١٤٥ من رسالة الغفران ولعن الجنابي في ص ١٤٧ وفضل الجاهلية عليهم في اللزوميات حيث يقول :

ما للمذاهب قد أمست مغيرة ... لها انتساب الى القدّاح او هجر
قالوا البرية فوضى لاحساب لها ... وانما هي مثل النبت والشجر
فالجاهلية خير من إباحتهم ... سجية الحادث الحراب او حجر
فما أفادوا سوى احلال نسوتهم ... معرضات لأهل الباطل الفجر
وان احسن من تعظيمهم رجلا ... صفرا من الحكم التعظيم للحجر

وجعل تحكمهم في الناس من العكس الذي مني به البشر

عكس الأنام بحكمة من ربه فتحكم الهجري فيه ومتبر

وبين غرضهم من مذهبهم بقوله من أبيات

انما هذه المذاهب اسبا ب لجذب الدنيا الى الرؤساء

غرض القوم متعة لا يرقو ن لدمع الشماء والخنساء

كالذي قام بجمع الزنج بالبصـ رة والقرمطي بالاحساء

فانفرد مااستطعت فالقائل الصا دق يضحي ثقلا على الجلساء

ولقد فتشت في رسالة الغفران فلم ار فيها ألواناً من اباحة القرامطة وانما رأيت فيها لوناً واحداً وهو انه كلما ذكر واحداً منهم لعنه ومن الغريب ان الدكتور يذكر ان فيها ألواناً من اباحتهم يرويها المعري رواية الساخط عليها ثم يجعلها مما يستند اليه في نسبة الاباحة الى أبي العلاء .

وتتبعت كثيراً من أقوال المعري وآرائه ومذاهبه في الأخلاق فلم أر في شيء منها مايدل على ميله الى الاشتراكية في النساء او مايشير اليه وانما كل ما وجدته في اللزوم من جنس ما ذكرته ولولا خشية الإطالة لأوردت كل كلامه في ذلك

وليس من المعقول أن يتشدد أبو العلاء في حجاب المرأة ويسرف في الارتياب منها ويحظر عليها ما اباحه الاسلام لها من شهود الحج والصلاة والتعلم ونحوها ويبالغ في حجبها عن مخالطة الولد والختن والذهاب الى الحمام والعراف والخروج الى سطح الدار وما شاكل ذلك ويفرط في الغيرة الى حد لم يبلغه غيره . كل ذلك غيرة عليها وحرصاً على كرامتها وضناً بعفافها ثم يقال بعد ذلك انه يميل الى الاشتراكية فيها او يشير اليها ان هذا لشيء عجاب .

فهل للاستاذ الدكتور ان يرشدنا الى اقواله في رسالة الغفران او اياته في لزوم مالايلزم التي تثبت ميل المعري الى ذلك وتؤيد مازعمه فيه فنكون له من الشاكرين

على اننا لا نعجب من تسرعه في الحكم واسرافه فيه على ابي العلاء واستنباطه من كلامه مالا يريده ولا تدل عليه فحواه فان له كثيرا من هذا النوع في ذكرى ابي العلاء وتجديده .

من ذلك انه في ص ٣٠٠ تجديد . اورد للمعري أبياتاً يصف فيها النساء منها قوله

ودفن والحوادث فاجعات لاحداهن احدى المكرمات
وقد يفقدن أزواجاً كراماً فيا للنسوة المتأيمات

ثم قال بعد ذلك . فانظر كيف بالغ في ذلك حتى استحسن من وأد البنات ماحرم الله ونهى عنه الدين .. الى آخر كلامه

ولقد فتشت في هذين البيتين وفي الأبيات التي قبلها فلم أر ذكراً للوأد وانما وجدت « ودفن » . والدفن غير الوأد تقول دفنت الشيء اذا اخفيته تحت اطباق التراب كما في المصباح ودفن الميت واراه واما الوأد فهو دفن الانسان حياً تقول وأد ابنته اذا دفنها حية هذا هو المشهور المعروف في عرف اللغة والشرع .

وقول ابي العلاء ودفن .. لا حداهن أحدى المكرمات مقتبس عن حديث مروي عن النبي [ص] دفن البنات من المكرمات اي من الخصال التي يكرم الله بها آباءهن لأن البنت ضعيفة كثيرة المؤونة وقد تجر العار وتجلب العدو الى الدار وليس مراد النبي [ص] بقوله هذا الدلالة على كراهة البنات بل اخرج ذلك مخرج التعزية للنفس والحديث عده السيوطي صحيحاً وتكلم فيه غيره وليس هذا موضع تحقيقه وانما غرضنا ان نبين ان المعري لم يستحسن ما حرم الله ولا أتى بما يخالف كلام رسول الله فلا نعلم كيف استباح الاستاذ الدكتور لنفسه ان يحمل كلام المعري على مالايريده ولا يدل عليه صريحه ثم يرميه بالكفر واستباحة ماحرم الله تعالى وقد بينا كثيراً من مثل هذا في كتابنا المسمى بالتعريف بأبي العلاء . وسننشر طائفة منه كلما سنحت لنا فرصة ان شاء الله تعالى .

سليم الجندي



افتتاح موسم المحاضرات

في المجمع العلمي العربي

لعام ١٩٤١ — ١٩٤٢

اعتاد المجمع العلمي العربي أن يتخذ أصيل يوم من أيام كل اسبوع محاضرة علنية يدعو اليها أهل الفضل والادب ويبتدئ موسم هذه المحاضرات في شهر تشرين الثاني وينتهي في شهر حزيران من كل عام . وقد كان موعد افتتاح محاضرات هذه السنة يوم الجمعة في ٧ تشرين الثاني . وتفضل فخامة رئيس الجمهورية الشيخ تاج الدين الحسني بأن يرعى بعنايته السامية هذه الحركة العلمية . فترأس هذه الحفلة بشخصه الكريم يحف به دولة رئيس الوزراء المعظم السيد حسن بك الحكيم . ومعالي وزير المعارف السيد فيضي بك الأتاسي . ومعالي وزير العدلية السيد زكي بك الخطيب .

واستقبل رئيس المجمع العلمي فخامة رئيس الجمهورية وهيئة الحكومة بالكلمة الآتية :

يا صاحب الفخامة

يسر المجمع العلمي العربي أن يستقبل دورة محاضراته تحت رعاية فخامتكم وقد نالت سورية استقلالها المنشود ، وكله آمال ان يكون العهد الجديد خيراً كله للبلاد .

واذا احتفى المجمع العلمي بفخامتكم فانما يحتفي برجل كان يسارع الى حضور محاضراته منذ أول تأسيسه ويشارك أعضاءه في رغائبهم ويعطف عليهم وعلى عملهم فأنتم اذاً من أعرف الرجال بالمجمع وبما يصلحه .

ولقد شهدتكم ، شهد الله ، وانا اعمل معكم في وزارتكم الاولى أربع سنين كيف كان وجهكم يطفح سروراً كلما قام في الدولة مصنع جديد ، وما أنس

لا أنسى ما قمتم به مرات لما قامت مدرسة تجهيز دمشق ودار حكومة حلب وجسر الفرات الذي ربط الشام بالجزيرة ، وما كان يبدو من عنايتكم عند البداءة بانشاء تلك المدارس ودور الحكومة والطرق المعبدة وسائر المرافق .

فيا لكم اليوم ، وبيدكم أقدار هذه الديار ، ان تقلدوا تلك الاعمال الجيدة قلادة جديدة يخلدها لكم التاريخ في صفحاته الأزلية ، واعني بذلك انقاذ مشروع قديم للمجمع كان يجهر بفائدته بل بضرورته منذ أسس عام ١٩١٩ وأقل ما يعظم به النفع منه دفع خطر الحريق عن مجموعاته وكتبه وتهيئة أماكن صالحة صحية للدارسين والباحثين في غرفه وأبهائه ، وذلك باظهار المدرستين العادلية والظاهرية بمظهر يليق بمدينة كمدينة دمشق . والظاهرية والعادلية بقية زهاء ثلثمائة مدرسة دارسة كانت مفخرة من مفاخرنا .

اذا صدر أمركم العالي واستملكت العقارات المحيطة بمدخل المجمع منذ باب البريد يجري توسيع هذا الزقاق الضيق وترفعت هذه البيوت الكئيبة التي أفسدت هواء هاتين المدرستين وشعثت رواءهما وبهاءهما ثم رمم بناؤهما حسب التصميم القديم يكون ذلك مقدمة الى تفريغ ما حوالي الجامع الأموي وانقاذه من خطر الحريق فقد حرق سبع مرات كانت النار تسري اليه من الأسواق المحيطة به على الاكثر اذا فعلتم يبدو أعظم جامع في الاسلام فتنة للناظرين من داخله وخارجه ، وتأمن الظاهرية من خطر النار كل ساعة لأنها في جوار قمين وفرن ، ان نجت من نار الأول فقد لا تنجو من نار الثاني . ويسلم قراء دار الكتب ومستخدموها من عنت الدخان الذي يضيق الانفاس كل يوم من هذا القمين .

بهذا العمل تسجلون لكم مأثرة جليلة تحرزون بها رضا العلامة الاستاذ والدكم فانه رحمه الله كان كثيراً ما يخشى على مجموعة الحديث التي ضمتها جدران الظاهرية لعلمه بأنها اعظم مجموعة في العالم ويرجو ان تهيء الأيام من يحييها بالطبع خدمة للاسلام والمسلمين .

هذه أمنية المجمع العظمى عرضتها على نظركم العالي وبتحقيقها تخدمون للعلم

والفن الاسلامي منة كبرى وفقكم الله لما فيه سعادة هذه الجمهورية بمنه ويمنه

وبدأ فخامة الرئيس يجيب على هذا الترحاب والرجاء فقال مرتجلاً :

يا معالي الرئيس . !

ألسنا هنا في عرش أمية ، الذي طأطأ العالم رأسه بين يديه ؟

ألسنا في الينبوع المقدس ، الذي تدفقت منه أنهار الحضارة والأخلاق الى انحاء الدنيا الغارقة في الظلمات ، فغمرت عقول الناس بالنور ، وقلوبهم بأنبل الشعور ؟

ألسنا في المجمع الخالد ، الذي لم يطلق عليه اسم «البانثيون» ، ولكنه ضم هنا وهناك بقايا ملوك وزعماء ووزراء وعلماء ، كانوا آيات العبقرية وعناوين الزمان ! .

فاسمح لي يا معالي الرئيس وانا في موقفي هذا وتطوف بي ذكريات تاريخنا المجيد ، ان اقف خاشعاً وان ادعوكم جميعاً الى الوقوف خاشعين ، وان اطلب منكم خلال هذه الدقيقة الملهمة ان تفكروا في شيء واحد : في ماضينا العظيم ، وفي رجالنا الخالدين الذين عظمونا في عيون العالم .

لقد فكرتم بالرجال الذين اعزوا البلاد بعد ذل ، وعلموها بعد جهل ، واستطعتم ان تتصوروا في هذه اللحظة ما كان لنا من مجد وعظمة ، فاذا دعاني معالي الرئيس الى استبقاء هاتين المدرستين ، وتجريدهما من هذا الاطار الفقير الذي غمر رواءهما وبهاءهما ، لنحتفظ بقطعة من تراثنا الضخم ونجد فيها رائحته فانا اقول له : سنعمل لهذا بالقدر المستطاع ، فكل ما يعني مجد البلاد وتاريخها يعنينا !

ولكنني ادعو اليوم الى عمل اكبر واعم وانفع ، ادعو ابناء البلاد الى ان ينذروا مواهبهم وقواهم متحدين متكاتفين في سبيل تأسيس دولة جديدة ، ننشئ فيها كما كان آباؤنا ينشئون ، ونكتب في صفحات التاريخ مثلما كانوا يكتبون ، فنحن لا نريد ان نعيش من الذكرى ، ولكننا نريد ان تعيش الذكرى بنا ، فلا يقال كان لهؤلاء آباء ! وانما يقال : هؤلاء هم الناس وكانت لهم آباء !

أيها السادة :

لقد شاء الله سبحانه وتعالى ان تنعم أمتنا في مرحلة من ادق المراحل التي يجتازها العالم بنعمة السيادة والاستقلال ، وكل واحد منا مسؤول عن هذه النعمة مدعو الى حمايتها ، وويل لمن يريد ان يضيعها .

أما الوسيلة الى توطيد دعائم السيادة والاحتفاظ بمظاهر الاستقلال فهي الاخلاق الحميدة والثقافة الفاضلة ، وانه ليسرني كثيراً ان اعلن الآن افتتاح موسم المحاضرات في المجمع العلمي العربي متمنياً له التوفيق في عمله الثقافي والاخلاقي .

واذا كانت العادة ان تختم الخطب في الحفلات السياسية بكلمة عاشت سورية مستقلة ذات سيادة !

فأنا أضيف الى هذا الهتاف — وقد رأيتكم تتنادون الى حلقات العلم ومجامع الفضيلة — قائلاً :

عاشت سورية المثقفة المهذبة ! وعاش رجالها العلماء ! . اهـ

وقد ظهرت خلال خطاب الرئيس الأول البهجة على وجوه الحاضرين من وعده الكريم بعمل مافي وسعه لتحقيق هذه الآمال ، وما فرغ من خطابه حتى تقدم معالي رئيس المجمع العلمي اليه شاكراً همته وحسن وعده ثم عاد الى منصة الخطابة فألقى المحاضرة الآتية :

ارشاد العامة

لو كان من وكل اليهم هداية العامة يؤمنون حقاً بما يعظون لأثرت اقوالهم التأثير المطلوب ولقلّ معظم ما نراه من شرور . الدين يقوّم المعوج ويطهر النفوس ، ولكن اذا آض الى ايدي من لا يحسنون استعماله يصبح عبارة عن رسوم وشعائر لا تدخل الصميم .

نرى المصلين في الجوامع الى اليوم ليسوا بقليل عددهم ، ولكن هل عملوا كلهم

يا ترى بما يتلون وما يتلى عليهم ؟ هل هدتهم صلاتهم الى أن الله تعالى حرم عليهم الكذب والسرقة وأمرهم بالصدق والأمانة ؟ ابحثوا في شؤون هؤلاء المستهترين ، هل ترون اكثرهم عمل بقليل مما امره به الدين ام هو مسلم جغرافي ، ومسلم تشهد باسلامه تذكرة النفوس فقط .

ارجو الا اتهم بالمبالغة او باستعمال الاسلوب الخطابي ولا اطلب ممن يتهمني بذلك الا أن ادعوه ليحتك بالسوقة والمرتزقة والتجار والفلاحين فيشهد العجب من أخلاق بعضهم . يرى السارق يسرق بدون نكير والكذاب يكذب ولا يخجل ، وحبائل سلسلة من التزوير والتغرير ، ولو أردنا تصفية أبناء كل حرفة من لوثاتهم ما ثبت على محك النقد الا افراد قلائل في كل قرية وفي كل حي ومنزلة ..

تدبروا أخلاق اكثر اهل القرى وأخلاق اهل المدن تروا بعض الفلاحين والمدنيين سواء في الفساد وضعف الأخلاق ، لا تكاد تجد الأمين المؤتمن الا نادراً ، وكان الأجداد على عكس ذلك تغلب الفضائل النفسية على السواد الأعظم منهم في الجملة . واكثر من تعتقدون اليوم فيهم الأمانة يسرقونكم متى آنسوا منكم ضعفاً او غفلة ، اما الكذب فلم يسلم منه الا من عصم ربك ، واما الغش فما أظن المانع لبعضهم من الاسترسال فيه الا علمهم بأن اشتهارهم به يؤدي الى قطع ارزاقهم .

أمثل لكم بمثال واحد أثبت به ما أقول ، وهو تحت نظرنا كل ساعة وكل يوم ، انظروا نظر النقاد في البياعات والحاجات هل تجدون أشياء كثيرة سلمت من الغش يغشون في الكيل والوزن وفي القياس والذرع ، واكثر مواد الغذاء مغشوشة فالغش يدخل الخبز واللحم والسمن والزيت والزبد والقشدة والجبن والدبس والعسل واللبن الرائب واللبن الحليب وماء الزهر وماء الورد . واذا أرادت الحكومة ان تسيطر على العامة والمرتزقة قد يشترك من يتنصبه لذلك مع الغشاشين فيزيد لص كبير الى اولئك اللصوص الصغار ، وهذا المسيطر قد يكون ممن يحمل شهادة أطول من قامته ولكن نفسيته دنيئة . معظم ما يعمل في السوق وفي خلوة مغشوش :

الأدوية مغشوشة في الصيدليات والقهوة والمرطبات مغشوشة والحلويات مغشوشة والالوان المطبوخة مغشوشة . وارباب المدارك من المستهلكين يعلمون هذا ولا يستنكرونه لأنهم هم أيضاً مشاغيل بغشهم ومنهم لصوص في ثياب تجار أو زراع أو صناع .

كان اكثر العامة منذ نحو خمسين سنة يبتعدون عن الغش في الوزن والكيل وعن غش المائعات والسائلات وما كان الفلاح يجوز لنفسه غش اللبن غالباً لأنه كان يعتقد ان الله تعالى يجازيه على فعلته بهلاك بقرته او عنزته او نعجته ، وما كان يحب أن يخسر الكيل والميزان لأن الله له بالمرصاد يعاقبه في الدنيا قبل الآخرة فيفجعه بأولاده ، ويرزؤه بصحته او دابته ، ويسلط الاقوياء عليه ينهبونه ويسرقون ما أدخر من مال ومؤنة ، او يسلط عليه آفة تأتي على الأخضر واليابس مما جمع . كان هذا الاعتقاد نافعاً جداً في دفع الأذى يساعد المحتسب على القيام بانفاذ قانونه على الناس في يسر وسهولة ، والمحتسب يشابه رئيس البلدية ومديري الشرطة والصحة اليوم . اما لعهدنا هذا فقد تفلسف بعض العامة بل ألحدوا وتزندقوا فظلوا مسلمين يصلون ويصومون ولكنهم يسرقون ويفحشون في سرقاتهم . وهذا مما ينذر بسوء المصير .

انا كلما زدت معرفة بهذه الطبقات يسوء ظني بالمستقبل واعزي نفسي بأن الأخلاق قد تتردى في عهد الحروب والغوائل ولا بد أن تحسن متى انجلت الغمرة وزالت الشدة ، ولطالما تمنيت لو قاسمني السارق برضاي ما يريد ان يسرقه مني في سر ، وكثيراً ما قلت لهؤلاء الفلاحين وغيرهم اذا طمعت أنفسكم في أخذ شيء من اشيائي قولوا لي وانا أنزل لكم عن بعضه برضائي فتأخذونه حلالاً طيباً ولا تطمعوا في أخذ شيء بدون علمي فأنا لا أريد ان استرقع واستحمق . ولطالما قلت لبعض أرباب الصناعات خذوا اجرة حسنة على ان تعاهدوني الا تسرقوا شيئاً في غيابي ، ولكن نفوس أهل هذه الطبقة زين لها الربح من أي طريق أتى . ولكم كنت اعطي العامل واكرمه وكلما زدت في إكرامه استفهمني وغلا في نهبي .

لا ألوم من لا تدرك عقولهم الا المنفعة المعجلة وعقولهم في عيونهم كما يقال ، وقد تجردوا من الفضائل الكسبية والفطرية ، بقدر ما ألوم من يحيون في طبقة أرقى من طبقتهم وهم مناط الرجاء في الهيمنة عليهم .

رأيت هؤلاء الغشاشين باعة وتجاراً يجمعون اموالاً ويبنون حوانيت وبيوتاً ويقتنون مزارع وحدائق ثم يبدد كل ما جمعوه بأدنى عارض فكنت احمد الله على ذهاب أموال جمعت بالسحت وبالغش وأجد ذلك عقوبة عادلة لهم . رأيت ثروات من احتكروا أصنافاً من القوت في الحرب الماضية تمزق شر ممزق ، وكذلك سيكون مصير أموال من تجردت نفوسهم من كل شفقة واحتكروا في هذه الحرب تلك الأصناف ولكن الناس لا يعتبرون .

والآن ماذا يجب ان يعمل لإصلاح هذا الفساد المستشرى او تخفيف ويلاته على الأقل ، هنالك ثلاثة عوامل تفيد في تقليم اظافر الفاسدين وتعيد الى المجتمع صفوه الذي كان له في الدهر السالف . العامل الأول تطبيق القانون على من يعبثون بحقوق الخلق بدون مسامحة ولا هوادة فان قوانيننا الشرعية والوضعية كفيلة بالسعادة ، لو جرى تطبيقها على ما يجب ما احتجنا بعدها الى وازع آخر . الا أن المسألة تتوقف على انفاذ تلك القوانين ، والقوانين تغني غناءها بالتطبيق لا بجمال مادتها وانسجام عبارتها . وفي بعض الآثار : يزع السلطان اكثر مما يزع القرآن (أي ان من يكف عن ارتكاب العظائم مخافة السلطان اكثر ممن تكفه مخافة القرآن والله تعالى) ولا بد من تضييق خناق المسيطرين على القوانين في ارشاد العامة الى الجادة وأن يطرد المتساهل من عمله ولو كان بعد من الرؤساء فالسمكة تنتن من رأسها كما يقول الأتراك في امثالهم ، والتفتيش يجب ان يتناول الكبار قبل الصغار ، فبأيديهم تسير مصالح الناس سيراً حسناً او تلتوى وتزيغ .

والعامل الثاني الخطباء والوعاظ فهؤلاء من واجبهم ابداً ان يبينوا للفاسدين مغبة عملهم على انفسهم وعلى الجماعة ، يقولون ما يقولون لهم عن عقيدة لا كلاماً لا يتعدى أطراف الشفاه ، يختلطون بالناس وينوعون الأساليب لمن يهم المجتمع ارجاعهم

الى الطريق السوي ، ويخاطبونهم باللغة التي يفهمونها ، ويدلونهم من طريق العقل والنقل الى كل ما فيه صلاح نفوسهم والبعد بها عن الكذب والخديعة ·

والعامل الثالث وهو الاهم قيام الامة على اختلاف طبقاتها بهداية الضالين وتذكيرهم بحقيقة دينهم ومصالح دنياهم ومقاطعتهم اذا مرقوا وكذبوا وان يبينوا لهم السبب الذي من اجله قاطعوهم ، وعلى الصالحين ان يعتقدوا انهم بعملهم هذا يقومون بواجب مقدس ، واذا هم رحموا حيث لا تحل الرحمة تضيع حقوقهم وحقوق غيرهم ، وعليهم ان يعتقدوا ان واجب كل انسان ان يعتقد اعتقاداً جازماً انه هو القانون وهو الحكومة ، وانه متى تهاون فيما يرى ويسمع من منكر ولم يتقدم لاصلاحه يعد خائناً لأمته وخائناً لنفسه ، فان الفرد في معظم الأمم الراقية في الغرب يعاون الحكومة في مهمتها ويعتقد انه اذا لم يهيمن بنفسه على من يخرق قوانين بلاده يعد شريك الجاني والمجرم ·

وهذا العامل الثالث من أشد العوامل الناجعة في هداية الزائغين من العامة ، خصوصاً اذا أوهم الخواص العوام انهم ليسوا أرقى منهم كثيراً ، وان بينها درجة اذا صعدوها مائلوهم في المجتمع وكانوا موضع الرعاية والحرمة · ولا يؤلم العامة اكثر من احتقارهم · ومن هنا جاء حسد الفقراء للأغنياء ، واعراض الجهلاء عن العلماء ، وغيرة الضعفاء من الأقوياء ·

اذا اجتمعت هذه العوامل الثلاثة وعملت باخلاص وجد ينصلح الجزء الاعظم من الأمة وباصلاحه ندخل في طور جديد ونحمد غب القوانين المرعية ، واذا بقيت كما هي اليوم عادت كعلم جابر اقرأ تفرح جرب تحزن · ومن كان صلاحه بيده وهو يهمله لا يبالي فأنذره بمصير من يعلمون ولا يعملون · اه

ولما انتهى من المحاضرة خرج واعضاء المجمع العلمي العربي مودعين فخامته ودولة رئيس الوزراء وصاحبي المعالي وزير المعارف والعدلية متمنين ان تحقق همة فخامة الرئيس وسعي هيئة الحكومة ذلك الوعد الكريم وفقهم الله ·

شرح مختصر القدوري

المسمى خلاصة الدلائل فى تنقيح المسائل

اقتنيت منذ سنوات كتاباً مخطوطاً في الفقه مخروم الأول ولعل النقص فيه لا يتجاوز الكراسة الأولى التي تحتوي على كتاب الطهارة وباب التيمم وقسم من باب المسح على الخفين الذي تبتدئ نسختنا هذه بالقسم الباقي منه ثم تليه الأبواب الأخرى :

ويستشهد الشارح بأقوال الإمامين أبي حنيفة والشافعي الا انه يقول أولا قال الشافعي ثم يردفه أحياناً بقول أبي حنيفة او أئمة الحنفية الآخرين .

وابحاث الكتاب مختصرة بقدر الامكان بيد ان الايجاز فيها لا يخل بالمعنى ولا يؤثر في الموضوع .

وليس في آخر الكتاب ما ينم على اسمه او اسم مؤلفه غير اني وجدت في نسخة مخطوطة في خزانة كتبي من مختصر القدوري تعليقات بحروف دقيقة منقولة عن « خلاصته » وهذه التعليقات فيها بعض مافي النسخة التي نبحثها الآن فترجح لي ان هناك شرحاً بذلك الاسم وبالرجوع الى كشف الظنون عن الكتب والفنون لملا كاتب جلبي ألفيته يقول : (١)

وشرحه (اي مختصر القدوري) حسام الدين علي بن احمد مكي الرازي وسماه « خلاصة الدلائل في تنقيح المسائل » وتوفي سنة ٥٩٨ ثمان وتسعين وخمسمائة وهو شرح مفيد مختصر نافع وعليه ثلاث تعليقات لابن صبيح أحمد بن عثمان التركماني الأولى في حل مشكلاته والثانية فيما اهمله من مسائل الهداية والثالثة في احاديثه والكلام عليها وتوفي سنة ٧٤٤ وسماه الطرق والوسائل الى معرفة احاديث خلاصة الدلائل . وقد جاء في آخر هذا الشرح ما يلي :

« فهذا آخر ما انتهينا اليه وقد وفينا بما ضمنا والله المستعان واليه الرغبة في

---

(١) كشف الظنون ج ٢ ص ٢٠٣

العفو والغفران والتجاوز والامتنان انه الكريم المنان والحمد لله رب العالمين »

ثم جاء الناسخ وعقب على ذلك بقوله :

وكان الفراغ من نسخ هذا الكتاب المبارك يوم الاربعاء ثامن عشر شهر صفر من شهور سنة ست وستين وسبعمائة ٠٠ نسخه بيده لنفسه العبد الفقير الى الله تعالى الكثير العصيان الراجي من ربه العفو والغفران علي بن طاجي (كذا) بن عبد الله الحنفي مذهباً المسلمي ملبساً [1] غفر الله له ولوالده ولمن دعا له بخاتمة خير وجميع المسلمين ٠ آمين يا رب العالمين) ٠

وعلى صفحات عديدة من هذا الكتاب شارات سماع وتطبيق مثل بلغ ٠٠ وبلغ وصح ٠ وبلغ في الأصل وبلغ وصح من الأصل ٠ ولكن الكتاب لم يذيل كأمثاله بالسماع التطبيقي المعتاد توقيعه من قبل الشيخ المستمع حيث يذكر اسم الكتاب ومؤلفه واسم مسمع الكتاب أي قارئه على المقروء عليه الذي يجيزه بعد ذلك باقرائه وبرواياته ومنقولاته ويذكر في الغالب اسماء الحضور من العلماء ولذلك فقد اختفى علينا اسم المسمع والمستمع وتاريخ السماع ٠

وفي الصفحات الأخيرة وصف لحادثة اغتصاب واضراب وقعت بحماة سننشرها على حدة ويظهر من عبارة منسوبة الى عبد الباسط بن خليل بن شاهين من علماء القرن التاسع [2] انه كان يملك هذا الكتاب فان الورقة المحتوية على تلك العبارة هي آخر ورقة من الكتاب وقد كتبت بحبر أحمر وهذا نص العبارة المذكورة :

(١) اغلب الظن ان المسلمي هي طريقة صوفية كان ينتسب اليها الناسخ حيث يقول المسلمي ملبساً من لبس الخرقة الصوفية التي يلبسها المرشد للمريد ٠

(٢) ترجم شمس الدين محمد بن عبد الرحمن السخاوي المتوفى سنة ٩٠٢ هـ ١٤٩٦ م لعبد الباسط المذكور فقال ما ملخصه : عبد الباسط بن خليل بن شاهين الشيخي الأصل الملطي [لعلها الملطي الأصل فجاءت مقلوبة بالتقديم والتأخير] ثم القاهري الحنفي نزيل الشيخونية ولد في رجب سنة ٨٤٤ بملطية ونشأ بها وبحلب ودمشق وقرأ على علمائها وعلى جماعة من فضلاء الروم كالعلاء الرومي قاضي العسكر في دمشق والبرهان البغدادي في طرابلس وقدم القاهرة ولازم العلماء فيها فأجازوه ودخل المغرب ودرس فيها درس الطب بل اخذه بخصوصه مع جماعة وبرع في كثير من الفنون وألف ونظم ونثر وأقبل على التاريخ وتردد الي له ولغيره من الدروس » الضوء اللامع لأهل القرن التاسع :

« يقول الفقير الى رحمة القدير عبد الباسط بن الوزير عفا الله عنه هذا آخر ما قصدت بشرح الكتاب وقد وفيت بما ضمنت والحمد لله الذي هدانا لهذا وما كنا لنهتدي لولا ان هدانا الله .

« وكان ابتداء جمعي لهذا الشرح الوافي في أوائل ذي القعدة الحرام عام اربع وستين وثمانمائة بدمشق المحروسة فلما وصلت الى باب الجنايات عرض لي سفر الى القاهرة المحروسة فابتدأت بتعريف الجنايات الى أن كمل بها في يوم الخميس ثالث شهر الله المحرم الحرام من مفتتح شهور سنة ست وستين وثمانمائة والله سبحانه أسأل أن يتقبله مني بمنه وكرمه وأن ينفع به جميع المسلمين

« وكتبه بيده الفانية صاحبه الفقير الى الله تعالى ابو المكارم عبد الباسط بن خليل بن شاهين بن عبد الله الشهير بابن الوزير الحنفي مذهبًا والملطي موطنًا والدمشقي وطنًا والقاهري سكنًا بمسجد العامود بالسبع قاعات . »

وقد شرح كثير من العلماء مختصر القدوري هذا وهو من تأليف أبي الحسن أحمد بن محمد القدوري البغدادي المتوفى سنة ٤٢٨ وهو المختصر الذي يُطلق عليه لفظ الكتاب في المذهب الحنفي بيد أنه لم يطبع من شروحه غير كتاب « الجوهرة النيرة » للامام أبي بكر بن علي المعروف بالحدادي العبادي المتوفى سنة ٨٠٠ هـ وكتاب « اللباب في شرح الكتاب » للعلامة عبد الغني الغنيمي الميداني الدمشقي الذي أتمّ تأليفه سنة ١٢٦٨ هـ وقد طبع الثاني على هامش الأول في الاستانة سنة ١٢٧٥ وطبع في مصر سنة ١٣٢٢ ثم أُعيد طبعه بالاستانة سنة ١٣٢٣

وقد ساق صاحب كشف الظنون « جزء ٢ صفحة ٤٠٣ — ٤٠٥ من طبعة الاستانة » اسماء عشرات من الشراح . وللتعريف بالكتاب وأسلوب المؤلف ننقل منه الى القارئ الكريم باب الأذان :

« الأذان سنة للصلوات الخمس والجمعة دون ما سواها أي دون غيرها من الصلوات فانه لا أذان لها لأن التوارث بهذا جرى . والأذان هو المشهور المتعارف [1]

(١) في نسخة مخطوطة عندي من المختصر « وصفة الاذان معروفة ».

فيما بين الناس في سائر الأعصار والأمصار ولا ترجع فيه (١) لأن مدار الأذان على عبد الله بن زيد بن عبد ربه (٢) ولم ينقل عنه الترجع (٣) وما روى الشافعي في الترجيع أن رسول الله صلى الله عليه وسلم قال لأبي محذورة (٤) لما لقنه الأذان ارجع ومد بها صوتك محمول على التعليم والتلقين فظن ابو محذورة أنه من نفس الأذان .

ويزيد في أذان الفجر بعد الفلاح الصلاة خير من النوم مرتين لقوله عليه السلام لأبي محذورة اذا أذنت للصبح فقل : « الصلاة خير من النوم الصلاة خير من النوم » ولأنه وقت نوم وغفلة فيختص بزيادة اعلام .

والاقامة مثل الاذان إلا انه يزيد فيها بعد الفلاح قد قامت الصلاة مرتين « لما روي في حديث الأذان عن عبد الله بن زيد أنه قال ثم صبر هنيهة ثم قال مثل ذلك إلا انه زاد فيه قد قامت الصلاة مرتين (٥) » وقد دفع هذا قول مالك انه يقول قد قامت الصلاة مرة واحدة وهو حجة على الشافعي في أن الاقامة فرادى ولا حجة له فيما روي انه عليه السلام أمر بلالاً أن يشفع الأذان ويوتر الاقامة لأن المشهور أمر بلال ولا ذكر للنبي صلى الله عليه وسلم ولئن صح فمعناه شفع الأذان بالصوت فيؤذن بصوتين ويقيم بصوت ويترسل في الأذان ويحدر الاقامة (٦) لقوله عليه السلام لبلال اذا أذنت فترسل واذا أقمت فاحدر ويستقبل بهما القبلة لأنه

(١) في مخطوطة المختصر وفي المطبوع ولا ترجيع فيه

(٢) في كتاب الاصابة في تمييز الصحابة لابن حجر العسقلاني ج ٤ ص ٧٢ عبد الله بن زيد بن ثعلبة بن زيد بن الحرث بن الخزرج الانصاري . كذا نسبه ابو عمر فزاد في نسبه ثعلبة والمعروف اسقاطه

(٣) وفي مخطوطة المختصر والمطبوع الترجيع

(٤) في الاصابة ج ٧ ص ١٧٢ ابو محذورة المؤذن اسمه أوس ويقال سمرة بن معير ويقال سلمان ويقال سلمة ويقال معير بن محيريز والاثبت انه أوس وقد علمه النبي صلى الله عليه وسلم الأذان وقصته بذلك في صحيح مسلم وغيره

(٥) العبارة التي بين عضادتين في الهامش

(٦) في مخطوطة المختصر وفي المطبوع ويحدر في الاقامة

دعاء وثناء على الله تعالى وكان الاستقبال بهما أولى . فاذا بلغ الى الصلاة والفلاح حول وجهه يميناً وشمالاً لأنه دعاء الى الصلاة واعلام وتحويل الوجه أبلغ في ذلك

ويؤذن للفائتة ويقيم لأن القضاء يحكي الفائت وعن الشافعي انه يقيم لا غير لأن النبي صلى الله عليه وسلم أمر بلالاً فأذن (بالاقامة ليلة التعريس الا ان القصة واحدة وقد روى أنه أمر[1]) فصلينا ركعتين ثم أقام فكان الزيادة أولى

فان فاتته صلوات أذن للأولى وأقام وكان مخيراً في الثانية ان شاء أذن وأقام وان شاء اقتصر على الاقامة لأنها صلوات فائتة فيسن لها الأذان كالأولى وان اقتصر على الاقامة جاز لما روي عن ابن مسعود ان النبي عليه السلام فاتته يوم الخندق أربع صلوات حتى ذهب ماشاء الله من الليل فأمر بلالاً فأذن وأقام وصلى الظهر ثم أمره فأقام فصلى العصر ثم امره فأقام وصلى المغرب ثم امره فأقام وصلى العشاء

وينبغي أن يؤذن ويقيم على طهر[2] لأنه ذكر يتقدم الصلاة فكان من سنته الطهارة كالخطبة .

وان أذن على غير وضوء جاز لأن المقصود هو الإعلام وقد حصل .

ويكره ان يقيم على غير وضوء لأنه يؤدي الى الفصل بين الاقامة والدخول في الصلاة وانه مكروه .

ولا يؤذن وهو جنب لأنه ذكر الله تعالى وثناء عليه فأشبه القراءة .

ولا يؤذن لصلاة قبل دخول وقتها[3] لأنه دعا الى الصلاة والدعاء الى الصلاة ولا صلاة محال

(١) العبارة التي بين عضادتين في الهامش

(٢) في مخطوطة المختصر على طهر وفي المطبوع على وضوء

(٣) في مخطوطة المختصر ولا يؤذن لصلاة قبل دخول وقتها « الا عند أبي يوسف فيجوز قبل الصبح» الا أن العبارة الأخيرة التي وضعناها بين عضادتين لم ترد في المطبوع كأنها من أصل المختصر بل انها اقحمت في الشرح بقول الشارح أبي بكر الحدادي وأما في الفجر فعند أبي يوسف يجوز في النصف الأخير من الليل وعندهما لا يجوز

وقال أبو يوسف والشافعي يجوز أذان الفجر في النصف الاخير من الليل لأن بلالاً كان يؤذن بليل الا أن النبي صلى الله عليه وسلم نبه على الفرض وبين أنه لغير الصلاة فقال انه يؤذن بليل ليوقظ نائمكم ويتسحر صائمكم ۰ اه ۰

ويظهر ان هذا الكتاب اتصل بعد ذلك برجل يدعى «محمد ابي الفتح» فقد جاء في ظهر آخر ورقة منه ما نصه :

لكاتبه عفا الله عنه

يا رب للجبار حق ٭ وفي الثرى صرت جارك
فلا تخيب رجائي ٭ واجعله أمراً مبارك

وتحت ذلك : ولي أيضاً مضمناً

أتى الحب يوماً زارني قلت مرحباً ٭ ببدر تبدى للتواصل طائع
ومضمناً ناديت والحب ضاحك ٭ «أبرق بدا من جانب الغور لامع»

ومعلوم أن الشطر المضمن هو صدر بيت لابن الفارض هو :

أبرق بدا من جانب الغور لامع ٭ ام ارتفعت عن وجه ليلى البراقع

وقد أضاف اليه سبطه علي من الأبيات ما جعلها جميعاً قصيدة عصماء ألحقت بديوان ابن الفارض

ولعل أحد هواة الكتب الذين يملكون نسخة غير مبتورة من هذا الشرح يطلع على ما نقلناه من «باب الأذان» فيعلن عن ذلك لنستكمل النقص الذي في نسختنا هذه فانها صحيحة بما فيها من السماع التطبيقي والمقابلة على أصول أصح ۰

وبعد فان الكتاب بالقطع الكبير وعدد صفحاته نحو ٤٠٠ وطول كل ورقة ٢٨ وعرضها ١٨ من السنتيمترات وفي كل ورقة ٢١ سطراً وكل سطر مؤلف من ١٣ كلمة بحرف كبير مقروء وفي كاغد صكوكي ثخين ۰

عبد الله مخلص

اولية تدوين المعاجم

وتاريخ كتاب العين المروي

عن الخليل بن احمد

(٣)

٣ — التأليف على حروف المعجم وأثر الخليل بن احمد في ذلك :

بعد أن فرغ الخليل من حصره ابنية العرب بطريقة علمية شاملة ضابطة ، وبعد ان ادرج تلك الأبنية على تتابع حروف الهجاء ، لم يفته ان نهجه هذا قد أثبت لكل تراكيب من تراكيب العربية مكاناً خاصاً ، يرد فيه تبعاً للحروف التي يتألف منها ، وانه اصبح في الوسع معرفة ذلك المكان ، فقال عنه الليث في كتابه : « فاذا سألت عن كلمة وأردت ان تعرف موضعها من الكتاب ، فانظر الى حروف الكلمة ، فمها وجدت منها واحداً في الكتاب المتقدم ، فهو في ذلك الكتاب » [1] .

هب أنك تريد ان تجد موضع « سمع » ، فانظر أي حرف من حروف هذه الكلمة يتقدم الآخرين في ترتيب الحروف على مخارجها ، وانك لواجد حرف « العين » ، يتلوه من الآخرين « السين » ثم « الميم » . وبما ان « سمع » ثلاثي التركيب ، ارجع الى ابواب الثلاثي في الكتاب ، وانظر فصل العين منها ، ثم ابحث عن باب العين مع السين ، فاذا وقعت عليه ، فارجع الى ضرب العين والسين مع الميم . ودليلك الذي لا يخطئ في ذلك ان الفصول والابواب والضروب رتبت جميعها على مخارج الحروف التي درجت فيها .

وكذلك وفق الخليل الى ايجاد كتاب حصرت فيه كل الأبنية ، وعرف فيه موضع كل منها ، غير أنه لم يتهيأ للخليل الوصول الى تحديد مواضع الكلمات الا عرضاً ، اي ان أسلوبه في حصر الألفاظ ادى بقصد او دون قصد ، رغبة او توفيقاً الى تحديد مواضع الكلمات .

---

(١) التهذيب للازهري ص ٤٩

وادعى علماؤنا بأسبقية العرب في تأليف كتب اللغة على حروف المعجم ، وبُني بعض دعواهم على غفلة منهم بالآثار اللغوية اليونانية ، ونجم بعضه الآخر من أن العرب لم يأخذوه عن الآخرين، وساروا به شوطاً بعيداً ، لم يدعوا فيه احداثاً جديداً لمحدث ، واستفادوا منه في كل ضرب من ضروب علومهم ، فكانوا دون جدال اربابه من دون الأمم .

على أن من الحق ان يقال ان اليونان سبقتهم اليه ، فقد ألف علماؤهـا قبل ظهور الرسالة المحمدية عدداً من المعاجم ، مرتبة على حروف الهجاء ، نذكر منها معجم بامفيليوس Pamphilius اللغوي الاسكندراني ، الذي الف منـه خمساً وتسعين مجلدة ، واكمله سوبيريون Sopirion [1] ، ومعجم هيلاديوس Helladius كاهن جوبتر في الاسكندرية حوالي سنة ٣٩٠ ميلادية [2] ، ومعجم هيزيشيرس Hesychius الاسكندراني [3]

وقد يجول في الذهن ان الخليل أخذ ترتيبه من هذه المعاجم وأمثالهـا ، وانه لا فضل له في ذلك الا اسبقيته في النقل ، وهذا رأي يبدو وجيهاً قوياً ، غير أن عللاً عديدة تنقضه وتزيله .

أولها انه ما كان للخليل أن يعرف معاجم يونان لجهله اليونانية ، ولأن حركة الترجمة في عصره لم تكن شيئاً مذكوراً ، وهي لم تجن ثمرها الا في عهد الرشيد والرشيد بويع بالخلافة سنة ١٧٠ ، أي السنة التي يغلب أن يكون الخليل قد توفي فيها . وهب ان ما ترجم في عصر الرشيد والمأمون ومن بعدهما كان معروفاً في عصره ومنها الكتب المؤلفة على الحروف ، ككتاب الحروف لارسطو ،

(١) Encyclopaedia Britannica, 11e edition, 191. 7-8. (٢) النص السابق وانظر عن هيلاديوس في Paulys.—Real-Encyclopaedie begonnen von G. Wissowa VIII,1. 103 Stuttgart, 1931

(٣) Enc. Brit. ، النص السابق ، وانظر ترجمة هيزيشيوس في Paulys.1322 VIII,2. ولعل معجم Herodian صاحب نيرون يدخل في هذه المعاجم على ما هنالك من الشك في ان يكون رتب على الحروف بعد عصر مؤلفه Enc. Brit. 190,7-8,

المعروف بالالٰهيات ، الذي نقل منه حنين بن اسحق وابنه اسحق وابو زكريا يحيى بن عدي وأسطاث [1] . وهب ان حكماء عصره ألفوا كتب الأدوية على حروف المعجم ، كما فعل ابو يعقوب اسحق بن حنين (ـ ٢٩٨) في كتاب الأدوية المفردة على الحروف [2] ، وكما يقال عن ابيه حنين (١٩٤ — ٢٦٤) [3] ، وككتاب قوى الادوية المفردة على الحروف لعيسى بن صهاربخت من اهل جنديسابور [4] ، هب ان ذلك كان فليس اسلوب هذه الكتب يوحي بتأليف معجم للألفاظ اللغوية ، يحويها كاملة : فان هذه الكتب لا تضم الا عدداً قليلاً من المفردات التي لم ترتب الا باعتبار الحرف الأول منها ؛ وبحث الأدوية المفردة على ترتيب حروف الجمل (ابجدهوز) في كتاب القانون لابن سينا اكبر دليل على ما نقول [5]

وليس يثبت أخذ الخليل عن اليونان ترتيبهم الا البرهان على إطلاعه على معاجمهم اللغوية ، وذلك امر لا دليل عليه ، والدليل على عكسه موجود ، اذ ان من المقرر أن علماء اللغة العربية والادب العربي لم يعنوا بمعرفة آثار الأدب واللغة اليونانية ، ثم تأمل قولهم في اسلوب كتاب العين ، تزدد يقيناً بعدم معرفتهم معاجم اليونان: قال ابو الطيب عبد الواحد بن علي اللغوي ، وهو شيخ من شيوخ العربية : « أبدع مؤلف كتاب العين بدائع ، لم يسبق اليها ، فمن ذلك تأليفه كلام العرب على الحروف » [6] . وقال الزبيدي وهو من اللغويين المشهورين : « ثم ذهب الخليل في حصر جميع الكلام مذهبه من الاحاطة ، التي لم يتعاطها غيره ، ولا تعرضها أحد سواه ، فثقف جميع الكلام وزم جميعه ، وبين قيام الأبنية من حروف المعجم وتعاقب الحروف لها بنظر لم يتقدم فيه وابداع لم يسبق اليه » [7] . ولم يقتصر هذا القول على اللغويين ، بل قال به المؤرخون المطلعون على تواريخ القدماء

(١) الفهرست ، ٣٥٠ ، ابن القفطي : ٤١ — ٤٢ (٢) الفهرست ٢٨٥ ، ٢٩٨ ، ٣٠٩

(٣) ابن ابي اصيبعة ١ : ١٩٦ وقد يكون ما ذكرته في ذلك ترجمة لا تأليفاً ، ويؤيد ذلك ان ابن النديم ذكر له ترجمة كتاب اسمه كتاب الأدوية المفردة لجالينوس ولم يذكر له تأليفاً في ذلك (الفهرست ، ٢٩٠) (٤) الفهرست ، ٢٩٨ (٥) طبعة روما سنة ١٥٩٣ ، من صفحة ١٢٤

(٦) المزهر ١ : ٩٠ ، كشف الظنون ٢ : ٢٩٠ عن المزهر (٧) المزهر ١ : ٤١

(-)

لحمزة بن الحسن الأصبهاني ، فقد قال : [1]« صنع صاحب كتاب العين مالم يصنعه أحد منذ خلق الله الدنيا ... من تأسيسه بناء كتاب العين الذي يحصر لغة امة من الأمم قاطبة » . اتراهم كانوا يقولون ذلك لو اطلعوا على معجم من معاجم اللغة اليونانية المخرجة على الحروف ؟ الا إن الصلة كانت معدومة بين علماء العربية وبين كتب اللغة اليونانية . واما قول ابن جلجل بأن حنين بن اسحق اتصل بالخليل وأخذ عنه العربية [2] ، فدعوى باطلة ، لأن مولد حنين كان سنة ١٩٤ [3] ، اي بعد وفاة الخليل بكثير ، وبطلانها ينقض كل مافد يخطر بالبال من ايحاء حنين للخليل بطريقة اليونان . اما إن القول الفصل ان الخليل لم يعرف شيئاً عن أسلوب اليونان .

ألا ترى انه لو كان عرف شيئاً من ذلك لاتبع اسلوبهم ، وحذا حذوهم ، لا سيما وأسلوبهم أسهل من إسلوبه ، واقرب الى افهام الخاصة والعامة ، فترتيبهم هو الترتيب المعروف اليوم في معاجم اهل الغرب وفي معاجمنا المحدثة ، فقد درجت فيه الألفاظ باعتبار حرفها الأول ثم الثاني ثم ما يليهما [4] ، وكل ذلك واضح سهل . فلِمَ يدع الخليل هذا الترتيب ، ويعمد الى أخذ مختلف مضاريب الحروف بعضها مع بعض كما رأيت ؟

ونعود إلى ما قلناه آنفاً من أن الخليل توصل الى إبداع الترتيب على حروف المعجم عرضاً ، آل به الى ذلك غايته في حصر ألفاظ العربية ، فلا علاقة لمعاجم اليونان في ذلك . بل نستطيع أن نقول اكثر من ذلك ، فندعي ان لغويي العرب

(١) وفيات الاعيان ١ : ١٧٣ ، ومرآة الجنان ١ : ٣٦٣ . (٢) ابن ابي أصيبعة ١ : ١٧١ ، ١٨٤ وابن العبري ، ٢٥٠ وصاعد الأندلسي في طبقات الأمم ، بيروت ١٩١٢ ، ص ٣٦ (٣) مايرهوف ، مقدمة كتاب العشر مقالات في العين ، — وسوتر Suter في معلمة الاسلام ، الطبعة الافرنسية ٢ : ٣٥٧ وابن ابي أصيبعة ١ : ١٩٠ (٤) معظم المعاجم اليونانية القديمة اقتصرت على اعتبار الحرف الأول والثاني وحيناً الثالث اساساً للترتيب (VII,679,Paulys) ، وهذا تأييد لدعوانا ، اذ كيف يعقل أن يأخذ المقلد بأبعد مما وصل اليه من ينقل عنه ، فترى الخليل يعتبر حروف الكلمة اجمع لا الحروف الثلاثة الاولى .

أدركوا أسلوب اليونان المخالف لأسلوب الخليل ، دون ان يطلعوا على معاجمهم ، فقد مروا بمراحل أدت بهم بنتيجة تطور متتابع الى ما يشابه اسلوب اليونان . فأسلوب كتاب العين وتطور هذا الأسلوب رويداً رويداً خلال العصور أديا بهم الى حيث وصلوا ، دون ان يفتقروا الى معرفة طريقة اليونان ، وهاك ايضاح ذلك :

رأينا كيف أن الخليل لم يجد أوفق لغايته التي دفعته الى تأليف كتاب العين — الا وهي حصر أبنية العرب — من ترتيب الحروف على مخارجها ، وانه عندما فعل ذلك وجد من الخير ان يجمع في محل واحد مختلف الألفاظ التي تتكون من ضرب الحروف بعضها ببعض ، وان يفصل الثنائي عن الثلاثي عن الرباعي عن الخماسي . وسوف نرى كيف ان اللغويين بعد ان شعروا — والغاية من ترتيب الخليل قد حصلت — بالحاجة الى تأليف المعاجم على طراز يقرب سبيل الوصول الى الكلمات ومعرفة معناها ، لم يوفقوا دفعة واحدة الى ذلك ، كما لو كانوا عرفوا نهج اليونان ، بل عبروا زمناً طويلاً يدخلون التعديل تلو التعديل على اسلوب الخليل . حتى اذا قربوا من الوصول الى اسلوب اليونان تعدوه الى أسلوب آخر ، أصبح نهجهم الذي اختصوا به .

وهذا ابو اسحق ابراهيم بن الحربي (١٩٧ — ٢٨٥) لم يجد معجماً ينسج على منواله غير كتاب العين ، او ما نحا نحوه[1] ، وقد دل كتابه في غريب الحديث على انه قلد الخليل دون ان يفهم غايته ، فلم يتبع من أسلوبه الا حرصه على درج مختلف مضاريب الحروف بعضها ببعض ، كذكر (رم مع مر) و (شمر مع عشر مع شرع) ، مع خلو الفائدة من هذا الترتيب في معجم للحديث . أما درج الحروف تبعاً لترتيب ما ، وأما

(١) لم ترنسخة خزانة الاسكوريال ٥٧٢ من كتاب الجيم لابي عمرو شمر بن حمدويه الهروي (— ٢٠٥ او ٢٠٦) الذي «أسسه على الحروف المعجمة وبدأه بحرف الجيم » وقيل انه ضن به في حياته ، وتمزق بعد وفاته (تهذيب اللغة للازهري ٢٤ — ٢٥ وانظر المزهر ١ : ٤٦ والبلغة ١٥٢) وذهبت كتب اللغة التي هذب فيها كتاب العين او عورض كالبارع للمفضل بن ابي سلمة (توفي نحو ٢٥٠) (ابن خلكان ٢ : ٣٥٠) ، والغالب ان هذه الكتب حذت حذو الخليل كما يدل على ذلك اسلوب الكتب التي تلتها فهي لا تظهر تجدداً بالنسبة الى أسلوبه .

فصل الثنائي عن الثلاثي وغيرهما فلا [1] ، ولعل عذره في ذلك ان موضوع كتابه جديد ، وانه لم يستطع أن يجد طريقاً يجمعه ضابطاً منظماً في أبواب الكتاب الصغيرة التي لا تدخل في حصر . وسار على نهج الخليل احمد بن محمد البشتي الخازرنجي من القرن الرابع . ومع انه حاول ان ينتقد عليه ، وان ينقض كتابه ، لم يجد بداً من ترتيب كتابه على مخارج الحروف وفصل الأبنية الى ثنائي وثلاثي وغير ذلك وذكر ضروب الحروف ومقاليب الكلمات [2] . وحذا حذو الخليل أيضاً الأزهري في تهذيبه [3] والزبيدي (— ٣٧٩) في مختصره [4] وابو الحسن علي بن اسماعيل بن سيده (— ٤٥٨) في محكمه [5] ، وينتقد ابن منظور اسلوب كتاب التهذيب والمحكم ويقول « ان كلاً منها مطلب عسر المنال ... وكأن واضعه شرع للناس مورداً عذباً وحلأهم عنه » [6] وقد خفي عليه انهما اتبعا طريق الخليل ، واقتديا به دون ادخال تعديل عليه ، يقتضيه تغير الغاية والحاجة . ويشعر ابو بكر بن دريد بالحاجة الى ادخال التعديل ولكنه وقع في ابلغ مما وقعا فيه ، فهو بعد ان عدل عن ترتيب الحروف على مخارجها ، واعتز بذلك قائلاً « وأجرينا كتاب الجمهرة على تأليف الحروف المعجمة ، اذ كانت بالقلوب أعلق ، وفي الاسماع أنفذ ، وكان علم العامة بها كعلم الخاصة ، وطالبها من هذه الجهة بعيداً من الحيرة » [7] بعد ان فعل ذلك لم يستطع أن

(١) المجلدة الخامسة من غريب الحديث للحربي (مخطوطة الظاهرية ، لغة ٤٢) ويجمل ترتيب هذا الكتاب انه يأخذ غريب أحاديث كل صحابي على حدة فيعدد هذه الأحاديث ويدرج في كل عدد مضاريب عدد من الحروف فاذا ذكر غريب حديث عبد الله بن عباس قال مثلاً : الحديث الخامس ، باب فرع ... باب حرف ... باب عفر . . باب رعف (٢) يعدد الازهري في التهذيب بعض عيوبه ومنه استدللنا على ترتيب كتابه ففي ص ٣٠ يذكر في باب العين والقاف والزاي (قوزع) وفي ص ٣٦ في باب العين والضاد مع الياء ابضعين وفي ص ٣٧ في باب العين والقاف والدال قعود

(٣) طبعة مترستين وانظر البلغة ص ١١٤ وفهرس دار الكتب المصرية ٢ : ١٠ وبروكلمن ١ : ١٢٩

(٤) فهرس دار الكتب المصرية ٢ : ٣٦ والمقدمة لابن خلدون باب اللغة وابجد العلوم ٦١٥

(٥) المقدمة في باب اللغة وابجد العلوم ٦١٥ والبلغة ١٦٧ واكتفاء القنوع لفانديك ، مصر ١٨٩٦ ص ٣٢٠ . (٦) لسان العرب ١ : ٣ (٧) الجمهرة ١ : ٣ وفي المزهر عنه ١ : ٤٧

يدع تدريج الخليل في أخذ مختلف ضرب الحروف بعضها ببعض وعكسها وقلبها وفصل ثنائيها عن ثلاثيها . وأخذ انيقها ومعتلها ، وكأنه لم يدر ان ما فعله الخليل في ذلك يوافق ترتيب حروف الحلق لا ترتيب حروف الالفباء ، وان الخليل لو كان أخذ بترتيب الالفباء لاختط لنفسه طريقاً آخر . وتبع ابن دريد الصاحب بن عباد (— ٣٨٥) دون ادخال تعديل على أسلوبه[1] ، وأدرك ابو العباس احمد بن محمد بن ولاد (— ٣٣٢) مافاتهما ، وعرف أنه لا يمكن « طالب الحرف في كتاب العين ان يعرف موضعه من الكتاب من غير ان يقرأه ، الا ان يكون قد نظر في التصريف ، وعرف الزائد والاصلي والمعتل والصحيح والثلاثي والرباعي والخماسي ... وتصريف الكلمة على ما يمكن من وجوه تصريفها في اللفظ على وجوه الحركات ، والحاقها ما تحتمل من الزوائد ومواضع الزوائد ، بعد تصريفها بلا زيادة ؛ ويحتاج مع هذا الى ان يعلم الطريق التي وصل الخليل منها الى حصر كلام العرب : فاذا عرف هذه الأشياء عرف موضع ما يطلب من كتاب العين »[2] .

وفهم ان على من كان غرضه غير ما قصد الخليل ، ان يتخذ طريقاً آخر ، وهذا ما فعل مقدماً الألف على سائر الحروف ، وذاكراً في باب الألف كل الكلمات المقصورة والممدودة ، التي تبدأ بها ، وفي كل حرف من الحروف الكلمات التي أولها ذلك الحرف . وقد سبق في ذلك جميع اصحاب المعاجم اللغوية ، لكنه لم يفكر بأن يجعل الترتيب يتمم الحرف الثاني والثالث وما بعدهما ، فورد كتابه مضطرباً في ذلك ، ومن اراد ان يعثر على كلمة فيه ، وجب عليه ان يتصفح كل الكلمات التي أولها يماثل أول حرف من هذه الكلمة ، وشأنه في ذلك شأن المبتدئ الذي لابد أن يأتي عمله ناقصاً ، على انه كان أوسع فكراً من ابي بكر محمد بن عمر بن عبد العزيز بن القوطية (— ٣٦٧) الذي شعر بالحاجة الى درج الكلمات التي تبتدئ بحرف مماثل في مكان واحد ، ففعل كما فعل ابن ولاد ، قاصراً ترتيبه على الحرف الأول ، ولكنه حافظ على ترتيب الحروف

(١) الصاحب بن عباد لخليل مردم بك ، دمشق ١٩٣٢ ، ص ١١٥ — ١١٨ وفهرس دار الكتب المصرية ٢ : ٣٥ (٢) المقصور والممدود له ، مصر ١٩٠٨ ، ص ٣ وعنه في المزهر ١ : ٦٦

الحلقي [1] . وهذب ابو محمد بن عزيز السجستاني (— ٣٣٣) طريقة ابن ولاد ، ولم يقتصر على جمع الألفاظ المتماثلة بحرفها الأول ، بل رتبها على حركاتها الخفيفة في حرفها الأول من فتح وضم و كسر [2] .

وترتيبا ابن دريد وابن ولاد مهدا السبيل لابي الحسين احمد بن فارس بن زكريا القزويني (٣٢٩ — ٣٩٥) ، فأخذ بترتيب الالفباء ، وجمع الكلمات التي أول بحرف منها متماثل ، وزاد الى ذلك اعتبار الحرف الثاني والثالث في الترتيب ، غير ان اثر الخليل يظهر في عمله ، فهو يتابعه في تقسيمه للابنية الى ثنائية وثلاثية واكثر من ذلك ، فيذكر الكلمات الثنائية على حدة ، ويتبعها في الحرف نفسه بالابنية الثلاثية ، ثم « بما جاء من كلام العرب على اكثر من ثلاثة أحرف » وقد اتبع هذا الترتيب في مجمل اللغة [3] وعرف انه أتى بشيء جديد ، فقال « هذا آخر مجمل اللغة فاحفظه وتدبر ترتيب ابوابه » [4] وحافظ على الترتيب نفسه في كتابه مقاييس اللغة [5]

وقبل ان يظهر معجم لغوي ، يوافق تماماً ترتيب اليونان ، يظهر كتاب الصحاح للجوهري بترتيب جديد مبتكر ، لا يشابه ترتيب اليونان ولا ترتيب ابن فارس ، وبه

---

(١) في الأفعال الثلاثية والرباعية له ، طبعة غويدي ، ليدن ١٨٩٤ (٢) تفسير غريب القرآن له ، نسخة الظاهرية ، لغة ٣٠ والنسخة المطبوعة ، يعدد في باب الهمزة المفتوحة مثلاً : انذرتهم ، اليم ، انداداً الخ (٣) مطبعة السعادة ١٩١٣ الجزء الاول (٤) الجزء الاخير من مجمل اللغة ، مخطوطة الظاهرية ، لغة ١٢٣ ، آخر ورقة . ولكن يجب القول ان ترتيبه في ابنية الثلاثي ليس كاملاً فأول الأبواب لا يبتدئ بالباء الذي يجب ان يبتدئ به وخذ مثالاً على ذلك باب العين والذال وما يثلثهما يبتدئ بعذر وينتهي بعذب والذي بعده يبتدئ بعرز وينتهي بعرج ولم نر تعليلاً شافياً لما يفعل ولعله أخذ دولابين متحركين مبنيين على عدد حروف العربية على كل من حرف من حروف الالفباء فكان يدير احد الدولابين حين يأخذ صور الثنائي ويدير الدولاب الثاني حين ينتقل الى الثلاثي ويسجل الابنية المستعملة التي تخرج معه في هذا الدوران بترتيبها الذي لا يخطئ والذي يسهل له سبيل تركيبها والرجوع الى معاجم اللغة دون ان يختل ترتيبه . واذا فرضنا وجود صلة ما بين الدولاب الاول والثاني تجعل الثاني يتحرك مع الاول حين الانتقال من حرف الى حرف أدركنا كيف أن الدولاب الثاني يستقر على حرف وجب ان لا يستقر عليه فيخطئ بذلك ابتداء الألفاظ الثلاثية (٥) النسخة المصورة في المجمع العلمي العربي.

تنفك الحلقة التي كانت تربط مختلف اجزاء تطور ترتيب المعاجم . وترتيب الجوهري هو اعتبار الحرف الأخير من المصدر أساساً للترتيب على حروف المعجم ، ومتى اجتمعت الكلمات ذات الحرف الأخير المتماثل ، رتبت باعتبار حرفها الاول ثم الثاني [1] ويرى الاستاذ مارسيه لترتيب الجوهري سببين : اولهما ان الجوهري اراد ان يكون معجمه عوناً للسجاع ، الذين انتشروا في عصره انتشاراً كبيراً ، وثانيهما ان اشتقاق الابنية يغير حرفها الأول اكثر مما يغير حرفها الأخير [2] . وسار الترتيب على ما خطه الجوهري التابعة ، فألف تمام بن غالب بن التيان (— ٤٣٦) موعبه باعتبار الحرف الأخير أساساً للترتيب [3] . وأخذ بهذا الترتيب محمد بن ابي الحسن صاحب المستنصر ، الذي لخص كتاب المحكم [4] ، وتبعهم في ذلك جل اصحاب المعاجم [5]

وقد يقال ان اصحاب الحديث ينقضون قولنا في التطور على ما درجناه عليه ، فمنهم محمد بن اسماعيل بن ابراهيم البخاري (١٩٤ — ٢٥٦) رتب اسماء المحدثين في تاريخه الكبير على حروف المعجم [6] ، والجواب على ذلك ان اصحاب الحديث ابعد الناس معرفة بطرائق يونان ، واتصالاً بكتبها ، وكل امرهم ان عبقرياً منهم ادرك ان اللغة غير تعداد الأسماء ، فرتب الأسماء على حروفها الأول ، لكنه لم يتعد في ترتيبه الحرف الأول [7] ، وقلده في ذلك ابو بشر محمد بن احمد بن حماد الدولابي (٢٢٤ — ٣١٠) في كتاب الكنى والأسماء [8] ، وتبعه من غير اصحاب الحديث دون أي تعديل ابو القاسم الحسن

(١) تاج اللغة وصحاح العربية ، بولاق ، ١٢٨٢ وانظر مقدمة نصر الهوريني ١:٧ من الكتاب والمقدمة لابن خلدون باب اللغة وابجد العلوم ٦١٥ (٢) من درسه في ١٣ مارس ١٩٣٦ التقاط الاستاذ محمد المبارك والاستاذ خلدون الكناني (٣) لغة العرب ٤:١٧ عام ١٩١٤ على ان ابن التيان يضيف شيئاً آخر وهو جمع الكلمات ذات الوزن المماثل الواحدة تلو الاخرى (٤) المقدمة لابن خلدون في باب اللغة وابجد العلوم ٦١٥ (٥) ومن اللغويين من يرون ان الحرف الاخير اكثر عرضة للتغير من الحرف الاول فيرتبون معاجمهم على الحرف الاول ثم على الاخير ثم على ما بينهما كأثير الدين محمد بن يوسف بن علي الاندلسي الجياني (٦٥٤ - ٧٤٥) في كتابه تحفة الاريب بما في القرآن من الغريب ، حماه ، ١٩٢٦ (٦) الاعلان بالتوبيخ لمن ذم التاريخ للسخاوي ، ص ١١٠

(٧) الجزء الاول من تاريخ البخاري الكبير ظاهرية مجموع ٦٦(١٥) .

(٨) طبعة حيدر اباد ١٣٢٢ ، راجع أقسامه المختلفة بالتتابع في ١:١٢ و ١:٦٣ و ١:٩٥

ابن بشر الآمدي (— ٣٧٠) في المؤتلف والمختلف في اسماء الشعراء ، وابو عبيد الله محمد بن عمران المرزباني (٢٩٧ — ٣٨٤) في معجم الشعراء [١] . ولكنهم كلهم لم يدركوا شأو اليونانيين في اعتبارهم الحرف الثاني والثالث ، وما فعل ذلك الا محدثو العصر الخامس ، اتكالاً لنهج من سبقهم ، وتحرياً في تسهيل المراجعة [٢]

ومجمل القول : ان العرب اخذوا بترتيب الكتب على الحروف ، دون ان ينقلوه عن اليونان ، وأوصلوه بمراحل طويلة الى نهج يخالف نهجهم ، دون ان يستفيدوا مما فعلوه قبلهم ، ولئن كانوا جميعاً يجهلون أسلوب اليونان ، فكم أحرى بالخليل ان لا يكون مطلعاً عليه ، مع بعد زمانه عن اثر اليونان ، واختلاف اسلوبه عن اسلوبهم ، وغايته عن غايتهم .

يتبع

يوسف العش



(١) نشر هذين الكتابين الاستاذ كرنكو (٢) انظر ما يقول في ذلك الخطيب البغدادي في تاريخ بغداد ١:٢١٣ والطوسي في الفهرست ص ٢

مخطوطات ومطبوعات

أقاصيص تيمور

أخرج الاستاذ محمود تيمور بك في السنوات الأخيرة مجموعات من الأقاصيص ، امتازت بالدقة في الوصف ، والسهولة في التعبير ، والجمال في القص . منها « قلب غانية » و « فرعون الصغير » و « نداء المجهول » و « مكتوب على الجبين » .

ولن نستطيع ان نسهب في الكلام على هذه الأقاصيص ، وتبيان مافيها من جمال وفن وبراعة ورشاقة ، لأن ذلك يتطلب الصفحات الطوال ، على أننا سنوجز في سردها ، ونبين الأشاوي التي امتازت بها .

اما « قلب غانية » فمجموعة أقاصيص ، صدرها المؤلف بمقدمة عن « حافظ القصصي » وهي المحاضرة التي ألقاها المؤلف بدار الاوبرا الملكية ، في الاحتفال بذكرى حافظ ابراهيم (٧ مايس ١٩٣٧) ، وفي هذه المجموعة : سراب ، حورية البحر ، حنين ، السجينة ، الشحاذ ، الفطائر العشر ، قبلة ، أم .

اما « فرعون الصغير » فمجموعة ثانية ، صدرها الاستاذ المؤلف بحديثه الذي تحدث به في قاعة المحاضرات في الجامعة الاميركية (٥ مارس ٩٣٨) عن « المصادر التي ألهمتني الكتابة » . ذكر فيه الاستاذ كيف اصبح قاصاً ، وحبذا الطريقة يتبعها الكتاب والأدباء فيبينوا للناس ما خفي من حياتهم الأدبية ، وما ورثوه من آبائهم ، وأثر البيئة فيهم ، والحوادث الخاصة التي كان لها أثر في إنتاجهم . وهذا ما أبان عنه الاستاذ تيمور فأجاد فيه وبرع . وأقاصيص هذه المجموعة هي : غريم ، حزن أب ، غانية الحانة ، انقلاب ، أركان الوضوء ، عزرائيل القرية ، افديك بالروح ، رجل رهيب ، زمان المنا ، غرام قديم ، ...

اما المجموعة الثالثة ، فهي « مكتوب على الجبين » وهي آخر ما جمعه الاستاذ . وفيها يظهر نضجه وكماله . تقدم لها بكلمة ألقاها في جمعية الشبان المسيحيين عن « فن كتابة القصة » ثم نشرت هذه الكلمة في مجلة « الرسالة » المصرية . وقد كشف فيها

السبيل التي ينبغي للقاص الناشئ اتباعها . ومن أقاصيصها : « كان في غابر الزمان وفيها يبلغ تيمور الذروة ، وأغلال ، مكتوب على الجبين ، العيون الخضر ، بحبوش ، بسمة اللبنانية ، تاج من ورق ، في خميلة الحب ، مأساة نفس ، قلب كبير ، ابتسامة ذات مساء ، صحبة الورد ... »[1]

* * *

أما الأشياء التي يراها القارئ واضحة في أقاصيص تيمور فهي :

١ : البساطة . وهي من ابرز عناصر فنه ، فلا تكلف ولا تعقيد ، ولا لف أو دوران ، وإنك لتحسب اسلوبه الناعم كأنه الحمل يثغو وراء راعيه ، او الجدول المازج ينساب بين الأزاهير . ولذلك تجد لأقاصيصه رخيماً وطلاوة ، وترى عليها الرشاقة والجمال . والفرنسيون يقولون « البساطة هي الجمال » . وهو لا يعمد في اقاصيصه الى المشوقات المبتذلة ، او المفاجآت التي تعقد القصة ، لأنه يعتقد انهذه من وسائل القاص الضعيف ، وان قوة القصة تظهر في بساطتها وصدقها وصوغها في قالب فني رفيع . (انظر المصادر التي المهتني الكتابة) .

وقد جمع الاستاذ في أقاصيصه البساطة التي عرف بها القصص الريفي ، والوضوح والاتزان اللذين عرف بهما قصص « موباسان »

٢ : يعنى الاستاذ تيمور بالتحليل النفسي عناية ظاهرة ، ويستمد مادة أقاصيصه من النفس الانسانية على اختلاف أشكالها ومحالها . لأن الأدب الحق كما يقول هو أن يولي الإنسان وجهه شطر النفس الانسانية فمنها يستمد الأديب كل خالد جميل ، ويصبح الأدب الذي يصورها في أحزانها وميولها وأذواقها وطبائعها ورعونتها وحمقها وسذاجتها ، ادباً باقياً لا يفنى .

ولذلك تجده يبرع في وصف هذه النفس وتحليل عواطفها ، ويجنح الى الواقعية جنوحاً كبيراً ، فتحسب في أحايين كثيرة انك تعرف أولئك الأبطال الذين تقرأ

(١) اما « نداء المجهول » فسنفرد لها كلمة خاصة بها .

عنهم وأنك قد شهدتهم مرات ومرات . وقد يخيل اليك انهم امامك تشهد حركاتهم وتسمع احاديثهم ، لأن الحياة تدفق منهم ، ولقد وصف الشباب واهواءهم والكهول وطباعهم ، والشيوخ وشذوذهم ، والنساء وميولهن ، والمعلمين والتلاميذ ، والفنان الهيمان بالجمال ، والمصري المحافظ ، والمصري المتفرنج ، ووصف أرياف مصر ، وجبال الغرب ؛ والفقراء والفلاحين والأغنياء والحضريين ...

٣ : لا تجد في اقاصيص تيمور غلاظات بعض القصاص في النصح والوعظ والارشاد، ولكنه يعمد للتلميح ، او يدع الحوادث تنطق ، او يصور فيبرع في التصوير ، فاذا هو قد ملك على القارئ امره ، وإذا بالقارئ يعلم مما اوحي اليه ان هذا حسن وذاك قبيح ، وقد ذكر الاستاذ انه لا يرى القصة منبراً للوعظ ، بل هي معرض للتصوير والتحليل (انظر فن كتابة القصة) والقاص يوحي برموزه وظلاله وإرشاداته الى القارئ بالغرض الذي يرمي اليه .

٤ : اسلوب تيمور في اقاصيصه ناعم حلو ناصع ، له رنيف وعليه سناء ، وهو يعني بلغته وبتخير الفاظها (وخاصة في مجموعته الأخيرة) اما الفاظه فعلى قدر معانيه ، لاحشو ولا إطناب . على أنك قد تجد في ثنايا كتاباته هنات لغويات او كلمات عاميات لاضرورة لهن ، وقد كان يستطيع ان يستبدل بهن غيرهن . وقد تلمس ضعفاً في اللغة في بعض إجزاء القصة لا يستدعيه سياقها ، وقوة في اجزاء أخر لا يتطلبه المقام .

٥ : يتتبع الأستاذ أثر « موباسان » في اقاصيصه ، وقد تجد له اقاصيص على النمط الروسي . ولعل تتبعه لموباسان نتيجة لشغفه به ، فهو يرى « ان فنه كامل توفرت به جميع العناصر اللازمة لبناء قصة قوية من حيث عرض الموضوع ومعالجته وتحليل اشخاصه وتسلسل حوادثه ، مع الوضوح والاتزان ... » (انظر المصادر التي الهمتني الكتابة)

* * *

هذا قول موجز في اقاصيص تيمور . والحق انه ابدع لوناً رفافاً في ادبنا الحديث وهو القصة ، فبرع به واجاد ، وسبق وجلّى .

أفلا يدفعنا ، بعد ذلك ، ذيوع اقاصيصه(١)، وفرادة احاديثه ، ورنين أسلوبه ، وحلاوة تصويره ، وجمال قصه ، أن نلقبه بحق : [امير القصة في الشرق]

صلاح الدين المنجد

---

(١) نقلت أقاصيص الاستاذ تيمور الى الفرنسية بعنوان
Les Amours de Sami
Les écrivains Contemporains 26, Rue des Tournelles. Paris IV°
ونقلت الى الألمانية بعناية المستشرق السويسري الدكتور ويدمار
Mahmūd Taimūr
Von Dr G. Widmer
Arthur Collignon, Buchhandlung für kunst und Wissenschaft, G. m. b. H.
Berlin N W 7.

آراء وأنباء

حول « الاجابة » ايضاً

تصفحت كتاب « الاجابة » الذي رجا ناشره الاستاذ الأفغاني[1] من المطلعين عليه ، بيان مافيه ليصححه ، وإني ذاكر ما عثرت عليه

(١) ص ١٥ س ٥ . المختصر في الحديث ؛ هو في مصطلح الحديث ، كما في شرح البيقونية « قال الزركشي في مختصره : يدخل القلب والشذوذ والاضطراب في قسم الصحيح والحسن . »

(٢) ص ١٧ س ١٦ : قال ابو الفضل ابن حجر : » « الف (ابن) غير موجودة في الأصل ، انظر الشكل الأول ، واثبات الألف هنا مردود عند العلماء ، بلا فرق في العلمين بين ان يكونا اسمين او كنيتين او لقبين او مختلفين[2] .

(٣) ص١٨ س ٤ : « وغيرها » وغيرهما ، كما في الأصل انظر الشكل الأول

(٤) ص ١٨ س ٨ : « أما » هي « نا » وأصلها اخبرنا » » »

(٥) ص ١٨ س ١٩ : « قيل له » لا وجود للفظ « له » في الأصل انظر الشكل الأول من الحاشية التي أولها « نقلت الخ »

(٦) ص ٧١ س ١٥ : انها حبيبة رسول الله : انها « حبة رسول الله » طبقاً لصحيفة الأصل التي صورها في كتابه « ١٦ » وهي بهذا اللفظ في مسند احمد (ج ٦ ص ١٣٠ فكان ينبغي الإشارة إليها ، وإن جاءت في المستدرك بلفظ « حبيبة »

(٧) قوله : « وعروة وابن الزبير مقصود لا سهو فيه » فيه إيهام ان عروة غير اخي عبد الله بن الزبير ، وحافظا المشرق والمغرب ابن حجر وابن عبد البر يقولان في رواية هذين الأخوين عن خالتهما عائشة هكذا : « عبد الله وعروة ابنا الزبير » وابنا اختها عبد الله وعروة ابنا الزبير (ص ٣٦٠ وص ٣٦١ ج ٤) من الاستيعاب والاصابة ، فمتابعتهما في هذا خير من ذلك التركيب الغريب .

---

(١) مجلة المجمع العلمي العربي الغراء (م ١٦) ص ٣٣٥ . (٢) انظر المطالع النصرية ص ١١٧

(٨) ص ٧٣ س ١ : ابو حجاج المزي : هو ابو الحجاج (بالألف واللام) طبقاً لصحيفة الأصل أيضاً

(٩) قوله : « أعلى الدلاء من اسفلها غير صحيح » هو تصحيح لقوله : « من اسفله » فقط وهو صحيح ؛ وقوله « انظر شرح شرح المواهب للزرقاني » هو استدراك على نفسه وتصحيح لغلطه .

(١٠) قوله : ومراعاة النطق في لفظ (داوود) اولى ، وكل جائز ومثله طاووس ص ٩١ من الاجابه — ليس بسديد لدى أولي العلم والرسم ، ففي المطالع النصرية ما نصه « المختار عند اهل العلم ان يكتب داود وطاوس ورؤس وفؤس بواو واحدة استخفافاً لكثرة الاستعمال » اه ص ١٣٠ قلت وهو الذي يراه الناظر في المعاجم وكتب التراجم

(١١) وهم العلامة الاستاذ كرنكو فقال في دفع وهم الافغاني في الامام البزار : المتوفى سنة ٢٩٢ (انظر انساب السمعاني) : ففي كتاب الانساب لأبي سعيد او سعد السمعاني : مات بالرملة سنة ٢٩٢ (ص ٧٨ الوجه الأول من طبعة الزنكوغراف) وفي لسان الميزان في ترجمة البزار : توفي بالرملة سنة ٢٩٢ ، وقال ابن قانع اخبرني ابنه انه توفي بالرملة سنة ٩١ « ص ٢٣٧ و ص ٢٣٨ ج ١ » وفي حوادث سنة ٢٩٢ من كتاب الشذرات : وفيها الحافظ ابو بكر البزار ، احمد بن عمرو بن عبد الخالق البصري صاحب المسند الكبير في ربيع الأول بالرملة (اي توفي فيها)

(١٢) ص ١٩٣ س ٣ : من العمود الثاني « حفصة بن عمر » ؛ الصواب حفصة بنت عمر

(١٣) ص ٢١٠ س ٥ : من العمود الأول ، « الاربعة (الأئمة في الحديث) ص ١٦٥ » لا وجود لهذه العبارة في الصفحة المشار اليها .

(١٤) ص ٢١٨ س ١٥ : من العمود الأول ؛ « شرح جامع الجوامع » ؛ هو شرح جمع الجوامع للسبكي

(١٥) ص ٢٢٠ س ٢٠ : من العمود الأول ؛ « الصباح المنير » هو المصباح المنير

(١٦) أما ما سكت عنه من ملاحظات أستاذنا الجليل البيطار فهو اعتراف منه بصحته ، وهو مما لا يمكن أن يصحح اعتباطاً أو عفو الخاطر كما ذكر .

مسلم الغنيمي الميداني

بحث عن أثرين

عثرنا في دار الكتب الظاهرية على رسالة خطية كتب عليها [ديوان ابي العلاء المعري] وفيها قصائد على عدد حروف الهجاء كل قصيدة. منها عشرة أبيات وقد التزم في كل منها ان يكون أول حرف من البيت وآخره سواء فمن اطلع على مثل هذه الرسالة أو علم بموضعها فليتفضل بابلاغ المجمع العلمي العربي في دمشق وهذا مثال من أول القصائد

أمالك ياداء الحب دواء بلى عند بعض الناس منك شفاء
بكت رحمة للصب عين عدوه فما لحبيب القلب لا يرحم الصبا

ويبحث المجمع عن قصيدة تائية منسوبة الى عامر بن عامر البصري عارض بها تائية ابن الفارض ويقول انه نظمها في سيواس وتبلغ نحو خمسمائة بيت مرتبة على اثنى عشر نوراً كل نور يتضمن بحثاً من مطالب الصوفية الكبرى ومطلعها

تجلى لي المحبوب من كل وجهة فشاهدته في كل معنى وصورة

فالمجمع يهمه ان يعرف من هو عامر بن عامر البصري فمن عثر على شيء من هذه القصيدة او معرفة ناظمها فليتفضل باعلام المجمع ذلك

مجلة المجمع العلمي العربي

الجزء الثاني عشر　كانون الاول سنة ١٩٤١　ذو القعدة سنة ١٣٦٠

العناصر الاجنبية في الاسلام (١)

أدخل الاسلام في حظيرته أذكياء من أجيال الناس، وأهل الملل والأديان القديمة، تمثلوا تعاليمه وخدموه أجلّ خدمة. وكان للموالي أثر عظيم في نقل الشريعة وبثها، حتى جاء زمان وعدد الموالي القائمين على بث العلم أكثر من عدد العلماء الذين كانوا من أصول عربية لا تشوبها شائبة العجمة. ونحن في هذا الحديث نكتفي بالالماع الى ثلاثة عظماء جاء الأولان في القرن الثالث وهما ابراهيم الحربي وابو عبيد القاسم بن سلاّم وجاء الثالث في القرن السابع وهو ياقوت. كانت أم ابراهيم الحربي تغلبية «وأخواله نصارى أكثرهم» قالوا لم تخرج بغداد أعلم منه. قال صاحب تاريخ بغداد كان إماماً مصنفاً، عالماً بكل شيء، بارعاً في كل علم، عارفاً الفقه، بصيراً بالأحكام، حافظاً للحديث، مميزاً لعلله، قيماً بالأدب، جماعة للغة، وصنف كتباً كثيرة، وكان يقاس بأحمد بن حنبل في زهده وعلمه وورعه. جاءه رجل من اصحاب الخليفة المعتضد بعشرة آلاف درهم، يسأله عن أمر أمير المؤمنين تفرقة ذلك فرده، فانصرف الرسول، ثم عاد فقال: ان امير المؤمنين يسألك أن تفرقه في جيرانك، فقال عافاك الله؛ هذا مال لم نشغل أنفسنا بجمعه فلا نشغلها بتفرقته، قل لأمير المؤمنين: إن تركتنا والا تحوّلنا من جوارك!

حدث القاسم بن الحنبلي قال: اعتلّ ابراهيم الحربي علة حتى أشرف على الموت:

(١) من حديث للاستاذ محمد كرد علي ألقي في محطة بيروت (راديو الشرق).

فدخلت اليه يوماً فقال لي : يا ابا القاسم أنا في أمر عظيم مع ابنتي ، ثم قال لها : قومي اخرجي الى عمك ، فخرجت فألقت على وجهها خمارها ، فقال ابراهيم : هذا عمك كلمه . فقالت لي : ياعم نحن في أمر عظيم ، لا في الدنيا ولا في الآخرة ، الشهر والدهر مالنا طعام إلا كسر يابسة وملح ، وربما عدمنا الملح ، وبالأمس قد وجه اليه المعتضد مع بدر الف دينار فلم يأخذها ، ووجه اليه فلان وفلان فلم يأخذ منها شيئاً ، وهو عليل . فالتفت الحربي اليها وتبسم فقال لها : يا بنية إنما خفت الفقر ؟ قالت : نعم ، فقال لها : انظري الى تلك الزاوية فنظرت فاذا كتب . فقال : هناك اثنا عشر الف جزء لغة وغريب كتبتها بخطي ، اذا مت فوجهي في كل يوم بجزء تبيعيه بدرهم ، فمن كان عنده اثنا عشر الف درهم ليس هو فقير !

* * *

كان والد القاسم بن سلام مملوكاً رومياً لرجل من هراة من عمل خراسان فنشأ ابنه نشأة اسلامية عربية . وكأن أباه شعر بذكاء ابنه فقال يوماً برطانته العجمية لمعلم الكتاب الذي يتعلم فيه ابنه مع ابن مولاه : « علمي القاسم فانها كيسة » . ونبغ قاسم وعُرف في خراسان فضله ، فعهد اليه بعض الخاصة تأديب بنيهم ، على عادة العلية من الناس في تلك الأيام ، يدفعون الى العلماء اولادهم ليثقفوهم ويهذبوهم . ونزل طاهر بن الحسين شيخ قواد المأمون بمَرْو حين مضى الى خراسان ، فطلب رجلاً يحدثه ليلة ، فقيل له ما هاهنا إلا رجل مؤدب ، فأدخل عليه ابو عبيد القاسم بن سلاّم ؛ فوجده اعلم الناس بأيام الناس والنحو واللغة والفقه فقال له : من الظلم تركك أنت بهذا البلد . فدفع اليه الف دينار وقال له : انا متوجه الى خراسان الى حرب ، وليس أُحب استصحابك شفقةً عليك ، فأنفق هذا الى ان أعود اليك . ولما عاد حمله معه الى سُر مَنْ رأى ودخل بغداد .

وظلّ ابو عبيد على ولائه لآل طاهر بن الحسين ، وأعلى ابنه عبد الله بن طاهر منزلته ، وهو من اعاظم قواد الخليفة المأمون ايضاً . وكان ابو عبيد اذا الف كتاباً أهداه الى عبد الله بن طاهر ، فيحمل اليه مالاً خطيراً استحساناً لذلك ، ولما انجز

كتابه «الغريب المصنف» وكان صرف في تأليفه ثلاثين سنة عرضه على عبد الله بن طاهر فاستحسنه وقال: «إن عقلاً بعث صاحبه على عمل مثل هذا الكتاب لحقيق ألا يحوج الى طلب المعاش» فأجرى له عشرة آلاف درهم في كل شهر أي الف دينار. وعمل كتابه «غريب الحديث» للمأمون وما ندري بما كافأه عليه ، إن كان احد عماله يجري عليه في كل شهر الف دينار .

أدّب ابو عبيد في بغداد غلاماً في شارع بشر وبشير ، واتصل بعد بثابت بن نصر ابن مالك الخزاعي يؤدب ولده ، وأدب ايضاً ابناء هرثمة ، ولعله هرثمة بن اعين اعظم قواد المأمون وثقاته ، ولما ولي ثابت بن نصر الثغورَ ودامت ولايته ثماني عشرة سنة ، كان ابو عبيد يتولى قضاء طرسوس طول تلك المدة ، وحسن أثره فيها كما حسن أثر صديقه واليها .

وذكروا ان ابا عبيد لما كان في أسباب عبد الله بن طاهر بعث ابو دُلَف القاسم بن عيسى العجلي احد ائمة البلاغة يستهديه أبا عبيد شهرين ، فأنفذه اليه ، فأقام شهرين في الكرج ، وهي مدينة بين همذان واصفهان ، مصرها ابو دُلف وجعلها وطنه ، وقلده الرشيد اعمال الجبل فلم يزل عليها الى ان توفي سنة ٢٢٥ واليها قصده الشعراء وذكروه في اشعارهم — ولما اراد الانصراف وصله ابو دُلَف بثلاثين الف درهم فلم يقبلها . وقال: انا في جنبة رجل لم يحوجني الى صلة غيره - فلما عاد الى ابن طاهر وصله بثلاثين الف دينار فقال : أيها الأمير قد قبلتها ، وقد اغنيتني بمعروفك وبرك ؛ فرأيت ان اشتري بها سلاحاً وخيلاً وأوجه بها الى الثغر ليكون الثواب متوفراً على الأمير ، ففعل .

وهكذا عاش ابو عبيد بين أشراف القادة والسادة ، يعرف لهم مقامهم ويعرفون له قدره ، يتهادونه ويبرونه ، ويرغبون في الأخذ عنه ، ويعهدون اليه في تخريج ابنائهم. اما هو فلم تبطره الدنيا ، ولم تخلب لبه المظاهر ، واشتهر بورعه وعفته وكرم نفسه وجوده ، حتى قيل فيه لو كان ابو عبيد في بني اسرائيل لكان عجباً . قالوا إنه كان يقسم الليل اثلاثاً ، فيصلي ثلثه ، وينام ثلثه ، ويصنف ثلثه . وكان فاضلاً في دينه وعلمه ربانياً قانتاً متفنناً « في اصناف علوم الاسلام ، صحيح النقل لم يطعن عليه في شيء من امره ودينه » .

شهد اعلام الناس بعلمه ، ومنهم اسحق بن راهويه قال : يحب الله الحق ، ابو عبيد اعلم مني ومن احمد بن حنبل ، ومن محمد بن ادريس الشافعي . وقال بعضهم : إنه لم يكن عنده ذاك البيان ، إلا انه كان اذا وضع وضع . وقال ابراهيم بن الحربي : رأيت ثلاثة تعجز النساء ان تلد مثلهم . رأيت ابا عبيد ما أمثله إلا بجبل نُفخ فيه روح ، ورأيت بشر بن الحرث فما اشبهه إلا برجل عُجن من قرنه الى قدمه عقلاً ، ورأيت احمد بن حنبل فرأيت كأن الله قد جمع له علوم الأولين من كل صنف ، يقول ما يشاء ويمسك ما يشاء .

وسئل يحيي بن معين صاحب الجرح والتعديل — وهو الذي قال فيه احمد بن حنبل كل حديث لا يعرفه يحيي بن معين فليس هو بحديث عن الكتابة عن ابي عبيد والسماع عنه ، فتبسم وقال : مثلي يُسأل عن ابي عبيد ؟ ابو عبيد يسأل عن الناس . لقد كنت عند الأصمعي يوماً اذ اقبل ابو عبيد . فنفذ اليه بصره حتى اقترب منه ، فقال : أترون هذا المقبلَ ؟ قالوا : نعم . قال : لن تضيع الدنيا — او لن يضيع الناس ما حيي هذا المقبل . وقال عبد الله بن طاهر . كان الناس اربعة : ابن عباس في زمانه والشعبي في زمانه ، والقاسم بن معن في زمانه ، وابو عبيد القاسم بن سلاّم في زمانه. وذكره الجاحظ في المعلمين وقال : كان مؤدباً لم يكتب الناس اصح من كتبه ، ولا اكثر فائدة .

غلب على ابي عبيد جمع المتفرق في الكتب وتفسيره ، وذكر الأسانيد ، وصنف المسند على حدته ، واحاديث كل رجل من الصحابه والتابعين على حدته ، واجاد تصنيفه فرغب فيه اهل الحديث والفقه واللغة ، لاجتماع ما يحتاجون اليه فيه . قالوا ان الناس رووا عن ابي عبيد بضعة وعشرين كتاباً في القرآن والفقه وغريب الحديث والغريب المصنف والأمثال ، ومعاني الشعر ، وكتابته كتابة ارقى المؤلفين في القرن الثاني والثالث . والغريب المصنف زعموا انه اجلُّ كتبه ، وقالوا ان كتابه « الأموال » وهو المطبوع الذي نجا من التلف من جميع كتبه ، هو احسن ماصنف

في الفقه واجوده . وكتاب الاموال صورة ناطقة بعلمه الواسع ، وتحقيقه وتدقيقه ، يرجح من الاقوال ماهو أولى بالترجيح ، ويبين عن رأيه في أحكام الأموال وصنوفها ، آخذاً بالأقوال الصحيحة المأثورة عن صاحب الشرع ، ومشيراً الى عمل الصحابة والتابعين من بعده ، والى ما استخرجه الحكام والملوك من هذه الأموال بعد ذلك ، وفي كل أولئك يتجلى للقارئ نور العقل ، وبعد النظر ووفرة العلم .

* * *

أما الرومي الثاني ياقوت فقد نفع التاريخ والجغرافية والادب بما نقل وحرر وبوب وصنف ، وكان مولد ياقوت عبد الله شهاب الدين في بلاد الروم سنة ٥٧٤ وأخذه المسلمون اسيراً وهو طفل واشتراه في بغداد تاجر يعرف بعسكر الحموي فنسب اليه فقيل له ياقوت الحموي كما قيل له الرومي وجعله سيده في الكتاب يتعلم ما يستفيد هو منه في ضبط متاجره وقرأ شيئاً من النحو واللغة وشغله مولاه بالأسفار وفي سنة ٥٩٦ أعتقه فاشتغل بالنسخ بالاجرة وحصل بالمطالعة فوائد . ودعاه مولاه القديم فأعطاه شيئاً وسفره الى كيش وعمان ولما عاد من سفرته كان سيده قد مات فأعطى أولاده وزوجته ما أرضاهم به وبقيت بيده بقية جعلها رأس ماله وسافر بها وجعل بعض تجارته كتباً ، وسهل عليه ان يطوف الشام والعراق والجزيرة وخراسان واستوطن مرو ودخل خوارزم وجاء البلاد ما بين جيحون والنيل . وشهد غارات التتر في خراسان ايام كونه فيها ووصف أعمالهم في بلاد الاسلام وفقد ثروته غير مرة فعد من المفلوكين .

قيل انه كان طالع شيئاً من كتب الخوارج فاشتبك في ذهنه منها طرف قوي ، وتوجه الى دمشق في سنة ٦١٣ وقعد في بعض أسواقها وناظر بعض من يتعصب لعلي وجرى بينهما كلام أدى الى ذكره علياً بما لا يسوغ فثار الناس عليه ثورة كادوا يقتلونه فسلم منهم ، وخرج من دمشق منهزماً الى حلب وأقام فيها مدة عند وزيرها القفطي فأهداه كتابه معجم البلدان وفي حلب مات سنة ٦٢٦

ويدرك المرء بعد هذه الالمامة اليسيرة بسيرة ياقوت كيف ساعدته الاقدار

فدرس الكتب واستفاد من نسخها وزاده تنقله في البلاد توسعاً في المعارف فاطلع على مالم يطلع عليه غير قلائل من المؤلفين فكان ذلك مما ضاعف الامتاع بكتبه فكتب لها البقاء لحاجة الناس اليها ، ولأن صاحبها كتبها عن درس ومشاهدة وخبرة ، ويمتاز على غيره بأنه عرف جزءاً عظيماً من بلاد الاسلام معرفة اكيدة وأدرك الرجال والتقى شيوخ عصره .

كان ياقوت رقيق العاطفة مرهف الحس دؤوباً على العمل يحمل نفساً زكية دراكة . كان صريحاً في قوله لا يدالس ولا يصانع يقول ما يعلم وان اغضب وارضى ، فيه صدع العلماء بالحق وصدق الصادقين من الرواة . قال عن نفسه اني كنت قدمت نيسابور في سنة ٦١٣ وهي الشاذياخ فاستطبتها وصادفت بها من الدهر غفلة خرج بها عن عادته واشتريت بها جارية تركية لا ارى الله تعالى خلق احسن منها خلقاً وخلقاً ، وصادفت من نفسي محلاً كريماً ، ثم أبطرتني النعمة فاحتججت بضيق اليد فبعتها فامتنع علي القرار ، وجانبت المأكول والمشروب حتى أشرفت على البوار ، فأشار عليّ بعض النصحاء باسترجاعها فعمدت لذلك واجتهدت بكل ما امكن فلم يكن الى ذلك سبيل لأن الذي اشتراها كان مولاً ، وصادفت من قلبه أضعاف ما صادفت مني ، وكان لما ميل الي يضاعف ميلي اليها فخاطبت مولاها في ردها عليّ بما أوجبت به على نفسها عقوبة فقال في ذلك قصيدة يصف الحال تقرؤها في مادة شاذياخ من معجم البلدان

ثلاثة كتب طبعت لياقوت اشتهر بها وخلد ذكره (معجم البلدان) و (المشترك وضعاً والمختلف صقعاً) و « ارشاد الاريب الى معرفة الاديب » . اوطبقات الادباء ، وكلها مما أحياه المستعربون من الغربيين لهذا الرومي المستعرب العظيم .

رتب المؤلف معجم البلدان على حروف المعجم وذكر فيه اسماء البلدان والجبال والاودية والقيعان والقرى والمحال والأوطان والبحار والأنهار والغدران والاصنام والاوثان معتمداً في تأليفه على من كتب قبله في تقويم البلدان من العرب وعلى اللغويين ودواوين العرب والمحدثين وتواريخ أهل الادب والتقط من افواه الرواة وتفاريق

الكتب وما شاهد في أسفاره وحققه بنفسه من اسماء البلدان ما عظمت به فائدته .

كان ياقوت محتاطاً فيما ينقله عن غيره قال مثلاً في احدى المدن : ولها قصة بعيدة من الصحة لمفارقتها العادة وانا بريء من عهدتها انما اكتب ما وجدته في الكتب المشهورة التي دونها العقلاء . وقال فيما نقل عن الصين « وهذا شيء من أخبار الصين الاقصى ذكرته كما وجدته لا أضمن صحته ، فان كان صحيحاً فقد ظفرت بالغرض ، وان كان كذباً فتعرف ما تقوله الناس فان هذه البلاد شاسعة مارأينا من مضى اليها فأوغل فيها وانما يقصد التجار اطرافها » وكأنه بما ينقل من الاوهام والخرافات يحاول ان لا يخلي كتابه من كل أطروفة ولو كانت سخيفة ، ليستفيد منه الجاهل ويتفكه به العالم ، ويزيد به المتعلم الاديب درساً ، وقد توسع خاصة في الكلام على المدن التي أنشأتها العرب .

حرص في معجم البلدان على الالمام باخبار فتوح البلاد وعمرانها واموالها ومرافقها وعادياتها واخلاق اهلها ومن خرج منها من المشاهير وما وقع فيها من الوقائع التاريخية وما قيل فيها من الاشعار البديعة ، فأمتع قارئه بكل مفيد حسب ما وصل اليه علمه ، ووقع عليه في كتاب او استقراه بنفسه ونقله عن الثقات . وهذا جماع ما في معجمه مما أدركه في عصره او اقتبسه من الاصول المتقنة في خزائن مرو قال : « كانت سهلة التناول لا يفارق منزلي منها مائتا مجلد واكثر ، وبغير رهن ، تكون قيمتها مائتي دينار فكنت ارتع فيها واقتبس من فوائدها وانساني حبها كل بلد والهاني عن الاهل والولد واكثر فوائد هذا الكتاب (معجم البلدان) وغيره مما جمعته فهو من تلك الخزائن ، وما كان له ان يفارق مرو لولا ورود التتر الى تلك البلاد .

ومن معجم البلدان فقط يتألف ديوان لطيف من المقاطيع والقصائد التي استشهد بها وكتاب في عجائب البلدان والخليقة واخلاق الناس وعاداتهم ودرجة الرفاهية والثروة في عصره او قبل عصره . ويفيض في كلامه على الحواضر يذكر من خرج منها من الاعيان ولا سيما رجال الحديث وقد تظفر فيه بتراجم مطولة لرجال

أغفل اكثر مصنفي الطبقات ذكرهم . وهو كتاب خاص ببلاد الاسلام والشرق كتب بكثير من الاحتياط والتحفظ اذا وقع التنظير بين ما نقله وما نقله المؤلفون في عصره وبعد عصره . فقد قال في الروم مثلاً « وفي اخبار بلاد الروم اسماء عجزت عن تحقيقها وضبطها ، فليعذر الناظر في كتابي هذا ، ومن كان عنده اهلية ومعرفة وقتل شيئاً منها علماً ، فقد أذنت له في اصلاحه مأجوراً » وهذا ديدن العلماء في القديم والحديث يدعون العارفين الى تصحيح هفواتهم او الى تقدم للوصول الى الحقائق .

أما كتاب « المشترك وضعاً والمفترق صقعاً » فقد انتزعه بنفسه من معجم البلدان واقتصر فيه على ما اتفق من اسماء البقاع لفظاً وخطاً ووافق شكلاً ونقطاً وافترق مكاناً وعملاً ، توفيراً لوقت المطالع الذي يحب السرعة في تلقف الفوائد ، وبعداً به عما ذكره في معجمه الكبير من الاشتقاق والشواهد والنكت والفوائد والاخبار والاشعار . ودعا ياقوت على من يختصر بعده كتابه معجم البلدان وما نجا مع هذا من أناس حاولوا اختصاره ، ومنهم صفي الدين عبد المؤمن اختصره وسماه « مراصد الاطلاع » .

بقي ان نطلق القول في كتاب ياقوت الثالث وهو « ارشاد الاريب الى معرفة الاديب » وفيه جمع ما وقع اليه من أخبار النحويين واللغويين والنسابين والقراء المشهورين والاخباريين والمؤرخين والوراقين المعروفين والكتاب المشهورين واصحاب الرسائل المدونة وارباب الخطوط المنسوبة وكل من صنف في الادب تصنيفاً ، مثبتاً وفياتهم ومواليدهم وتصانيفهم واخبارهم وأنسابهم وأشعارهم . قال فأما من لقيته أو لقيت من لقيه فأورد لك من أخباره وحقائق أموره مالا اترك لك بعده تشوقاً الى شيء من خبره وانه جمع للبصريين والكوفيين والبغداديين والخراسانيين والحجازيين واليمنيين والمصريين والشاميين والمغربيين وغيرهم على اختلاف البلدان وذلك على حروف المعجم أيضاً . وقال في الاعتذار عن نفسه ولمن يقول له ان الاشتغال بأمر الدين أهم ، ان هذه اخبار قوم عنهم أخذ القرآن والحديث وبصناعتهم تنال الامارة ويستقيم

أمر السلطان والوزارة وبعلمهم يتم الاسلام ، وباستنباطهم يعرف الحلال من الحرام ، وان كتابه هذا هو علم الملوك والوزراء والكبراء يجعلونه ربيعاً لقلوبهم ونزهة لنفوسهم .

قال وربما قال بعضهم انه (معجم الادباء) تصنيف رومي مملوك وما عسى ان يأتي به ؟ ان القوم لا ينظرون ما قيل انما يسألون عمن قال . ولو عاش ياقوت ورأى اليوم بعد ان أتى على كتابه سبعة قرون كيف اشتهر كتاباه معجم البلدان ومعجم الادباء لا يستغني عنهما باحث ولا أديب وأثبتت الايام انهما من الكتب التي حوت كل طريف مفيد تزيد على القرون حسناً لاغتبط وأدرك أن ما كان يقدر ان الناس يقولونه في كتبه قالوه في امثاله في كل عصر ثم ذهب لغط القوالين والطاعنين وثبت علم العالمين والمتأدبين الباحثين .

محمد كرد علي

نظرات لغوية

١ — تصدير

وقفتُ على ماجادت به يراعة الاستاذ احمد رضا وهو مقالة عنوانها (أسماء منتخبة لمسميات حديثة) (مجلة المجمع العلمي العربي ١٦ : ١٧) فأحببت ان أقول كلمتي في هذا الموضوع ·

٢ — القِنْع والقِناع

ذكر حضرته هذين اللفظين وخصهما بما يقابله عند المعاصرين : « الطبق المتخذ للفاكهة يكون على موائد الطعام ، واكثر ما يكون من عُسب النخل ، او من قصب او من خيزران » · وقد ذكر حديثاً نبوياً هو هذا : « وفي النهاية أنه صلى الله عليه وسلم أُتي بقناع جرد (كذا) الجرد (كذا) صغار القثاء · · · » والذي اعرفه في عبارة الحديث : أُتي بقناع جرو[1] · الجرو [بواو في كلا اللفظين] : صغار القثاء · واما الجرد هنا فليس لهُ هذا المعنى ·

والذي أعلمه أيضاً ان القناع والقنع من الكلام المعرب من قديم الزمان ، بل مُنذ عهد الجاهلية ، وهما من اليونانية Kaneon, Eou بهذا المعنى عينه · وقد اشتقوها من قَنا Kanna ومعناها الأَسل ، والخيزُران ، والقصب ، والعسب (جمع عسيب) لأنهم كانوا يتخذون تلك القنع من هذه الموادّ المذكورة · اما في العربية فليس ما يوجه هذا الوَضع · زد على ذلك ان لا مقابل للقناع بهذا المعنى في الإرَمية ولا في العبرية ولا في سائر اللغات السامية ، بخلاف القناع بمعنى ما تتقنع به المرأة فانها تُرى بهذا المعنى في الارمية والعبرية · وكان اليونانيون الأقدمون يَضعون في القنع الاثمار والخبز والشعير التي يقدمونها في هياكلهم الوثنية (كل ذلك عن معجمنا المطوّل المسمى المساعد) وقد استحسنا ماذهب اليه المجمع بأن يُخصص

(١) هذا الذي وجدناه في لسان العرب والنهاية وتاج العروس ولم نجد (الجرد) بالدال في الآخر بهذا المعنى ·

القنع بالكسر لهذا الضرب من الطبق ويبقي القناع لما تغطي به المرأة رأسها (١٦ : ١٧ حاشية)

٣ — السفن

السفن بالتحريك اطلقه حضرته على مايسميه عوام سورية : ورق البرداخ ، وورق الزجاج . واما اهل العراق فيسمونه : كاغد السنباذج وهو كقول الافرنج Papier à l'Émeri . واما السفن[1] فقد اشتهرت عند الاقدمين بمعنى« جلد سمكة خشنة الجلد . ولا أرى في صدري حاجة الى وضع هذه اللفظة لما يعرفه العرب والعراقيون بكاغد السنباذج وذكر هذه الكلمة الاخيرة القاموس وتاج العروس والاوقيانوس وغيرها من كتب اللغة .

٤ — الحَسَك

لا أوافق الاستاذ احمد رضا على تخصيص الحسك بالسلك الشائك ، فيقع حينئذ في التاريخ ، و كتب اللغة ، خبط وخلط . فالحسك الذي وصفه الاستاذ يقابل الفرنسية Chausse-trape واما السلك الشائك فيقابله فيها Fil-barbelé والواحد غير الآخر .

٥ — الجُناح[2]

لما وصف الاستاذ اللغوي الجناح ، وصفه وصفاً صحيحاً ، ولما أراد تخصيصه بما اصطلح عليه المصريون : أدباؤهم ، ولغويوهم ، وعلماؤهم ، بالشقة وبالفرنسية Appartement لم يوفق؟ فان الجناح يقابله عند الافرنج Aile d'un édifice واما

(١) راجع كتاب الذخيرة في علم الطب المنسوب ظلماً ووهماً الى ثابت بن قرة المطبوع في المطبعة الاميرية بالقاهرة سنة ١٩٢٨ وقد جاءت في ص ١١ بصورة السفن (كذا) والتصحيح منا .

(٢) فرق الأستاذ الامام الشيخ محمد عبده بين الروشن والجناح في شرح نهج البلاغة المطبوع في بيروت عند شرحه لهذه العبارة : «ويل لسكككم العامرة ، والدور المزخرفة ، التي لها أجنحة كأجنحة النسور» إذ قال : أجنحة الدور رواشنها . وقيل : أن الجناح والروشن يشتركان في إخراج الخشب من حائط الدار إلى الطريق ، حيث لا يتصل إلى جدار آخر يقابله ، وإلا فهو (الساباط) ، ويختلفان في أن الجناح توضع به أعمدة في الطريق بخلاف الروشن» اهـ كلام الشيخ .

قول الاستاذ ان الجناح « ورد في عامة بلاد العرب » .. (المجلة ١٦:٢٠) ، فغير موافق لما يجري في العراق .

٦ — الحيفة والطريدة

ماذكره الاستاذ نقلاً عن اللسان في مادة (ط ر د) : ان الطريدة : السفن وهي قصبة تجوّف ثم يُبفقر منها مواضع » هو من خطأ الطبع . والصواب مافي التاج ، أي : « ثم يُنقر » اي يُحفر . وانا لا أرى فائدة في إبدال الخراطة بالطريدة ، فالخراطة مولدة وقديمة . وأصلها يؤيد معناها ويُوجهه توجيهًا حسنًا . والبرّاءة : حسنة في مكان البرّاية واشتقاقها صحيح . وأما ما يسميه المصريون (المطوة) واصطلح عليه المجمع اللغوي المصري بالمبراة فالمبراة حسنة ، لكن احسن منها المدية ، بتثليث الميم ، على مافي كتب اللغة والمدية في أصل وضعها للشفرة وما (المطوة) إلا مدية في بيت تطوى فيه .

٧ — الدسكرة

هيهات ان توافق الدسكرة للطزر اي الثلاّ . فالدسكرة يقابلها عند المصريين العزبة . وقد صرح بهذه التسمية غير واحدٍ منهم . وأما الطزر فمن الكلام الذي لا ينال لمناعته وفصاحته ، واذا كان يثقل على لسان بعضهم فهو لا يثقل على من يستعمل أثقل منها : كخلع ، وخلق ، وطرز ، والطراز ، الى مالا يحصى عدهُ والدسكرة بالفرنسية Ferme وهي العزبة عند المصريين والطزر من الفارسية تزر بتاء مثناة مفتوحة في الأول ، يليها زاي مفتوحة ، فراء ، وهي الكلمة التي تذكرها جميع معاجم الفرس كبرهان قاطع ، وبهار عجم ، وفرهنك شعوري ، وفلرس ، ومنتهى الارب ، في لغات العرب وهو معجم كبير من العربية الى الفارسية وقد وقع في أربعة مجلدات ضخمة .

واما قول الاستاذ اللغوي (ص ٢٢) : « وصاحب المخصص يقول : الطزر البيت الصيفي بلغة بعضهم » فهو عندنا مصحف عن الطزر ، بتقديم الزاي ، لوجود هذه

الكلمة (اي تزر) في جميع المعاجم الفارسية بمعنى البيت الصيفي ، بخلاف الطرز (بتقديم الراء على الزاي) ، فلا وجود لها البتة في كتاب قديم ، وقد ذكر الطِرْز الزمخشري ، وهو من هو في اللغة — في مقدمة كتاب الادب ص ٢٤ س ١٨ اذ يقول : « طَرَز : خانهٔ دراز » اي بيت طويل ٠

فقول الاستاذ : « والعجب كيف صار المجمع المصري الى اختيار الطرز بثقلها ، وما صحبها من التهجان (كذا) كاد يكون عامًا فيما رأيت ، ولم يختر الطرْز وهو يؤدي نفس المعنى المراد ، وموافق للأصل الفارسي » — فنحن نسأل حضرته في أي كتاب لغة فارسية وجد الطرْز بالكسر بمعنى البيت الصيفي ٠ نعم ٠ قد ذكره بعض العرب لكنهُ مصحف الطزَر (او تزَر) الفارسية ليس إلاَّ ٠ وأما الطرْز براء فزاي فيعني في الفارسية الحسن والزينة والجمال ٠

فالنتيجة ان ما ذكرهُ مجمع فؤاد الأول للغة العربية هو عين الصواب وما سواه فخطأ لا يحتمل التفنيد ، ولا الجواب ٠

٨ — طيلة

ما قاله الأستاذ المغربي على سوء استعمال (الطيلة) في غير مكانها هو حاقُّ الصواب ٠

٩ — القصف بمعنى اطلاق القنابر على المدن

استحسن الاستاذ المغربي القصف لمعنى اطلاق القنابر على ديار الاعداء ٠ ونحن لا نوافقه ، ولا يوافقه كل لغوي صميم ؛ عارف بأسرار لغته ٠ فالقصف في اللغة لم يرد بالمعنى الذي يشيرون اليه ؛ والتخريج الذي جاء به حضرة أستاذنا ؛ لا يرضى به اللغويون البصراء في لسان الضاد ٠ والأحسن في هذا المعنى ان يستعمل (الصعق) لأنهم قالوا : « صعقتهم السماء كمنع صاعقةً ، وهو مصدر على فاعلة كالراغية ، والثاغية ، والصاهلة للابل والشاء والخيل : اصابتهم بها ٠ وفي حديث خزيمة ، وذكر السحاب : فاذا زجر رَعدَت ، واذا رَعدَتْ صعقتْ أي أصابت بصاعقةٍ » اهـ (التاج) ٠

فاذا أطلق الأعداء من طياراتهم تلك القنابر ، فكأن السماء نفسها ترسلها فتصعق الناس وديارهم . فهذه الكلمة هي التي تستعمل في هذا المعنى دون غيرها .

وقولهم : القنابل فكلام غير صحيح . فالقنابل في اللغة جمع قنبل وقنبلة كجعفر وزلزلة ، وتعني كل منها : الطائفة من الناس . ومن الخيل ما بين الخمسين فصاعداً . وقيل : مابين الثلاثين الى الاربعين . فأين هذا من القنبرة التي استعملها المولدون لهذه الكرة المجوفة المحشوة باروداً ومفرقعات مختلفة . قال المرادي (المتوفى سنة ١٢٠٦ للهجرة) في سلك الدرر في ١ : ٥٥ : « ثم بعد أيام ، حاصر القلعة الدمشقية ، ونصب لها الأطواب (أي المدافع) من المرج الأخضر وضربها بالقنابر » . قال الناشر في الحاشية : « قنابر ، أصله خمبرة ، بضم الخاء المعجمة ، وسكون الميم ، وفتح الباء الموحدة والراء . كلمة فارسية . فقمبر محرف والمؤلف سمعه في الشام محرفاً على محرف بالنون ، وجمعه حتى أدخل عليه حرف التعريف . وقال القنابر ، وألحقها على الأطواب تعريباً . . . » اهـ .

وفي ٢ : ١٨٤ منه : « واستعد لذلك استعداداً عظيماً في البحر والبرّ وأنزل بالمراكب (كذا) والجبخانة والمدافع والقنابر » . . . ورمى عليها بالمدافع والمكاحل والقنابر » اهـ . وفي سنة ١٢١٣ للهجرة (اي ١٧٩٨ للميلاد) كتب السيد خليل البكري ، نقيب أشراف الديار المصرية رسالة طويلة : ذكر فيها الأهوان (أي مدافع الهاون) والقنابر (راجع كتاب الانيس المفيد للطالب المستفيد ٣:٣٥٧) فمن هذا نتحقق ان رواية الأقدمين من السلف ، ممن عرفوا القنبرة أو سمعوا بها لأول مرة ، كانت بالراي (أي القنبرة) ، لا باللام اي القنبلة .

وجاء في مقالة الاستاذ ص ٢٦ : « جلجة الرعد » ونظنها جلجلة الرعد ، وتلك من خطإ الطبع .

وقال في تلك الصفحة : الديبلوماسيون . ولو قال : الدبلوماسيون بحذف الياء الأولى لكان أقرب الى الصورة العربية . ثم لو استغنى عن الكلمة التي نطق بها

بقوله السياسيون ، لكان أحسن ؛ ففي مثل هذا المقام لا يُطلب من الكُتّاب الدقة في النقل ، بل ما يقارب المعنى .

١٠ — المحارب والحيادي والمسالم

فهمنا المحارب والمسالم لكن لم نفهم الحيادي (ص ٢٦ و ٢٧) ولماذا لم يقل المحايد . افيقول مجانب من جانبه أم يقول : مجانبي وجنابي ؟ فالذين قالوا حيادي في المحايد ، هُم قوم من زعانف الكتاب وجهلتهم . والعراقيون لا يقولون إلا محايد ومحايدين .

١١ — المحارب واللامحارب او العُدى (بالضم) والعِدى (بالكسر)

يعرض علينا الاستاذ المغربي ان نستعمل العدى والعدى في مكان المحاربين واللامحاربين ونحن لا نوافقه لأسباب ، أولها : أن الفرق بين الكلمتين ضبط الكلمتين وأغلب الجرائد والصحف والمطبوعات تُهملُ التقييد . — الثاني : ان المعنيين اللذين أشار اليهما ، منقولان عن لغويين حديثين معاصرين كثيري الاغلاط والأوهام ، وقد قلنا مراراً انه لا يحتج بكلام أحد اللغويين المعاصرين او المحدثين ، إلا اذا أسند كلامهُ الى نقل الاقدمين ، او اتفق كلامهم مع كلام الصرفيين والنحاة ، واللغويين القدامى . — الثالث : ان هذا التفريق بهذا الشكل دقيق ، والناس في حاجة الى جلاء اللفظ والمعنى من غير الالتجاء الى كتب اللغة والمعاني والبيان . — الرابع : ان قولنا محارب وغير محارب لا غبار عليه . وكذلك القول محارب ولا محارب . فالتعبير (بغير) من كلام الأقدمين ، والتعبير (بلا) من كلام فصحاء المولدين وقد رضي به المجمع .

فاستعمال (غير) في غير محارب لا يشبههُ تعبير أجلى منه ، ألا ترى أنه ورد في فاتحة الكتاب : ((اهدنا الصراط المستقيم ، صراط الذين أنعمتَ عليهم ((غير)) المغضوب عليهم)) وكان يستطيع أن يقول مثلاً الذين رضيتَ عنهم . لكنْ في قوله : ((غير المغضوب عليهم)) حلاوة وقوة وأسر غير موجودة فيما ورد من مرادفاتها .

وفي سورة النساء : « أفلا يتدبرون القرآن ولو كان من عند غير الله لوجدوا فيه اختلافًا » . فاستعمال « غير » في مثل هذين الحرفين أكثر من أن يحصى في آيات عديدة .

وأما ادخال لا (على) كلمة ثانية فقد ورد في كلام الأقدمين منا . قال عامر بن الظرب العدواني من خطباء الجاهلية : « اني أرى أموراً شتىً وحتىً . قيل له : وما حتىً ؟ قال : حتى يرجع الميتُ حياً ، ويعود (اللاشيْ) شيئًا » اهـ . وقال الفلاسفة والمناطقة : اللاأدْرية ، واللادوام ، واللابقاء ، واللانهاية ، واللاضرورية ، واللادائمة ، الى نظائرها وهي كثيرة في مصطلحاتهم . وكان يمكنهم ان يستغنوا عنها ، ويضعوا كلمة واحدة تدل على مبتغياتهم ، لكنهم لم يفعلوا ، لأنهم وجدوا في هذه الاوضاع معاني لا تؤديها الالفاظ الأخر المرادفة لها .

ثم لا نفهم لماذا قال الاستاذ En état de guerre ليقابل بها Non belligérant وكان يحسن به ان يقول في الاول Belligérant

١٢ — حرب الدولة الفلانية لا مع الدولة الفلانية

ونرى كثيرين من أرباب الصحف والمجلات ، بل من فريق من المؤلفين يقولون « الالمان يحاربون الآن « مع » الروس » وهذا خلاف ما يريدون . والصواب ان يقال : الالمان يحاربون الروس ، لكنهم يحاربونهم « مع » الايطاليين . وقد انتقل هذا الخطأ الى فصحاء الكتاب حتى قال استاذنا رئيس المجمع : « يذكر اضطرابها بين الحجاز ونجد وأطراف الشام وحروبها مع طيْ » (ص ٤٦) والصواب وحروبها لطيْ .

١٣ — الكهربا لا الكهرباء والكهربي لا الكهربائي

ولا أزال أرى في مجلة المجمع تكرر الغلط الكهرباء بالمد والكهربائي ، بهمز قبل الياء . وقد قرّر مجمع فؤاد الأول للغة العربية ان صحيح الاستعمال هو : الكهربا بالقصر والكهربي في النسبة وراجع تاج العروس في كهرب .

١٤ – البدء بالتاريخ

وقال الاستاذ السيد محمد سعيد العرفي : « ارجو ان تلفتوا نظر الحكومة لاستعمال الاعداد حسب القواعد العربية بالبدء من اليمين والعدول عن التراكيب التركية ...» (ص ٩٦) . ولكن العرب أجازت الاستعمالين . قال احمد فارس الشدياق في غنية الطالب ، ومنية الراغب ص ١٠٧ من الطبعة الاولى : « أما المعطوف في العدد ، فجائز ان يكون القليل أو الكثير . تقول : عندي مائة وخمسون نعجة ، او خمسون ومائة نعجة . وفي الحديث : « فذلك خمسون ومائة في اللسان ، والف وخمسمائة في الميزان » فجمع بينهما . أما في التاريخ ، فالاشهر تقديم القليل على الكثير نحو : سنة ست وثمانين ومائتين والف . وليس بواجب » انتهى .

١٥ – فرنسي لا فرنساوي

قرأت مقالة لأحد أعضاء المجمع العلمي العربي ، يذكر فيها اللغة الفرنسوية (ص ١٧٥) والنصّ الفرنسوي (ص ١٧٨) والأداتين الفرنسويتين واستعمالاتها الفرنسوية (ص ١٧٩ أ) والأداة الفرنسوية وبالفرنسوية (ص ١٨٠) وفي الفرنسوية والانشاء الفرنسوي (ص ١٨١) فتعجبت من هذا الاستعمال المغلوط فيه ، والكاتب من أعضاء المجمع أفلم يقرأ في كتاب سيبويه ٢ : ٧٨ من طبعة القاهرة : « هذا باب الاضافة الى كل اسم كان آخره الفاً وكان على خمسة احرف . تقول في حُبارَى : حُباريّ ، وفي جُمادَى : جُماديّ ، وفي قرقرى : قرقريّ . وكذلك كل اسم كان آخره الفاً ، وكان على خمسة احرف » إذن يقال في النسبة الى فرنسا : فرنسي والى مصطفى : مصطفيّ ، والى مرتضى مرتضيّ . واما النسبة الى مثل النمسا ، فيقال فيها نمسيّ ونمسوي ونمساويّ ، كما يقال في النسبة الى حُبلى : حُبلوي وحُبلاوي وحُبليّ (كتاب سيبويه ٢ : ٧٧) وأفصحهن حُبليّ ونمسيّ .

واما اذا كتبتَ فرنسة بهاء في الآخر ، وهو احسن من كتابتها بالألف ، جرياً على ما سار عليه العرب في كتابة اسماء المدن الاندلسية ، إذ لم يكتبوا

اسم مدينة واحدة منها بألف في الآخر ، بل كتبوها كلها بالهاء : كغرناطة ، وبلنسية ، وطليطلة ، وسرقسطة ، وطرطوشة ، ومرشانة ، وباجة ، ولشبونة ، وقطلونية ، الى ما لا يحصى عدهُ — فالنسبة اليها والى أمثالها بالياء . فيقال : فرنسي كما يقال : غرناطي ، وبلنسي ، وطليطلي ، ومرقسطي ، وطرطوشي ومرشاني ؛ وباجي ، ولشبوني ، وقطلوني الى نظائرها ولا يقال خلاف ذلك . بخلاف كتاب هذا العصر فانهم يفسدون الألفاظ . قلنا : وبهذا القدر كفاية لما ورد في الاجزاء الستة الاولى ، من غير الامعان في البحث عما ورد فيها من أوهام الطبع وغير الطبع . والله الواقي .

الأب أنستاس ماري الكرملي

—————

اولية تدوين المعاجم

وتاريخ كتاب العين المروي

عن الخليل بن احمد

(الخاتمة)

٤ — صورة اتمام الكتاب بعد تأسيس بنائه : —

رأينا مع دليل من التاريخ واضح ان الخليل هو الذي رتب ابواب كتاب العين ووضع نهجه وصور بناءه ، ولم نر احداً من اهل العلم ينفي عمله هذا بدليل الا ان يكون تعقباً من ترتيب الحروف على مخارجها ، ذهب على بعضهم حاجة الخليل الى جعلها مخالفة لما روى عنه بعض تلامذته ، وذلك قياماً عند ضرورة التأليف الواضح والنهج المستقيم . وتنتهي معرفتنا باليقين للكتاب الى هذا الحد الذي رسمناه ، ويتسرب الشك في نفسنا بعد ذلك حيث لا نرى نصوصاً تاريخية قويمة تذكر بالدليل الثابت أثراً للخليل في الكتاب ابعد مما ذكرنا .

ولكن للريب الذي ينبعث حداً ، فلئن فقدنا أقوال التاريخ الثابتة فلن نعدم دليل العقل والمنطق ، ولن يعوزنا الا عرضه على ما نعرف لنستدل على صحته . ولنقرر قبل أي شيء آخر مبادئ لا نخطئها : أولها ان علم الخليل في اللغة والصرف من الثقة بحيث لا يتسرب اليه الاضطراب ، فما يعرض من خلل لغوي أو صرفي في الكتاب فالخليل براء منه الا ما ندر . ومبدؤنا الثاني ان الليث ، على ما عرف عنه من تقى وورع ، صادق فيما ينسب الى صاحبه الا اذا أخل بالمبدأ الأول ، حتى اذا لم يخل به أصبح كلامه حجة . فاذا قرنا هذين النظرين قسنا عليهما ؛ فنظرنا في الخطأ الذي ورد في كتاب العين ، مما ذكره العلماء ، وحاولنا ان

نعتبر صدق الليث به ، فما هي دعواه ، وهل نستطيع ان نوفق بينها وبين الاضطراب الواقع في الكتاب ؟

ينسب الليث الكتاب الى أبي عبد الرحمن الخليل بن احمد ، ويريد بذلك انه مبدعه وواضع نهجه وشيئاً آخر نراه فيما يلي ، ولا يقصد بذلك ان الخليل الف الكتاب برمته . ودليلنا على ذلك ان الليث نفسه يقول : كان الخليل « يملي علي ما يحفظ ، وما شك فيه ، يقول لي : سل عنه ، فاذا صح فأثبته الى ان عملت الكتاب » (١) . وقوله هذا يثبت ان الخليل لم يضع الكتاب كاملاً ، وان الذي أتمه ووضعه على صيغته النهائية هو الليث نفسه ، كما يوضح ذلك قوله : « الى ان عملت الكتاب » . وما أتمه الا معتمداً على أقوال العلماء الذين استفاد من علمهم ، ولم ينكر استفادته فنسب اليهم أقوالهم وآراءهم ، وذكر اسمهم في الكتاب ، وجلهم من الأعراب الذين حلوا خراسان كزائدة (٢) وابي ليلى وعرام والضرير (٣) ، ومنهم العراقيون كسيبويه (٤) والاصمعي وابن الاعرابي وابي عبيد (٥) . ولا يدخل في هذا الشأن اسماء وروايات متأخرة في الزمن عن هؤلاء ، ولعلها كانت تعليقات على الكتاب ثم أضافها الوراقون الى أصله ، فقد ظهر على ما يقول ثعلب « اختلاف في نسخه واضطراب في رواياته ، ووقع فيه الحكايات عن المتأخرين والاستشهاد بالمرذول من أشعار المحدثين » (٦) . وكل ذلك مما لا تقع تبعته على الخليل او الليث ، وليس لنا كما فعل الزبيدي (٧) ، ان نتخذ من ذلك حجة على ان الكتاب ليس

(١) في كتاب العين رواية ابن درستويه (الفهرست ٤٣ ، إرشاد الأريب ٦ : ٢٢٧ .)

(٢) في مادة عدق من كتاب العين ص ٦٧ وفي مادة عجر ، عن دروس الأستاذ مارسيه . نقل الأستاذ الكتاني . (٣) عن دروس الأستاذ مارسيه نقل الأستاذ للبارك .

(٤) في مادة جدع من كتاب العين ص ٦٢ . ويرى الأستاذ مارسيه أن الكتاب عرض عليهم فكانوا يبدون رأيهم في مواده . (٥) المزهر ١ : ٤٢ .

(٦) في المزهر ١ : ٤٢ نقلاً عن الزبيدي في استدراكه يقول ابن فارس في المقاييس (نسخة المجمع ص ٢٥٠) بعد أن ذكر بيت شعر سخيف من كتاب العين : « وأرى كتاب الخليل إنما تطامن عند أهل العلم لمثل هذه الحكايات » . (٧) النص السابق من المزهر .

للخليل، وكل ما علينا ان لا نثق بهذه الروايات ثقتنا بها كما لو كانت من اصل الكتاب.

على أن الأمر لا يقتصر على ذلك بل الكتاب يتضمن أخطاء يجل مقام الخليل عن نسبتها اليه، وتلك هي كما يعددها الزبيدي ويحتج بها على ان الكتاب ليس للخليل: «ادخال الرباعي المضاعف في باب الثلاثي المضاعف، وهو مذهب الكوفيين خاصة، وعلى ذلك استمر الكتاب من أوله الى آخره ... ولو ان الكتاب للخليل لما أعجزه ولا أشكل عليه تثقيف الثنائي الخفيف من الصحيح والمعتل والثلاثي المعتل بعلتين، ولما جعل ذلك كله في باب سماه اللفيف، فأدخل بعضه في بعض، وخلط فيه خلطاً، لا ينفصل منه شيء عما هو بخلافه، ولوضع الثلاثي المعتل على أقسامه الثلاثة ليستبين: مثل الياء من معتل الواو والهمزة، ولما خلط الرباعي والخماسي من أولها الى آخرهما.» [1] انها لأخطاء فادحة كما ترى ومعظمها يرجع الى أصل بناء الكتاب لأنها ابواب مفردة منه، وقد رأينا ان لا شك في ان الخليل هو الذي وضع نهج الكتاب وابوابه، فكيف نعللها؟ لا تعليل لها الا فرضها ملحقة بالكتاب بعد وفاة الخليل مع البرهان على أن موضعها لحظ في وضع الكتاب الأصلي وغرب عن بال الليث فألحقها خطأ. والحق ان هذا الفرض صحيح والبرهان ممكن. ألم تر ان الخليل لا يعتد بالمضاعف من الابنية فلا يدخل فيما أحصاه من كلام العرب الالفاظ التي يتكرر حرف من حروفها [2]، وكذلك فالثنائي الخفيف من الصحيح يدخل عنده في أبنية الثنائي وكذلك المعتل منه والثلاثي المعتل بعلتين. الا ان الخليل ادرك ذلك حين تعداده الابنية ورسمها، ولكن الليث ظن انه لم يلحظها فجمعها في باب خاص اسماه اللفيف، كما ان الليث اخطأ «من جهة التصريف، فذكر حرفاً مزيداً في مادة أصلية او مادة ثلاثية في مادة رباعية»، وهذا مما عيره به الزبيدي وعدده في جملة أخطاء الكتاب فتتبعه السيوطي [3] ولم يجد غيره مما يعير به الكتاب. وماذا يعني وجود هذه الاخطاء الا ان الخليل وضع

(١) للزهر ١: ٤٣ وكشف الظنون مختصراً ٢: ٢٩٠ . (٢) المزهر ١: ٣٧ وبغية الوعاة ص ٢٤٣ وانظر في هذه المقالة ٤٦٨ ص من مجلة المجمع العلمي العدد ١ المجلد ١٦ . (٣) المزهر ١: ٤٣

ابنية العرب وميز المهمل من المستعمل منها دون ان يأتي على ذكر مشتقاتها ، ولو فعل ذلك لما تسرب الخطل الى الكتاب .

وبعدُ فهل يدعي الليث خلاف ذلك ؟ انه ان فعل فقد ثقتنا . ولكنه لم يفعل بل هو يؤيد قولنا حين يستفسر من الخليل عن علة عده بناءً ما مهملاً وحين يسأله عن معنى المشتقات فيقول في الحالة الاولى وقوله في كتاب العين : « من أين قلت عكش مهمل » [1] . ويقول في الثانية في الكتاب نفسه : « قلت للخليل اذ لقيته : ماذا تقول في الخالع ، قال الخالع ضرب من البسيط وأورده » [2] . ان كل ذلك إلا يدل دلالة بينة على ان الخليل لم يأخذ على نفسه تحشية ابواب الكتاب بل ترك ذلك الليث ، على ان يستشيره ويهتدي بهديه .

وهذه النتيجة التي ينقضي اليها البحث تجد مصداقًا لها في الألفاظ التي وُجدت مصحفة في كتاب العين ، فذكرها الزبيدي ونقلها عنه السيوطي [3] . وليس بينها ما يشك في انه مصحف في أصل بنائه الا لفظين : اللخج والترم ، قال الزبيدي ان لا وجود لهما . ولكن الفيروزبادي خالفه في ذلك فذكر اللخج وقال هو « أسوأ الغمص » [4] وذكر الترم وقال « هي وجع الخوران » [5] وكذلك فلا يمكن تأييد قول الزبيدي فيها دون جدال . والذي يبقى أن التصحيف يقع في الكلمات المشتقة او عرضًا في وضع معنى مشتق لبناء من الابنية مصحف . وهذا تأييد لما قلنا ، من أن الخليل لم يضع بنفسه اشتقاق الكلمات ولا معانيها ، بل عهد بذلك الى الليث .

وهكذا يبدو واضحًا ان الليث لم ينسب الى الخليل غير ماقال فكان صادقًا في دعواه ، وحق لنا أن نثق به . اما ان يكون اخطأ فيما عهد به اليه الخليل ، فذلك يرجع الى انه لم يكن في معرفة اللغة بمكان وثيق . ثم إن الاخطاء التي وقع فيها بسيطة ، لا كبير شأن لها . اسمع ما يقوله السيوطي بعد ان تتبع الأغلاط من كتاب

(١) كتاب العين ص ١٠٣ عن دروس الأستاذ مارسيه في مذكرات الأستاذ المبارك .

(٢) كتاب العين مادة خلع عن دروس الأستاذ مارسيه . (٣) المزهر ٢ : ١٩٣ - ١٩٦ .

وانظر مايقوله ثعلب في تصحيف كتاب العين (ارشاد ، طبعة فريد الرفاعي ١٧ : ٤٤)

(٤) القاموس ، وانظر تاج العروس ٢ : ٩٤ (٥) القاموس وانظر تاج العروس ٨ : ٢١١

العين التي نوه بها الزبيدي في استدراكه عليه قال : « وقد طالعت استدراك الزبيدي الى آخره فرأيت وجه التخطئة فيما خطئ فيه ، غالبه من جهة التصريف والاشتقاق . وبعضه ادعي فيه التصحيف ، واما انه يخطأ في لفظة من حيث اللغة ، بأن يقال هذه اللفظة كذب ، او لا تعرف ، فمعاذ الله لم يقع ذلك . » (١)

وهنا يجول في الذهن سؤال كبير الشأن ، عظيم النتيجة ، وهو : كيف صح لليث ان لا يخطئ في سرد معاني الكلمات مع انه اخطأ فيما هو دون ذلك بكثير : اخطأ في التصريف وصحف في الألفاظ ؟ والجواب عن ذلك لا يخرج عن شيء واحد ، وهو انه ليس الذي وضع معاني الالفاظ وتحراها ، ولو فعل ذلك لامتلأ الكتاب خطأ ، فهو كما يدعي ذلك في نسبته الكتاب الى الخليل اخذهـا منه . ولكن كيف يأخذ عن الخليل معاني الكلمات (مما يشعر بأن الكتاب قد تم) ثم يغير في أبواب الكتاب ويخطئ في توزيع الكلمات في ابواب الكتاب وكيف يأخذ عن الخليل معاني الكلمات ثم يصحفها ؟ لا جواب عن ذلك الا انه خلا ما املى عليه الخليل او سأله عنه ، اخذ منه ما كان أجمعه ودونه في صحفه من معاني الالفاظ . ويشهد سيبويه بكثرة تدوين الخليل للغة حين سأله ابو بكر بن السري قائلاً : « هل رأيت مع الخليل كتباً علي عليك منها ، فقال : لم اجد معه كتباً الا عشرين رطلاً فيها بخط دقيق ما سمعه من لغات العرب ، وما سمعت من النحو فاملاه من قلبه . » (٢) اما إن هذه الارطال العشرين ذات الخط الدقيق كافية لأن يدون منها كتاب اكبر من كتاب العين ، فهل يشعر الخليل بدنو أجله او يبعد يده عن كتاب العين فيبخل بها على الليث ولا يوصي بها اليه ، والكتاب كتابه والوضع وضعه ؟ الا ان المنطق يقضي بقبول هذه الفكرة ، لا سيما وهي تفسر كيف وقع التصحيف ، والتصحيف لايكون إلا بالنقل من خط غير معجم لابشيء آخر وهي تفسر كيف وقع الخطأ في اشتقاق الكلمات حين عمد الليث إلى توزيع

(١) المزهر ١ : ٤٣ . (٢) تهذيب التهذيب ٣ : ١٦٢ .

ما كتب في صحائف الخليل على أبواب الكتاب ، وكيف أنه خيل إليه أن بناء الكتاب تنقصه الأبنية المضاعفة والمعتلة بعلتين فأضافها في آخر الكتاب بباب أسماء اللفيف .

الخلاصة . — وهاك الآن زبدة ما تظهره نتيجة البحث عن تاريخ كتاب العين : أقام الخليل زمنًا يفكر بحصر أبنية اللغة العربية ، وأدى به حسن خاطره وصفاء قريحته إلى الرجوع إلى عناصر الكلمة العربية ألا وهي الحروف ، فاتخذها سبيلا إلى حصر ألفاظ اللغة العربية بضرب بعضها ببعض مرة للحصول على الثنائي وضرب ما خرج معه من الثنائي بالأحرف نفسها لاستخراج الثلاثي وابنية الثلاثي بحروف العربية للبلوغ إلى الرباعي وأبنيه الرباعي بها للوصول إلى الخماسي ، وذلك بعد ترتيب الحروف على مخارجها في النطق حصراً للمهمل من الألفاظ بأمكنة متقاربة ، وأغلب المهمل إنما يتركب من حروف متقاربة المخرج أو مما لم يدخل فيه حرف من الحروف المحسنة للنطق أي حروف الذلاقة . واضطره أسلوبه في الحصر المتقارب للمهمل أن يغير شيئًا من ترتيبه الأول لمخارج الحروف مما كان لقنه لسيبويه . وبعد أن انتهى من عمله هذا وضبط أبنية اللغة ضبطًا لايدخلها فيه خلل وجد أن أسلوبه في الحصر مكنه من ترتيب الأبنية على حروفها فأشار إلى ذلك في مقدمة كتابه فكان مبدع الترتيب على الحروف دون أن يعرف طريقة اليونان في ذلك وكان يطلع أحد تلامذته أو أصدقائه — الليث بن المظفر — على مراحل عمله فيجد منه اهتمامًا شديداً ، ولعله شعر بعدم استطاعته إتمام الكتاب بنفسه فناوله إياه ، وصار يملي عليه شرح بعض فصوله ومنها مقدمة الكتاب على الأغلب ، ويطلب إليه أن يسأل عما تعسر عليه معرفته . ثم شعر بدنو أجله أو باضطراره إلى ترك الكتاب ، فأوصى أو قدم لتلميذه صحائفه في اللغة كان سمعها من الاعراب ونقلها عنهم ، وبعضها من ملاحظاته اللغوية خلال حياته . وكان قد اجتمع في هذه الصحف التي تزن عشرين رطلاً مفردات ومشتقات عديدة كان على الليث أن يوزعها في طيات

الكتاب حيث يقتضي مصدر اشتقاقها ، غير أن الليث لم يكن أماماً في اللغة ، لا بل لم يكن قديراً . وكان إلى ذلك قد قرأ التصريف والنحو على القاسم بن معن المسعودي [1] (— ١٧٥ او ١٨٨ والأول أصح) والقاسم هذا عالم من علماء الكوفة ، ولم يكن علم الكوفة بالتصريف والنحو عالي القدر عند غير الكوفيين ، فامتد أثره إلى كتاب العين وانضم إليه بعض الضعف في معرفة الليث . فظهر في الكتاب خطأ من حيث توزيع الاشتقاق على الأبنية وظهر تصحيف في ألفاظه التي لم يستطع الليث أن يضبط أعجامها من صحائف أستاذه . وزاد الأمر خطورة أن الليث عمل بنصيحة أستاذه فسأل كثيراً من الأعراب واللغويين عن اشتقاقات لم تنكشف له معانيها وأصولها ، ونسب أقوالهم وأجوبتهم إليهم ، فكان هذا مما أخذ على الكتاب وقد ذكر أن مؤلفه الخليل . على أن كل ذلك لم يستنفد المشتقات أجمع ، وبقي منها عدد لم يذكر ، ولم يرو الكتاب عن الليث إلا بعض أصحابه ، ووقع بين أيدي الوراقين فأضافوا إليه ماخيل إليهم أنه يزينه في أعين الناس . ورأى علماء العراق هذا الكتاب وشعروا بضعفه هذا فاستنكروه وأبوا أن يقروا له بجلالة قدره إلا قليلاً منهم . ولما نبذه بعض العلماء كثر المتهجمون عليه . واعتز بعضهم بزيادة ألفاظ مشتقة عليه بما يقرب من ضعف الكتاب ، وتجرأ بعضهم فاعترض على المادة التي وضعها الخليل بنفسه ، وهي تمييز المهمل من المستعمل [2] فكان من أمرهم شطط فانتصر فريق من العلماء للكتاب وخطأ بعضهم بعضاً ، وأثبت ذلك أن في الكتاب أشياء حكم وضعها فلا تنقض . وفيما كان العلماء يتجادلون فيه ، كانت مادته ونهج تأليفه ينتشران في المعاجم التي تبعته والتي نسجت على منواله دون فارق كبير : من مختصر له أو مغير لترتيب حروفه أو موسع لبعض فصوله . أما الكتاب نفسه فقد ظل منبوذاً محسوراً يساعد على انتشار اللغة العربية دون أن يظهر ، وإذا بالمعاجم تسمو ، وإذا باللغة العربية تضبط ضبطاً ما كان ليتهيأ لها لولا الخليل بن أحمد

(١) إرشاد الأريب ، طبعة فريد الرفاعي ١٧ : ٦ (٢) انظر ذلك في الفهرست ص ٦٣

فيما وضع وأبدع ، ولولا الليث بن المظفر فيما أقدم عليه بشجاعة وإخلاص ، فاللغة العربية مدينة لهما ماشاء الله أن تعيش ، وستحيا طويلاً .

هذه قصة كتاب العين في ماضيه ، وهي قصة فيها سوء حظ عظيم ، ولكن أليس من الغرابة أن يتابع سوء البخت كتابنا حتى عصرنا هذا ، فلا يقيض الله له في شخص الأب انستاس ماري الكرملي ناشراً عالمًا مدققًا يشرع في إخراجه بالطباعة ، حتى يرسل الحرب العامة سنة ١٩١٤ فتوقف طبعه عند جزء صغير منه ، على أن هذا الجزء نفسه يحمل مكر الدهر بأصله ، فلا ينتشر إلا بمقدار هزيل ، حتى لاتكاد ترى منه اليوم نسخة في دمشق .

ولا ندري أيكون مستقبله أبهى من ماضيه وحاضره فيعزم العلامة الكرملي على طبعه كاملاً ، توآزره في نفقاته وزارة المعارف العراقية ، التي لها أن تفاخر بأن واضعه ممن نشؤوا في العراق ورفعوا اسم البصرة عاليًا ، أم يأتي الإهمال على النسخة او النسختين المخطوطتين الوحيدتين منه ، فتفقد اللغة العربية اول معجم واشرفه ، فيه ذكاء الخليل وعلمه وتنبيهاته مما روى عنه تلميذ تقي لايعرف الكذب . وما اجل علم الخليل في اللغة ، وما احسن ماينقل عنه فيها .

(انتهى البحث)

يوسف العش

جواهر الخلفاء العباسيين

كان لرفيف الحضارة أيام العباسيين اثر كبير في رقي العواطف والأذواق ، والاندفاع نحو الترف والبذخ ، ولعل الجواهر والخواتيم والتيجان والوشح المرصعة والقلانس المجوهرة والقضبان العاجية الثمينة والأعمدة المذهبة ، كانت اكبر مظهر من مظاهر ترف الخلفاء وبذخهم ، ثم تعدوا ذلك الى ماهو ابعد واروع ، فزينوا الحيطان والسقوف والأبواب والرواشن بالدر وحلوها بمثل حليهم [1]

وكانت الجواهر منذ الزمن البعيد ، قنية للأكاسرة ، يلتقطونها من كل مكان ، ويرسلون في اثرها الرسل ويجودون بالمال ، وكانت هذه الجواهر مجتمعة من لدن اردشير بن بابك يرثها عنه القائمون بعده كابر عن كابر ، حتى إذا ما جاء الاسلام ، وقوض عرش كسرى ، القت فارس الى الدولة العربية جواهرها وأفلاذها ، على أن هذه الكنوز لم تجد عند الخلفاء الراشدين هوى ، ولم يكن لهم ميل الى هذه الأعراض الدنيوية ، فصدقوا عنها ، وصرفوها الى سائر المسلمين . ولم يكن لبني أمية شغف بالغ بأشباه هذه الأمور ، فقد كانت دولتهم عربية لم يترعن فيها غير نفر او نفرين ، فاتسعت الجواهر المذكورة في ايامهم وامتلأت بها خزائنهم [2] وتناقلها الناس حتى قالوا إنه كان يعمل منها أوان ، ولهذا قال الشافعي في كتاب حرملة « لا يجوز استعمال أواني الياقوت والبلور لأن قيمتها تفوق قيمة الذهب » [3] وواضح انه لو لم يكن هناك أوان من هذا الضرب لما قال الشافعي قوله . فلما فاجأتهم الدولة العباسية ، وجدوا خيراً كثيراً وجوهراً وافراً ، ولم ينتفعوا الا بالقليل منه فقد حدث بعض أهل مروان « لم يكن لنا في هربنا شيء أنفع من الجواهر الخفيف الثمن الذي لا يجاوز قيمته الخمسة دنانير .. » [4] .

---

(١) الجماهر للبيروني (طبع حيدر آباد ، الدكن — كرنكو) ٣٢ (٢) الجماهر ص ٥٧
(٣) الجماهر ص ٥٦ (٤) الجماهر ص ٦٦

وقد شغف بنو العباس بالجوهر شغفاً كبيراً ؛ فقد ذكر ابن خلدون ان السفاح والمنصور اتخذا الأسرة الذهبية المرصعة بالجوهر ، والحصر المنسوجة بالذهب المكللة بالدر والياقوت [1]

وذكروا انه كان لهشام بن عبد الملك درة اسمها « الدرة اليتيمة » أتي بها يوماً وعنده امرأته عبدة بنت عبيد الله بن يزيد بن معاوية ، وكانت مفرطة السمن ، لم تكن تستغني في الحركة عن معونة نفر . فقال لها هشام : إن قمت بنفسك من غير استعانة بأحد فلك هذه الدرّة . فزاولت القيام بشدّة ومشقة ، وما تمّ نهوضها حتى خرّت على وجهها وسال الدم من أنفها ، فغسلها هشام وأعطاها الدرّة . وكانت ثلاثة مثاقيل ، حائزة جميع محاسن الصفات ، مدحرجة نقية رائقة رطبة من كثرة الماء . فلما انقضت دولة بني أمية ، وانتدب عبد الله بن علي ليتبع ودائع مروان بن محمد ، غُمز اليه بأن عند عبدة الدرّة اليتيمة وقرطان لها بقيا لديها . فأحضرها وطالبها بذلك ، فأجابته بأني إن دفعت اليك ما تريده فهل تريد مني شيئاً غيره ؟ قال لا . فسلّمتْ ذلك اليه . وكانت قد حملته مع نفسها . فقال لها : اختاري لك موضعاً أحسن لك فيه ، فسمت موضعاً بالشام ، فسيرها اليه . ثم خاف أن يطلع السفاح على ذلك ويستخبرها فأتبعها عبداً ، حتى عدل بها عن الطريق وذبحها [2]

وكان مما أخذ منها بَدَنة مجوهرة كانت عندها . ذكر الشابشتي في كتابه « الديارات » ان المهدي لما زوج ابنه الرشيد بأم جعفر ابنة اخيه ، استعد لها مالم يستعد لامرأة قبلها : من الآلة وصناديق الجوهر والحلى والتيجان والأكاليل وقباب الفضة والذهب والطيب ، واعطاها بَدَنة عبيدة ابنة عبد الله بن يزيد امرأة هشام . قال : ولم يُرَ في الاسلام مثلها ومثل الحبّ الذي كان فيها . وكان في ظهرها وصدرها خطان من ياقوت أحمر ، وباقيها من الدرّ الكبار الذي ليس مثله [3] ويقال ان المقومين لم يقفوا على قيمة هذا الدرع لنفاسته [4]

(١) التمدن الاسلامي ج٥:١٠٦ (٢) الجماهر ١٥٢ (٣) الشابشتي (مخطوطة المجمع العلمي التي فرغنا من تحقيقها) (٤) تحفة العروس ٣٦

وذكر ابراهيم بن المهدي أن اباه اشترى فصّاً من ياقوت احمر على أقصى النهاية في النفاسة بثلاثمائة الف دينار ، وكانت اكياسا — لمانضد بعضها على بعض — كالجبل . وقد وهبه للهادي[1] وقيل بل الذي اشتراه هو المنصور باربعين ألف دينار[2]

ثم صار الى الرشيد فقرنه الى الخاتم « الاسماعيل » الذي كان للمنصور . وكان من زمرد على وزن مثقالين يسمى « البحر » تشبيهاً له بخضرته ، وكان شراؤه بأربعين الف دينار[3]

وذكر البيروني في موضع ثان أن الجبل كان احمر معصفراً بهرماناً صافياً يتزن ثلاثة مثاقيل غير دانق ، وقيمته مائة الف الف دينار .[4] وفي القولين تناقض

وكان الرشيد شديد الولوع بالجواهر حريصاً على اقتنائها ، بعث بالصباح الجوهري ، جدّ الكندي ، الى صاحب سرنديب لابتياع جواهر في ناحيته[5]

وذكروا ان الرشيد كان ينثر الجوهر بغير حساب . وكان في جملة حظياته واحدة لم ترزق جارية من الجمال مارزقته هي . وكان الرشيد إذا أتحفهن بشيء ردّت هذه حصتها ، وهو يغتاظ من ذلك . فاتفق يوماً أنه نثر عليهن جواهر لها قيم عظام فالتقطنها ، ولم تمدّ تلك اليها يداً . ثم أحضر جواهر غيرها وخيرهن ، فاخترن ، وقال لتلك : لِمَ لا تختارين أسوة بصواحبك ؟ قالت : إن كان لي ما أختاره فسافعل ، وجاءت وأخذت بيده وقالت له : هذا اختياري من جميع جواهر العالم . فأعجب الرشيد بها وسماها خالصة وفاقت سائرهن في الحظوة منه وفي الصلات والثوائب والمواهب[6]

وذكر البيهقي انه اشتُري للرشيد جوهر بمائتي الف دينار فوهبه لدنانير البرمكية[7]

ولم تكن زبيدة زوجه بأقلّ منه عناية بالجواهر ، فقد كان لها سبحة من يواقيت رمّانية كالبنادق[8] وكان شراؤها خمسين الف دينار . وجرى بين الرشيد

(١) الجماهر ٦١ (٢) المحاسن والمساوي للبيهقي ٥٠٣ (٣) الجماهر ١٥٢
(٤) الجماهر ٦٢ (٥) الجماهر ٦٣ (٦) الجماهر ٥٨ (٧) المحاسن والمساوي ٥٢٦
(٨) الجماهر ٥٨

وبينها يوماً ذكر نزاهة عمارة بن حمزة وعلو همته . فقالت : إن الأقدام الثابتة تزل عن مواطئها عند روائح المال ، فادع به وهب له سبحتي هذه فان ردها عرفنا نزاهته . ففعل ، وخلا به الرشيد في امر مهم ، ثم اتبعه السبحة ، فوضعها عمارة بين يديه بعد ان شكر بره . ولما قام تركها مكانها . فقالت زبيدة : قد أنسيها ، فأتبعه خادماً بها . فقال للخادم : هي لك ان صدقت . فرجع قائلاً : إن عمارة قد وهبها لي ، فأعطته زبيدة الف دينار وارتجعتها منه (١)

وقد بلغ من اعجاب زبيدة بالدر ان أمرت ان يتخذ ثياباً لوصائفها من الدر المثقوب بالتصليب . (٢) ثم ازداد هذا حتى انها اتخذت الخفاف المرصعة بالجوهر تلبسها في قصرها (٣) .

وقيل إنها اشترت لعبد الله ابن المخلوع قضيباً من زمرد قدر ذراع بأربعة وثمانين الف دينار ليلعب به يوم إعذاره (طهوره) وكان على رأسه طائر من ياقوت احمر (٤)

أما المأمون فأخباره متناقضة ، تدل على شغفه بالجواهر تارة ، وتظهر نفوره منها أحياناً . فقد ذكروا انه لما قدم بغداد منصرفاً من خراسان اهدي اليه الفضل بن الربيع فص ياقوت لم يرَ مثله . فأخذ المأمون يقلبه ويحوله من يد الى يد ، ويقول لجلسائه « ما رأيت أحسن من هذا الفص » . ثم حدثهم أن أبا مسلم سرح زياد بن صالح الى الصين ، فوجه اليه بفص وقع له من جهته الى ابي العباس السفاح ، فوهبه لعبد الله بن علي ، وصار منه الى المهدي ثم الى الرشيد ، فبينا هو يرمي قوس جلاهق اذ بدر الفص من خاتمه وكرّ في ذلك الموضع حواليه ، فلم يعثر له على اثر ، واغتم جداً . فاشترى له صاحب المصلى فصاً عديم المثل بعشرين الف دينار ، وبعث به اليه ليسليه عنه فلما نظر اليه قال واين هذا من فصي ؟

ثم قال المأمون : « لأضعنّ من قدر هذه الحجارة التي لا معنى لها » ثم رد الفص على الفضل (٥)

(١) الجماهر ١٥٦ (٢) الجماهر ٥٨ (٣) المسعودي ٣٦٦ (٤) الجماهر ١٦٥
(٥) الجماهر ٦٥

وذكر ابن خلدون وابن شاكر أن المأمون أعطى زوجه بوران ليلة زفافها الف حصاة من الياقوت ، وبسط لها فرشاً كان الحصير منه منسوجاً بالذهب مكللاً بالدر والياقوت ، فكان بياض الدر يشرق على صفرة الذهب، ونثر الحسن بن سهل على المأمون في تلك الليلة الف جوهرة .[1]

وقيل ان زبيدة لما دخلت على المأمون عند دخوله بغداد ، حنأته بالخلافة ، فأعجب بكلامها وحشى فاها دراً [2]

وذكروا ان المأمون كان يحب الواثق ويجتهد في تخريجه وعادله في السفر مرة فأخذ الجمال في الحداء ، وأشفق المأمون ان يستيقظ الواثق من نومه ، ولم يمكنه النداء بالجمال ، فقطع سلك سبحة من الدر واخذ يرميه بدرة بعد أخرى الى أن أصابه ، فالتفت اليه وأومأ اليه بالسكوت . ثم دُل احد الثقات بالغداة على الموضع فالتقطها من الطريق [3]

ولم يكن الأمين بأقل شغفاً بالجوهر من أمه وابيه ، حتى بلغ به ذلك ان كان يشرب بأقداح من بلور كللت جوانبها بالجوهر الثمين [4]

اما المعتصم فقد ورث ما كان عند أبيه واخيه ، وقالوا انه لما قتل الإفشين اخذ من داره اصناماً محلاة بالذهب والجواهر [5]

وكانت هذه الجواهر تقع أحايين كثيرة في أيدي الحاشية والوصائف ، وربما عادت الى خليفة آخر مرة اخرى . فذكروا ان المتوكل جلس يوماً لهدايا النيروز ، فقدم اليه كل علق ثمين ، فدخل عليه طبيبه جبريل بن بختيشوع ، وكان يأنس به ، فقال : ما ترى في هذا اليوم ؟ قال جبريل : مثل خرباشات الشحاذين ! إذ ليس لها قدر .. أقبل على ما معي . ثم أخرج من كمه درج أبنوس مضبب بالذهب ، وفتحه عن حرير اخضر ، فانكشف عن ملعقة كبيرة من الجوهر لمع منها

(١) عيون التواريخ (مخطوط) ج ٦ سنة ٢٠٤ (دار الكتب الظاهرية)

(٢) عيون التواريخ ٦ : سنة ٢٢٦ (٣) الجماهر ١٥٦ (٤) المحاسن والمساوىء ٣٦٣

(٥) عيون التواريخ ٦ : سنة ٢٢٦

شهاب · فوضعها بين يديه · فرأى المتوكل مالا عهد له بمثله · فقال : من أين لك هذا ؟ قال من الناس الكرام · ثم حدث انه صار الى ابيه من ام جعفر زبيدة في ثلاث شكايات عالجها فيها ، بثلاثمائة الف دينار [١]

ودخل بختيشوع علي المتوكل يوم مهرجان · فقال اين هديتك ؟ فقال هديتي لم يملكها خليفة قبلك ، واخرج ملعقة زبرجد توزن ثمانية مثاقيل ، وحكى عن أبيه جبريل انه قصد دنانير جارية يحيى بن خالد فوجدها تأكل رماناً بهذه الملعقة ، فقالت له خذ هذه الملعقة ، فأخذها ، ففرح المتوكل ، واحضر عتاباً الجوهري لتقويمها فقال « ما أعرف لهذه قيمة !.. » [٢]

وقد كان الواثق يملك الدر الكثير · وحكى محمد بن بشير النديم انه دخل على الواثق فاذا هو في دار مفروشة الأرض والحيطان بالوشي المنسوج بالذهب على سرير مرصع بالجوهر والى جانبه جاريته فريدة ، وذكر ان الواثق اغضب فريدة يوماً فاسترضاها بحق فيه عقد جوهر ما رؤي مثله لخليفة [٣]

ولا ندري ما كان يفعل المعتز بالجواهر لو طالت خلافته ، على ان امه قبيحة — زوج المتوكل — كانت تجمع الجواهر وتدخرها · ولكنها لم تنتفع بها في دين ولا دنيا · ولم تغث به ابنها حين طلب منه الاتراك خمسين الف دينار على ان يقتلوا صالح بن وصيف ويريحوه منه · فلاذ بأمه فشحت عليه وقالت : لا مال عندي · فلما قتل المعتز وجد لها صالح ثلاثة اسفاط فيها زمرد وجوهر وياقوت أحمر ، ما ظن ان يقع مثله ويكون في أيدي العالم · وقوم هذا كله بألفي الف دينار · وقومت الأسفاط بألف الف دينار [٤]

ولما اشارت قبيحة هذه ، على ابنها المعتز بقتل أخيه المؤيد بعث قبيحة الى امه في شهر رمضان بسبحة در قيمتها اربعة آلاف دينار وقالت لها سبحي

(١) الجماهر ٥٠ (٢) الجماهر ١٦٥ (٣) عيون التواريخ ٦ : سنة ٢٣٢
(٤) الجماهر ٦٨

بها يا أُختي . فسحقتها في الهاون ولفتها في كاغد وردتها الى حاملتها وقالت لها : اقرئي عني اختي السلام وقولي لها : التسبيح لا يذهب بجزازات الدماء [١]

وكان بعض الخلفاء يبتاعون المتاع والأثاث بالجواهر بدلاً من الدنانير . فذكر ابن شاكر ان المستعين اشترى من المعتز كثيراً من المتاع والأثاث بما قيمته عشرة آلاف الف دينار وعشر حبات جوهر [٢]

وما انتقلت الخلافة الى المقتدر حتى كانت خزانة الدولة مترعة بالجواهر . ومن جملتها حجر الياقوت الذي اشتراه الرشيد بثلاثمائة الف دينار ، والدرة اليتيمة التي قومت بمائة وعشرين الف دينار وغير ذلك . [٣] على ان المقتدر اضاع ما وصل اليه على النساء وبذرها فيهن . ولما احتشم وزيره العباس ورام اسكاته بالاشتراك في النهب وتلويثه بالخيانة انفذ اليه من الجواهر ما يعظم مقداره تكرمة له ، فردها العباس قائلاً « انها زينة الاسلام وعدة الخلافة وليس تفريقها بصواب » [٤]

وكان لخالة المقتدر هذا فص يلقب بورقة الآس ، لانه كان على مقداره وزنه مثقال الا شعيرتان ، وشراؤه ستين الف درهم [٥]

* * *

تلك لمح موجزات عن الجواهر التي وصلت الى خلفاء بني العباس ، وإذا اضفنا الى هذا تلك الجواهر التي كانوا يزينون بها قصورهم ، كبرج المتوكل ، وقصر الثريا ، وقصور المقتدر وقصور سامرا ، رأينا الترف والبذخ الذين رتع فيهما الخلفاء ، فكانا سبباً في وهن ملكهم واندثار حضارتهم .

دمشق صلاح الدين المنجد

(١) الجماهر ١٥٨ (٢) عيون التواريخ ٦ : سنة ٢٦٨ (٣) الفخري ١٩١
(٤) الجماهر ٥٧ (٥) الجماهر ٥٧ .

مخطوطات ومطبوعات

تاريخ البيمارستانات في الاسلام

تأليف الدكتور احمد عيسى بك

مطبوعات جمعية التمدن الاسلامي بدمشق

للدكتور أحمد عيسى بك يد بيضاء في خدمة اللغة العربية بما وضعه فيها وبما نقله اليها من المؤلفات العلمية الطبية التي بعث فيها كثيراً من الألفاظ والتعابير القديمة المندثرة وبما أودعه فيها من المصطلحات العلمية الحديثة . ومن خيرة ما طلع به علينا أخيراً تاريخ البيمارستانات في الاسلام الذي أسدى به الى العالم الاسلامي خدمة جلى لما حواه من مفاخر تنطق بسمو ما كانت عليه الحضارة الاسلامية من الرقي في مضمار التمدن والأخلاق الانسانية العليا وذلك لأن خير المظاهر الدالة على تقدم الأمم المدني والاجتماعي ما عندها من المصانع الخيرية واهمها المستشفيات العامة والملاجئ ودور الاسعاف .

وقد ألمَّ الكتاب في قسمه الأول بصورة اجمالية بنشأة البيمارستانات ونظامها وأطبائها وأرزاقها ثم درس في قسمه الثاني بيمارستانات البلاد الاسلامية على التفصيل : في جنديسابور والعراق ومصر وسورية وفلسطين والحجاز وايران وتركيا والمغرب والاندلس ويربو عددها على التسعين مارستاناً مع ذكر أسماء من اشتهر من الاطباء الذين خدموا فيها وترجمة من عثر على ترجمته منهم بصورة مقتضبة . وفي الكتاب وصف مسهب للبيمارستان الكبير المنصوري او مارستان قلاوون في القاهرة وللبيمارستان النوري بدمشق وهو محلى بكثير من الصور والرسوم والكتابات الاثرية .

وقبل أن نختم هذه الكلمة بالثناء العاطر على المؤلف نرى من الفائدة ان نشير الى عدم ذكر دار الجذام في دمشق التي قد تكون اقدم دار للمجذومين آهلة بالمرضى منذ تأسيسها حتى اليوم . ولعلها هي الدار التي أعدها الوليد بن عبد الملك في دمشق للمجذومين

وأمر بحبسهم فيها لئلا يخرجوا على الناس وأجرى عليهم الأرزاق ونوه بذكرها الزميل تحت عنوان بيمارستان الوليد « وانه لم يصل الينا علم او إشارة عن المكان الذي انشئ فيه » .

وهي كائنة خلف سور المدينة خارج بابها الشرقي وعلى بعد خمسمائة متر تقريباً منه . على يمين الطريق الممتدة منه الى الشمال . ويعرف موقعها بالاعاطلة : وهي مؤلفة من حظيرة فيها عدة غرف مبنية من اللبن المطلي بالطين الأحمر يقيم فيها المجذومون من قرون بعيدة ؛ وبجانب هذا البناء الحقير الحديث العهد آثار لبناء عظيم قديم مازالت أنقاضه من الاعمدة والأحجار الضخمة باقية وهي ملقاة على الارض وحائطه الغربي قائماً وفيه الباب وهو مردوم بالتراب حتى قنطرته التي يستدل من شكلها على أنها من اعمال القرن السادس ويحيط بهذا البناء بستان كبير هو وقف عليه . وقد تكون الحظيرة الآنفة الذكر حوشاً لهذا البستان ثم انتقل اليها المرضى عندما تهدم هذا البناء التاريخي .

والمتواتر ان الوليد أقام مارستانه المذكور في التاريخ للمجذومين في هذا المكان وان الملك العادل نور الدين محمود بن زنكي جدد ذلك البناء ووقف عليه البستان المجاور له مع غيره من الاراضي الزراعية ومنها قرية جلين المشهورة في حوران وتسمى هذه الاوقاف بوقف الجذامى وكان يتولى إدارتها في السابق وانفاق ريعها على المجذومين أسر دمشقية معروفة الى ان وضعت مديرية الاوقاف العامة في دمشق يدها عليها بعد الحرب العامة واخذت تنفق من ريعها على المجذومين المقيمين في هذه الحظيرة وذلك حتى سنة ١٩٣٥ حيث وجدت مصلحة الصحة العامة في سورية بالاتفاق مع مديرية الصحة في المفوضية الفرنسية العليا ان بقاء هذه المؤسسة التاريخية في الموضع الذي هي فيه وعلى ما هي عليه لا يتلاءم مع مقتضيات الفن الصحي الحديث فنقلت الى محل يقال له القصير قرب دومة على بعد ١٦ . كيلو متراً من دمشق حيث أنشئ لها بناء كبير مؤلف من ستة اقسام متفرقة اثنان منها للذكور واثنان للاناث وقسم للاعمال الطبية وقسم للادارة وهو مجهز باحدث الادوات الصحية وفيه عدد من المجذومين يقرب

من المائة وقد عهد بادارته الى راهبات المحبة اللعازاريات وبرئاسته لكاتب هذه الكلمة بالاضافة الى رئاسة مستشفى ابن سينا للأمراض النفسية القائم على مقربة منه . وقد اطلق عليه اسم « مستشفى الوليد بن عبد الملك »

اما آثار دار الجذام القديمة فما زالت مهملة تعبث بها حوادث الطبيعة يحيق بتاريخها وبهندستها الغموض تنتظر الساعة التي تمتد اليها فيها يد مصلحة الآثار السورية لتكشف عن حقيقتها للشام .

هذا ولا بد لنا في الختام من شكر جمعية التمدن الاسلامي بدمشق على عنايتها بطبع هذا الكتاب القيم .

أسعد الحكيم

كتاب بلوغ المرام

وملاحقه

(لكل من القاضي حسين العرشي والاب انستاس الكرملي طبع بمصر سنة ١٩٣٩ صفحاته ٢٠٤٣).

نُشر هذا الكتاب المسمى (بلوغ المرام في من تولى اليمن من ملكٍ وإمام) على الطريقة (الشكيبية) أعني ان ناشره زميلنا الفاضل الأب انستاس اضاف الى الكتاب من نتائج علمه ومجهودات بحثه ملاحق جعلته في (٤٤٢) صفحة فقط بعد ان كان اصله في ٨٣ صفحة : مؤلف الكتاب القاضي حسين بن احمد العرشي يَمني معاصر : نظم قصيدة في ملخص تاريخ اليمن منذ الفتح الاسلامي الى زمنه الحاضر سماها (مسك الختام) ثم عمد الى القصيدة فشرحها شرحًا قليلاً في لفظه كثيراً في معناه . وسماه (بلوغ المرام في شرح مسك الختام) . ومن دأب الاب أنستاس ان يحرص على

استيعاب اخبار اليمن والاطلاع على ما وضع فيها من المصنفات : فكان يجد في بعضها قصوراً وفي بعضها تقصيراً · حتى ظفر بكتاب القاضي العرشي فأعجبه واشتراه مؤملاً انه بخط المؤلف ثم تبين له انه بخلاف ذلك · في قصة اشار اليها في مقدمة الكتاب ثم فصلها في ص ٢٤٠ · وقد قال الاب في المقدمة انه لم يجد اثراً لترجمة المؤلف ولم يهده احد اليه : لا في صنعاء ولا في بغداد ولا في القاهرة · وكل ما استنتجه بشأنه في مطاوي تأليفه انه زيدي المذهب وانه كان حياً سنة ١٣١٨ هـ

ومن محاسن المصادفات ان يكون في زيارتي حين تصفحي للكتاب (جميل بك نوري) نزيل دمشق وهو ابن اخت محمود نديم باشا المشهور الذي تولى اليمن في آخر العهد العثماني · فأطلعته على الكتاب وسألته عن القاضي حسين العرشي مؤلف (بلوغ المرام) وقرأت له ما ذكره ناشره الاب الكرملي في الملحق الأول (ص ٩٢ و ص ٩٣) من خبر البعثة الانكليزية التي جاءت الحديدة في طريقها الى صنعاء (سنة ١٩١٨ م) فصدَّتها قبيلة (القَحرَى) · فقال : ان ما قاله الاب في هذه الحادثة صحيح لكنه يحتاج الى تعديل في بعض اخباره : لأني كنت مع خالي (محمود نديم) يوم قدوم البعثة وقد شاركته في تلافي الحادثة وفي يدي وثائق باللغتين الانكليزية والعربية تتعلق بتلك الحادثة ·

ثم أطلعني جميل بك على الوثائق المذكورة · فقلت له : ان قراء مجلتنا لا يعنيهم تحقيق أمر هذه الحادثة من الوجهة السياسية وانما يهمهم امر القاضي حسين العرشي مؤلف (بلوغ المرام) الذي قال ناشره المحترم انه لم يجد له أثراً · ولم يرو له أحد عنه خبراً · فقال : إني اعرفه معرفة شخصية كما أعرف القاضي عبد الله العرشي الذي عينه الامام معتمداً في (عدن) للمفاوضة مع البعثة والاعتذار اليها · حسبما ذكره الأب الكرملي في ص ٩٣ ثم قال : والقاضي عبد الله هذا هو ابن اخي القاضي حسين مؤلف بلوغ المرام · وكلاهما من (العرش) وهي قرية صغيرة في بلاد (خولان) إحدى مخاليف اليمن · وهذان القاضيان معروفان بالانتساب الى امام اليمن ومن المقربين لديه وكلاهما من قضاة اليمن · و(القاضي) في اصطلاح اليمانيين لقب تبجيل وتعظيم يدل

على فضل صاحبه وعلمه ٠ كما نقول في بلادنا (الفقيه فلان) وليس القاضي عندهم بمعنى الموظف الموكول اليه فصل الخصومات كما هو الشأن عندنا وانما ، هذا يسمى في اصطلاحهم الحاكم الشرعي »

ولكن الاب انستاس فسر (القاضي) في ص ٤٣١ بكل من يعرف القراءة والكتابة ٠ وهذا التفسير يوشك ان يكون تفسيراً لكلمة (الافندي) التركية في اول نشأة استعمالها في بلادنا ٠ على ان تفسيره هذا لا يلائم قوله في ص ٢٤٩ (بمناسبة سعة اطلاع القاضي العرشي على اخبار اليمن واحداثها) ما نصه (وهذا لأن العرشي كان قاضياً والقضاة يضطرون الى مراجعة كتب كثيرة بخلاف أهل العلم فانهم قد ينفردون بعض الكتب دون غيرها) فان هذا القول على غموض المراد منه يشعر بأن القاضي العرشي كان ذا وظيفة أو عمل غير القراءة والكتابة وانه يقوم به دون سائر علماء بلاده ٠ فأي التفسيرين لكلمة القاضي نعتمد ؟

نرجع الى الكتاب المنشور : رأى الأب الناشر ان كتاب (بلوغ المرام) على وفائه بالحاجة السياسية من تاريخ اليمن لا تزال فيه امور يعوزها البيان ٠ فأتبعه بملاحق من عنده :

(الملحق الأول) بلغ المؤلف العرشي في سرد حوادث اليمن الى سنة (١٩٠٠ م) فتتبع الاب بقية حوادثها الى سنة ١٩٣٤ م التقطها من الجرائد ومن معلوماته الخاصة (الثاني) في بلدان اليمن وقبائله (الثالث) مطامع الغربيين في اليمن (الرابع) الاتفاقيات والمعاهدات بين اليمن والدول

فالقارئ يقول ها قد انتهى الكتاب ٠ نعم ولكن إتقان الاب الكرملي لم ينته : فعقد الفصول التالية وضمنها قصة شرائه مخطوطة (بلوغ المرام) ثم وصف المخطوطة ونقدها من جهة الرسم والنحو واللغة والأسلوب ٠ وعزا كلّ ذلك الى الناسخ لا الى المؤلف الذي اثنى عليه ٠ ووازن بين تاريخه وتاريخ غيره، فرجحه ٠ وذكر شيئاً من محاسنه ٠٠ ثم قال : انه هو عاد فعلقت يده بنسخة من الكتاب أجود وأتقن من التي

اشتراها . وعقد فصلاً للمراجع التي استند اليها في ملاحقه : وهي ستة عشر مرجعاً أو كتاباً . وتكلم عن كل واحد من هذه الكتب بالتفصيل . وقد عنون هذا الفصل بقوله (المنتجعات التي ارتدناها) ولم يعجبنا هذا العنوان : فان فيه تكلفا . واين قوله هذا من قولهم (المراجع التي اعتمدنا عليها أو استندنا اليها) . فان الفصحاء في مثل هذا المقام يقولون اشتبه علينا امر كذا فرجعنا الى كتاب كذا . وقد أصبحت كلمة (المرجع والمراجع) اصطلاحاً للمؤلفين مثل قولهم (الباب) و (الفصل) و (المقدمة) ونحو ذلك . أما كلمتا (انتجعنا) و (ارتدنا) فمن الكلمات الأدبية التي تستعمل في مقام الخطابة والشعر ونحوهما . وعند الافرنج كلمة (البيليوغرافيات) بمعنى (المراجع)عندنا . فهل تراهم يعدلون عنها الى غيرها حتى يجوز لنا نحن ان نصنع صنيعهم ؟!

وصلنا في الكتاب الى ص ٢٧٦ وبقي منه ١٦٧ صفحة فبماذا مُلئت ؟ مُلئت فصلاً تضمن تصحيح هفوات سبقت في الكتاب وملاحقه الاربعة مع اضافات وفوائد واستدراكات .

قال الناشر : اعتمدنا في بعضها على ولدنا (العلامة روكس بن زائد العزيزي) استاذ العربية في احدى مدارس شرق الاردن . وقد اثنى الاب على هذا الشاب الذي آزره في عدة مواطن من الكتاب .

ثم جاء دور الفهارس وأولها فهرس لتحليل المباحث التاريخية وفهرس للكتب والجرائد الوارد اسمها في الكتاب وملاحقه وفهرس للنباتات وآخر للمعادن وآخر للأخلاق والعادات وآخر للجبال والآكام وآخر للبحار والأنهار والأودية وآخر للأديان والمذاهب وآخر لأسماء الأمم والشعوب وآخر للقرى والاماكن وآخر للملقبين بالباشا من ترك وعرب . وآخر للدول والبعثات والثورات والشركات والمجامع الخ . وآخر لأسماء الرجال والنساء والبيوت والعشائر . وآخر لأسماء أئمة اليمن خاصة وآخر للألفاظ المستعملة في اليمن . وآخر لألفاظ يمانية لم ترد في الكتاب المنشور وانما زادها الناشر للافادة . والفهرس التاسع عشر هو فهرس للفهارس السابقة كلها

أرأيت أيها القارئ كيف ان هذا الكتاب بملاحقه وفهارسه أصبح أشبه بدائرة معارف للملكة اليمانية وقد وسع كل ماله علاقة بها ؟

أرأيت أننا تعلمنا معشر الشرقيين من ناشري الكتب الغربيين طريقة إلحاق الفهارس والاستدراكات فأربينا عليهم، ونقدّمناهم أشواطاً .

أرأيت كيف ان زميلنا العلامة رأى في كتاب (بلوغ المرام) جوانب مظلمة فألقى عليها من حسن بيانه نوراً بَهرَ عيون القراء . وقد يكون من شدة الظهور الخفاء .

وقد أعجبنا من صنيع الناشر الفاضل احصاؤه طائفةً من الألفاظ المستطيرة في جنبات اللهجة اليمنية وتخصيصه فهرسين جمع فيهما شواردها وقيّد أوابدها : (الدِمَّة) هي القطة (الزامل) النشيد الوطني (الطفش) البرنيطة (العرك) صيادو السمك (الفرّار) الزئبق (النطار) حارس الزرع (النقل) الحجارة (البرعشية) السيوف (الجيد) الجبل (الرزيم) مصرع القتيل (الزرط) الخفاش (سعْ) مثل : يقال فلان وفلان سع في نظري اي هما متماثلان (الشقران) الفراريج (شل) المكانَ احتله (الضاح) السراج (العنبورد) الكمثرى (القشمي) الفجل (قنبر يقنبر) جلس يجلس (الكتان) البق الدبّاب الخبيث الرائحة (المردم) الزاوية (المدس) شجر الآس (الوينان) يريدون اليونان . قال : والسفن المستعملة في سواحل بحر اليمن يسمى أصغرها : الهوري فالقطيرة فالزعيمة فالسنبك فالساعية فالبغلة فالسفينة . الى غير ذلك من الألفاظ التي كان للأب المحترم فضل عظيم في التقاطها وتنسيق دررها . ويا ليته عمد الى البحث في أصول هذه الألفاظ وبيان ما اذا كانت حميرية او حجازية أو أعجمية . ولو فعل لجرى من عادته على عِرْق . ولاستنَّ في ميدان لا يزال له فيه السبق .

ويتخلل قوائم هذه الألفاظ اليمانية التي جمعها الناشر الفاظ أخرى شائعة في جوانب لهجتنا السورية واللبنانية كما انها نفسها منبثة في اللهجة اليمانية . وما كان لذكرها معنى ولا فائدة في هذه القوائم : اذ أن المفيد للقارئ أن يعرف ماني لهجة

غيره مما ليس في لهجته . أما ما اشتركت اللهجتان (اليمنية والشامية) فيه فليس بالأمر العجيب ، ما دمنا عرباً في عنصرنا ، عرباً في لغتنا . وما الفائدة في أن يقال لنا ان اليمانيين يقولون في لغتهم اليومية : للآجر آجر . وللأركيلة أركيلة . وللألاجة الاجه وللألماس ألماس ولأمير الجيش امير الجيش . وللحنطة حنطة وللبرنيطة قبعة وان تبختر في مشيته تبختر . وحط على المكان نزل فيه ، واخذه بحذافيره . ورجال وجمعه رجاجيل (وهؤلاء اللبنانيون يقولون في أغانيهم الشعبية : لا تفتكر ياعلي حولك رجاجيل يابا) والزورق والطاقية والفلوكة وقش الزبد اذا كشطه والقهوة والكفتا واللبن والمحطة والمسرح والمقهى والنارجيلة والتبريش والنشا وإحنا (بمعنى نحن) واصحاب اي اصدقاء والبابور والبيبور والتتن والتنبك والتنور والجبّانة . والحزام والحلبة والخافقية (لنوع من آنية الطعام) والخبز والخزامى والخيار والشباك والطاقة (اي النافذة) والصحن للطعام . والصيني (للآنية المجلوبة من الصين) والطواشي للخصي . والعوّامة للحلوى المستديرة المدملكة . والغليون الذي يمص به الدخان والقثاء والماهية لراتب الموظف . والمحبوس وجمعه محابيس . والمكتب للمدرسة ووقعت صاعقة في مكان كذا) كل هذا مما نطق به في شامنا كما ينطق به اليمانيون في يمنهم ومن البعيد ان يكون الأب المحترم شامياً لبنانياً ثم لا يعلم ان هذه الكلمات من بنات وطنه . فهل نسيها يا ترى ؟!

ومما لاحظناه على الاستاذين مؤلف الكتاب وناشره أنهما لم يشيرا الى ان قصيدة (مسك الختام) التي نظمها المؤلف وشرحها — قد حذا فيها حذو قصيدة من اشهر قصائد الأدب العربي وقال النويري هي من أمهات القصائد : فان القصيدتين من فرد بحر وقافية وموضوع . وليس هذا فقط بل ان سرد حوادث التاريخ في القصيدتين متشاكل . وجرس الكلمات وإيرادها متوائم . حتى ان من سمع قصيدة العرشي خيل اليه أنه يسمع القصيدة الأخرى وان كان بين القصيدتين فرق كبير من جهة بلاغة القول ونقاء الديباجة وجودة السبك . واعني بها قصيدة الوزير ابن

عبدون التي رثى بهـا أولياء نعمته الملوك من بني الأفطس : فقد سرد ابن عبدون الكوارث التي حلت بالملوك الماضين كارثة كارثة واتخذ من فجائعهم أسوةً للفجيعة ببني الأفطس :

مطلع قصيدة العرشي اليمني :

في صورة الدهر ما أغنى عن العبر   لذي فؤادٍ وذي فهم وذي نظر
خداعة وهي في التحقيق شيمتهـا   مكارة وهو عيب غير مستتر
وفرّشت ذهبـاً للمالكين بهـا   لكن حشتها حِداد الشوك والإبر

وقال ابن عبدون :

الدهر يفجع بعد العين بالأثر   فما البكاء على الاشباح والصور
فلا يغرنك من دنياك نومتهـا   فمـا صناعة عينيها سوى السهر
تسرُّ بالشيءُ لكن كي تغرَّ به   كالأيم ثار الى الجاني من الزهر

وقال العرشي :

وما أمدّت بني العباس نجدتهـا   الا بجيشٍ زوالٍ غير منتهر
وألبست ثوب هولٍ من خياطتها   بني زيادٍ على منصوبة الجدر
ولا ابن مهديّ لما قام معتجراً   زادته الا مزيد النقص في العمر
وما حمت جعفراً في داره وله   معاقل مُلئت بالحزم والحذر
وفوّقت لبني الضحاك أسهمهـا   ولم تدع لبني المنتاب من أثر

وقال ابن عبدون :

هوّتْ بدار وفلّت غربَ قاتله   وكان عضباً على الأملاك ذا أثر
واسترجعت من بني ساسان ما وهبت   ولم تدع لبني يونان من أثر
وما أعادت على الضليل صحته   ولا ثنتْ أسداً عن ربها حُجر
وخضبت شيب عثمان دماً وخطت   إلى الزبير ولم تستحي من عمر
ولم تراقب مكان ابن الزبير ولا   رعتْ عياذته بالبيت والحجر

وهذه المقارنة بين القصيدتين ان كانت فاتت المؤلف الشارح فما كان ينبغي ان تفوت المحقق الناشر لما في ذلك من الفائدة للناشئين المتأدبين

ولا يقدح هذا في قيمة الكتاب المنشور · ولا في جهود ناشره الذي بلغ من الشهرة في خدمة لغتنا الشريفة والحرص على نشرها وتحقيق ألفاظها مبلغاً لا يحتاج معه الى ثناء · وانما يحتاج الى دعاء ، بأن يطيل الله عمره ، ويدني من يد المجتنين ثمره

المغربي



الجاحظ وفن القصص في كتابه البخلاء

رسالة للاستاذ محمد المبارك في ٧٦ صفحة

طبعت في مطبعة الترقي بدمشق سنة ١٣٥٨ هـ / ١٩٤٠ م

استطاع الاستاذ المبارك في رسالته هذه ان يكشف عن فن الجاحظ في كتابه عن البخلاء بنهج لم يسبق اليه معتمداً على نصوص من الكتاب شرحها وعللها ، فوجد ان قصصه مأخوذة من الواقع وانه يصور الأشياء بدقائقها والانسان بحركاته ولهجته وهيأته وأنه ينفذ الى أعماق نفسه فيعرض شعورها غير أنه لا يستحسن ولا يستقبح ما يعرض اللهم الا ساخراً او من وراء ستار ، كل ذلك بأسلوب يلبس لكل حال لبوسها ، دقيق في التعبير ، يثير صوراً واضحة تظهر القصة وكأن القارئ قد حضرها بنفسه ، ورأى المؤلف ان كل ذلك يدخل في مضمار مايسميه الافرنج بالـ «Réalisme» اي المذهب الواقعي فأقر بأن فن الجاحظ في قصصه واقعي قبل ان يخلق أدباء الغرب مذهب الواقعية · ولعله بالغ في ذلك فالمذهب الواقعي نجم في أحوال خاصة وتبعاً لتطور خاص لم يشهده عصر الجاحظ فكانت له صفته الخاصة وبالغ في ايجاد نظير لتطور

الآداب الغربية حين جعل الجاحظ يبغي تصوير طبقة المتمولين التي ظهرت ببغداد في عصر الجاحظ (ص ١٣ و١٦) ، فأبو عثمان يصور البخلاء أين سكنوا : في بغداد او البصرة او مرو ، والى أي طبقة انتسبوا أكانوا كباراً جشعين او متمولين نهمين او كانوا طفوليين او معولين او محتالين . وعلى كل فالاستاذ المبارك يحمد على رسالته التي تشعر بقدرة وتتبع وجهد تنبئ بمستقبل حسن في التأليف .

وتلك بضع ملاحظات عرضت لنا :

ص ١٢ : فاته ان يذكر ثبت أهم ما كتب عن الجاحظ

من ص ٤٨ الى ٦٨ : اهمل أن يعنون كل القصص فصار القارئ يتوهم ان عنواناً وضع لقصة واحدة يسري على عدد منها متتابع

من ص ٤٨ الى ٧٣ : نسي ان يذكر اماكن القصص المنتخبة في كتاب البخلاء من الطبعة التي اعتمد عليها .

وكان حرياً به أن يفرد في اول رسالته وصفاً عاماً لكتاب البخلاء ليعرف القارئ ما يقرأ عنه ، وان يقارنه بما ورد في كتب الأدب في باب البخل والبخلاء وان ينسب فن الجاحظ القصصي الى فنه في مجمل تأليفه ، ولعلنا نطلب شططاً من مؤلف يقدم عجالة ويعرض جديداً .

يوسف العش

آراء وأنباء

تعزيز اللغة العربية في لبنان

تأليف جمعية دائمة مهمتها السهر على لغة القرآن

نشرت الصحف المحلية في لبنان وسوريا الخبر الآتي

في أواخر الاسبوع الفائت جرى اجتماع مرخص به من قبل الحكومة اللبنانية في منزل المحامي الاستاذ الياس نعوم بركات للمداولة والبحث بشأن تعزيز اللغة العربية في البلاد . وقد حضره رهط كبير من كبار علماء البلاد وأدبائها ومحاميها ، وافتتح الجلسة الاستاذ بركات صاحب الدعوة بكلمة بين فيها الغاية من الاجتماع ثم انتخب سماحة الشيخ مصطفى الغلاييني رئيساً للجلسة والاستاذ روبير ابيلا امين سر لها وبعد مناقشات طويلة سجل لسماحة الشيخ رئيس الجلسة اقتراح مفاده ان تكون اللغة العربية اللغة الرسمية الوحيدة في جميع المحاكم الوطنية وسائر دوائر الحكومة والبلديات كذلك اقترح ان يبحث المجتمعون بشأن تعزيز اللغة العربية في جميع نواحي حياتنا الاجتماعية

وسجل لنقيب المحامين الاستاذ فؤاد خوري اقتراح آخر بأن يكون للغة العربية المقام الأول في جميع المعاهد العلمية على اختلاف أنواعها وان يكون تدريسها اجبارياً في كل صف من صفوف الدراسة ، رسمية كانت أو خصوصية ، ثم اقترح أن ينبثق من هذا الاجتماع جمعية رسمية تستحصل على إجازة من الحكومة للاهتمام بهذا الموضوع واتخاذ جميع الوسائل الممكنة لتعزيز اللغة العربية .

وأخيراً اقترح صاحب الدعوة ان لا تعطى البكالوريا باللغات الاجنبية قبل ان ينالها الطالب باللغة العربية .

وبعد موافقة الجميع على هذه المقترحات وتوقيعهم اياها انتخبت لجنة موقتة تكون مهمتها العمل على تحضير مجتمع اوسع من المجتمع المعقود يدعى اليه فريق من اهل

العلم والأدب والغيرة على تعزيز اللغة العربية ورفع مستواها في هذه البلاد لانتخاب جمعية دائمة تقوم بتنفيذ المقررات الآنفة الذكر وغيرها مما يعهد اليه فيما بعد ، وقوام اللجنة المذكورة سماحة قاضي الشرع الشيخ مصطفى الغلاييني رئيس الجلسة وامين السر فيها الاستاذ روبير ايلا نقيب محرري الصحافة اللبنانية ، ونقيب المحامين الاستاذ فؤاد الخوري ، والنقيب السابق للمحامين الاستاذ جوزيف خوري ، ووزير المعارف ونقيب الصحافيين سابقاً الاستاذ خليل كسيب ، والشاعر الكبير الاستاذ بشارة الخوري ، والاديب المعروف الاستاذ جرجس المقدسي ، وصاحب الدعوة المحامي الاستاذ الياس نعوم بركات .

وقد قررت اللجنة المذكورة عقد اجتماعها يوم الاثنين الساعة الرابعة بعد الظهر في ٢٤ تشرين الثاني سنة ١٩٤١ في دار سماحة الشيخ مصطفى الغلاييني .

(المجمع العلمي) سره هذا الخبر جد السرور وهو يهنئ القائمين به ويغتبط بعملهم ومسعاهم الجليل في خدمة اللغة العربية

اهداء كتب

أهدتنا وزارة معارف العراق الجليلة طائفة من الكتب المدرسية المقررة لمدارسها وعددها ٤٤ كتاباً مطبوعة طبعاً متقناً ومزينة برسوم جميلة وجميعها تأليف كبار أساتذة التعليم في العراق وترجمتهم وهي :

	اسم الكتاب	اسم المؤلف	عدد الأجزاء	مكان طبعه
١	القراءة الخلدونية	ابو خلدون	١	بغداد
٢	تمارين الحساب للمبتدئين	الدكتور داود القصير	٢	«
٣	القراءة العربية .	محمد بهجة الاثري	٤	دمشق
٤	دروس الاشياء	جعفر خياط وتحسين ابراهيم	٣	بغداد
٥	الصحة للاحداث	الدكتور محمد حسن سلمان	٣	«

اسم الكتاب	اسم المؤلف	عدد الأجزاء	مكان طبعه
٦ الجغرافية الاولية الحديثة	عزيز سامي وابراهيم شوكة	٣	بغداد
٧ الحساب	جماعة من مدرسي الرياضيات	٢	〃
٨ المطالعة العربية	اكرم زعيتر وعز الدين آل ياسين	٢	بيروت وبغداد
٩ الحساب الثانوي	محمد علي مصطفى	٢	بغداد
١٠ مبادي العلوم الطبيعية	تحسين ابراهيم وجليل جواد وجعفر خياط	١	〃
١١ الهندسة المستوية	علي وجلال امين زريق	٢	〃
١٢ الجبر	حكمت عبد الحميد وشريف يوسف	١	〃
١٣ الجغرافية المتوسطة الحديثة	ابراهيم شوكة وعزيز سامي	٢	〃
١٤ الكيمياء الأولية	تحسين ابراهيم	١	بيروت
١٥ تاريخ الامة العربية	درويش المقدادي	١	بغداد
١٦ الفيزياء العملية	بشير اللوس وحسن الجواد	١	〃
١٧ علم الحيوان	عبد العزيز مهدي وبشير اللوس	١	〃
١٨ مبادي المثلثات المستوية	محيي الدين يوسف	١	〃
١٩ دروس الرياضيات العامة	عبد الله غوبديا ومحمد علي مصطفى	٢	〃
٢٠ علم النبات	عبد العزيز مهدي وجعفر خياط	١	〃
٢١ الهندسة المجسمة	علي مظلوم وجلال امين رزق	١	〃
٢٢ التربية والتعليم في تركيا الحديثة	الدكتور محمد فاضل الجمالي	١	〃
٢٣ اتجاهات التربية والتعليم في المانيا وانكلترا وفرنسا	〃 〃	١	〃
٢٤ بيت الأمة أي التعليم الريفي في المكسيك	ترجمة نجلا طنوس عقراوي	١	〃

	اسم الكتاب	اسم المؤلف	عدد الأجزاء	مكان طبعه
٢٥	هذه اهدافنا	الدكتور سامي شوكة	١	بغداد
٢٦	مشروع التعليم الاجباري في العراق	الدكتور متى عقراوي	١	«
٢٧	نهج الدراسة الابتدائية والمتوسطة والثانوية	وزارة المعارف	٣	«
٢٨	الكيمياء العامة في الفلزات واللافلزات	تحسين ابراهيم وجبرائيل فتح الله كساب	١	«
٢٩	الكيمياء العامة	ابراهيم اسماعيل وفرح الله ويردي	١	«
٣٠	التاريخ العام	الدكتور مجيد خدوري	١	«

الفهرس العام

(لما في هذا المجلد من المواد والموضوعات مرتباً على حروف الهجاء)

(حرف الألف)

الصفحة

(حرف الذال)

(حرف الراء)

(حرف السين)

(حرف الشين)

(حرف الصاد)

(حرف الطاء)

(حرف العين)

الصفحة

(حرف الغين)

(حرف الفاء)

(حرف القاف)

(حرف الكاف)

الصفحة

(حرف اللام)

(حرف الميم)

(حرف النون)

الصفحة

(حرف الواو)

(حرف الياء)

فهرست الاعلام

(أي أسماء كتاب المقالات المنشورة في هذا الجزء مرتبة على حروف المعجم)

(حرف الالف)

(حرف الباء)

(حرف الجيم)

(حرف الخاء)

(حرف السين)

(حرف الشين)

(حرف الواو)

(حرف الياء)



جدول الخطأ والصواب

ورد في اجزاء هذا المجلد اغلاط مطبعية نبهنا الى معظمها فيما يلي:

ص	س	خطأ	صواب
٢٤	٧	وجعها	وجعلها
٢٦	٣	جلجة	جلجلة
٢٦	١٠	نحتفظ	نحفظ
٥٥	٢	قبل سنة	قبل خمسين سنة
٨٨	٢٢	وفضله	وفصله
١٣٩	١	الجامعة العربية	الجامعة العبرية
١٤٤	٣—٤	ولم يروعن الصحابة والتابعين	ولم يرو عن الصحابة والتابعين اي خبر في ذلك
١٤٤	٩	كولا كبري	كوكوبري
١٤٤	٢٣	وكان الاحتفال	واصبح الاحتفال
١٦١	٩	برنابا	برتايا
١٩١	٩	مهاً خالف	مهما خالف
٢٣٩	٣	ابو ريدة	بوريدة
٢٩٢	١٧	تاثر	بتاثر
٣٣١	١٧	يحتاج اليها الشباب المتأدبين	يحتاج اليها الشبان المتأدبون
٣٣٢	١٣	هيأة	هيئة
٣٣٣	٢٠	ياابن	يابن
٣٣٣	٢١	〃	〃
٣٣٥	١٧	٢٤٢	٢٩٢
٣٤٢	٢٣	Chritien	Chrétien
٣٥٢	٨	فاستولى	تقدم فاستولى

ص	س	خطأ	صواب
٣٦٠	الهامش ٥	٢٩٣ اي ٢٩٣	٢٩٣(بحذف اي ٢٩٣)
٣٦٢	١٩	يبتدأ	يبتدئ
٣٩٥	١٦	العبيد له	العبيد
٤٠١	٩	وولد	ووالد
٤٢٢	الهامش ١	جرحي	جرجي
٤٢٣	〃 ٥	طبقات القرا	طبقات القراء
٤٢٣	〃 ٨	زتر سنين	زتر ستين
٤٢٣	〃 ٩	رشاد	ارشاد
٤٢٥	〃 ٤	وفيات الأعيان ٢:١٠٣	وفيات الأعيان ٢:١٦٣
٤٤٣	١٣	عنا	عينا
٤٤٩	٢	للذين	اللذين
٤٦٢	الهامش ٤	سر صناعته	سر صناعة
٤٦٤	〃 ٨	ترتبب	ترتيب
٤٦٤	〃 ١٣	الارهري	الازهري
٤٦٥	١٩	التآليف	التأليف
٤٦٧	٩	يكون	يكن
٤٧١	١٥	سنيناً	سنين
٤٧٢	١٥	مصدر غناءهم	مصدر غنائهم
٤٧٢	١٥	مبعث هناءهم	مبعث هنائهم
٤٧٣	١٤	الغير	غيرهم
٤٨٠	٥	٢٥٢	٢٤٢
٥١٢	١٦	ضرب	ضروب
٥٦٤	٩	اسعد الحلم	اسعد الحكيم
٥٧٠	١٩	بدار	بدارا